رحلات الفرنسيين إلى وادي سوف وأعماق العرق الشرقي

بصحراء قسنطينة (1860-1939)

ترجمة وتعليق ودراسة

البروفيسور: علي غنابزية

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر بجامعة الوادي- الجزائر

أ.د/علي غنابزية

رحلات الفرنسيين إلى وادي سوف وأعماق العرق الشرقي

بصحراء قسنطينة (1860-1939)

ترجمة وتعليق ودراسة

البروفيسور: علي غنابزية

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر بجامعة الوادي- الجزائر

عنوان الكتاب

رحلات الفرنسيين إلى وادي سوف وأعماق العرق الشرقي

بصحراء قسنطينة (1860-1939)

ترجمة وتعليق ودراسة

تأليف:

البروفيسور: علي غنابزية

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر

جامعة الوادي - الجزائر

0559 38 29 00

alijadla@gmail.com

الطباعة

ردمك:

978-9931-650-84-3

الإيداع القانوني:

نوفمبر 2019

تصميم الغلاف:

كمال خزان

الإهداء

إلى كل باحث عن الحقيقة واتخذ العلم دليلا. .

والى رواد المعرفة في الصحراء على مر الزمان. .

والى الأجداد الذين جعلوا من وادي سوف
قلعة للوطنية والمقاومة

أهدي هذا العمل.

أ.د. علي غنابزية

تصدير الكتاب

إن الكتابة التي تستهدف خدمة التاريخ الوطني، هي رسالة الشرف والسؤدد، لأنها تفتح آفاقا للناس، فتعرفهم بالأمجاد الماضية، والآثار الخالدة، التي هي محل فخرهم واعتزازهم، على مر الزمان، ما دام الليل والنهار.

وعندما تكون الكتابة رسالة، فكل ما نكتبه يؤتي أكله ولو بعد حين، ذلك ما وقفت عليه في قصة هذا الكتاب، الذي كان في الأصل مجموعة من الترجمات أعددتها لخدمة مذكرة الماجستير، وأطروحة الدكتوراه، وكنت مضطرا إلى ترجمة النصوص والوثائق التي تثري تلك الدراسات، وبقيت الترجمات مكدسة في الرفوف، وأدت غرضها، ولكن فوائدها لا تنتهي، عندما تتوفر لدى كاتبها الروح العلمية.

كانت المناسبة الأولى، عندما بدأت التحضيرات لتظاهرة قسنطينة عاصمة الثقافة العربية، في سنة 2014، أتصل بي أحد الناشرين، حتى أشارك ببعض المؤلفات لطباعتها في التظاهرة، فلبيت النداء، وجمعت ما تمكنت من جمعه من تراثي المبعثر، ويومها ولد هذا الكتاب، وأكدت في عنوانه على صحراء قسنطينة التي كانت وادي سوف ضمن نطاقها الجغرافي والسياسي، منذ العهد العثماني، وتمتد إلى العرق الشرقي الكبير، وكنت مطمئنا إلى اعتماد إحدى الكتب المعروضة، وطمأنني الناشر بالموافقة على واحد منها، ولكن شيئا من ذلك لم

يعتمد، لأن رياح الثقافة تجري بما لا تشتهي سفن المصالح؛ وحينها بقي الكتاب في خزان الملف الإلكتروني. ومرة أخرى وفي شهر ماي2017، اتصلت بي دار نشر من ألمانيا، وطلب ـ أحد أفرادها ـ أن أسمح له بنشر فصل من أطروحتي للدكتوراه، وفرحت بالعرض، واعتذرت لكونها في المطبعة، وطلبت منه تعويضها بهذا الكتاب، فلبى النداء فورا، وساعدني على إعداد صفحة الغلاف، وأرسل لي النسخة كاملة ومعها الترقيم الدولي، لكن ظهر ـ بعد قليل ــ أن سعيهم فيه ابتزاز وليس نشر للكتاب، فطلبوا مبلغا معتبرا من الدولارات لنسخة واحدة مطبوعة، ترسل لاحقا بالبريد، وهنا تنبهت لهدفهم، فاعتذرت لهم، بسب كثرة التكاليف وحرمان القارئ الجزائري من الكتاب الذي سوف يسوق عالميا ـ في اعتقادهم ـ وبقي الكتاب ينتظر للمرة الثانية في خَزَّانِهِ الإلكتروني، لعل الأيام تجود بالفرج القريب، ومن يومها قررت أن أطبعه على نفقتي، حتى يستفيد أهل بلدي، ويصل نفعه إلى ذويه من أهل الفضل والتقدير.

ولما عزمت على طباعته في هذه الآونة، رأيت أن الكتاب في حاجة ماسة إلى تمهيد منهجي، حتى يكون في خدمة طلبة العلم في المعاهد والكليات، وأقسام التاريخ وشعبه الجامعية، ويتعدى فضله لكل محترف لفن الترجمة، أو تستهويه الدراسات التاريخية، التي تعتمد على الكتابات الفرنسية ولاسيما في العهد الاستعماري. وقد وفقت إلى تدبيج التمهيد الذي زاد الكتاب نورا وبيانا.

واليوم أقدم الكتاب للطباعة بنفس فرحة، وصدر منشرح، وأشكر دار سامي للطباعة على السهر في خدمة العلم ونشره، والوقوف بصدق وإخلاص إلى صف المؤلفين، وأتمنى لهم التوفيق والسداد، وأسأل الله تعالى أن يغفر لي كل خطأ عابر، أو نقص بدا في صفحاته، وكانت الغفلة والضعف سببه، فله وحده سبحانه المرجع والمآب والتوفيق إلى سبيل الصواب، إنه ولي ذلك والقادر عليه، وهو نعم المرشد والمعين.

البروفيسور علي غنابزية

الوادي يوم الاثنين29 محرم 1441هـ

29 سبتمبر 2019م

المقدمة

تمثل الجزائر بين البلدان المجاورة، قارة مترامية الأطراف، واسعة الأرجاء، متعددة الأقاليم، تتعانق مع سبع دول، في حدود مديدة، ربطت العلاقات، ومتنت الوشائج بين شعوب المغرب العربي، ومنحت للجزائر فوائد جمة، وهذا جعل من قسنطينة مطلة على بلدين مجاورين، بصحرائها الجنوبية، التي أحدثت التواصل مع تونس شرقا، وليبيا جنوبا، وجعلت الصلات دائمة مع صحراء العرق الشرقي الكبير، بداية من بوابة الصحراء، بلاد الزاب، ومرورا بوادي ريغ الموالية لها في الأرض، ووادي سوف، ووارجلان.

وكانت القوافل دائمة السير في تلك المفاوز، بدافع التجارة، أو الهجرات المتتابعة، أو السفر لطلب العلم، أو أداء فريضة الحج، فضلا عن الضرب في الأرض ابتغاء فضل الله، والجهاد في سبيله، تلك كلها أسباب وعوامل ورثتها البلاد منذ آماد بعيدة.

ولما حل القرن التاسع عشر، وتعرضت البلاد للاحتلال الفرنسي، الذي سعى من أول أيامه إلى اقتحام هذا العالم المجهول لديه، وسبر غور هذه القفار الخالية، والمسالك المخيفة، والواحات الغائبة في أعماق الرمال؛ بدأ ببث العيون، وإرسال المغامرين، وتجهيز البعثات الاستكشافية، وتنظيم الرحلات ذات الطابع العلمي في ظاهرها، وتشجيع السيارة لزيارة الأقاليم الصحراوية بكل حرية، والتعرف عن

الآخر، واكتشاف الخفي، وكشف المستور. ولكنها في الأخير رحلات، تتجمع في بوتقة واحدة، تخدم الخط الفرنسي، الذي يعمل على التحكم في السكان، والتمركز في البلدان، وتمكين قدم الاستعمار في تلك البقاع النائية.

ويحق للمرء أن يتساءل عن مدى قدرة أولئك الأجانب - رغم حجم المخاطر التي تهددهم - من تحقيق أغراضهم، والوصول إلى أهدافهم الإستراتيجية المسطرة مسبقا، والتي بذلوا من أجلها المال الكثير، وسخروا الإمكانيات الجبارة من جهد ووقت، لتبقى تلك الجهود، وملخص تلك الرحلات محفوظا في صفحات التاريخ، ومبثوثا في فصول الكتب والدوريات الفرنسية المتخصصة، وصحف الأهالي الصادرة في الجزائر الشمالية.

وعندما كنت أبحث في تاريخ الصحراء الجزائرية، عثرت على الكثير من رحلات الفرنسيين إلى صحراء قسنطينة بالخصوص، ومنطقة الجنوب الجزائري في قسمه الشرقي ولاسيما منطقة وادي سوف، فاخترت أربعة نماذج، منها رحلات لهواة السياحة، يرجع تاريخها إلى سنة 1933، إحداهما نظمها السائح (ريني فاليت) الذي زار بسكرة وتقرت وتماسين، وختم الزيارة بوادي سوف، وسمى تقريره - رحلته - " **أرخبيل سُوفْ**"، والثانية رحلة للرسام الفرنسي الذي انطلق من نفطة التونسية رفقة القافلة المتجهة إلى وادي سوف، ويدعى (ريني تورنيول)، وعنوان رحلته "**من الجنوب التونسي إلى سُوفْ**"، ومر

أثناءها بعدة أبراج وقرى، حتى وصل إلى مدينة الوادي، واختبر حالها، ووصف رمالها ورجالها، أما الرحلة الثالثة فلها الطابع الجماعي، وتمت من الوفد الذي رفع شعار (الفرنكو ـ أهلي) في محاولة لتجميع المتناقض، والتوفيق بين المتنافر، وهي جمعية أهلية تضم أعوان الاستعمار من الأهالي، مدعمين بالعسكريين الفرنسيين، الذين زاروا في رحلتهم الدعائية، انطلاقا من الزاب إلى وادي ريغ وقراها، ووادي سوف وأحوازها، ومجدوا الوجود الفرنسي في الجزائر، وأظهروا عبقريته التي دفعت عجلة الحضارة التي مست أعماق الصحراء، وذللوا ـ حسب زعمهم ـ الصعوبات القديمة، وكانت بعنوان " **جولة "أصدقاء فرنسا " في الجنوب الشرقي أو جماعة: الميعاد الخيري".**

ويضاف إليها الرحلة الأخيرة التي نظمتها ملحقة الوادي، ومن قبل المقدم (ج. فيري) قائد المخفرة العسكرية، وسماها "**الوصل بين الوادي وغدامس بسيارة الجيب**" وهي رحلة فيها مجازفة، وبنيت على التحدي لتحقيق إنجاز طالما راود صاحبها، لتحطيم الرقم القياسي في التوغل بأقصى نقطة على الحدود الرابطة بين غدامس الليبية وصحراء قسنطينة، وتمت على متن سيارات(الجيب) الأمريكية سنة 1948، في زمن بدأت السيارات تغزو الصحراء، ونشطت حركة التجارب الميدانية.

لقد كانت حاجتي شديدة إلى معلومات عن صحراء قسنطينة وأقاليمها، لإثراء أحد بحوثي العلمية، فنقبت مليا في الكتابات الفرنسية المختلفة،

وحاولت ترجمة ما توفر لدي، بشكل عابر بما يخدم الموضوع، ولكن الرحلات بقيت تلح علي بإعادة النظر فيها، وضبط عباراتها، وصياغتها بأسلوب يتماشى مع جمال اللغة، دون الإخلال بأفكارها، وحاولت أن أعيش بكياني مع أحداثها، وأتنقل مع كتابها في المدن، وأتجول في الطرقات، وأحط رحالي بين الكثبان الرملية؛ ولا أدعي أنني مترجم خبير، وإنما هو اجتهاد لا يخلو من نقص، وتلك هي الطبيعة البشرية، ولكن الموضوع غزير الفوائد، وقد شفعته بمقدمات تمهيدية حددت فيها مصطلح "صحراء قسنطينة" وظروف ظهوره، وقمت بمسح مختصر لأبرز الرحلات الاستكشافية، ومراحل احتلال العرق الشرقي، ودور الفرنسيين في الوصول إلى أعماقه من خلال وسائل النقل الحديثة، واقتحام رمال الصحراء، وفك العزلة عن واحاتها وقراها.

ولم أترك تلك الرحلات على حالتها الصماء، بل تصرفت بعض الشيء بوضع عناوين إضافية، وشروح وتعليقات ضافية في الهوامش، وعقدت قسما وصفيا للرحلات، وتعرضت لتحليل المادة المدونة، وعرض قيمتها التاريخية، وأسلوبها بمعانيه الفنية الجمالية، وتُوج بتقييم ونقد لما ورد من معلومات تحتاج لوقفة متأنية، حتى يكون القارئ على بينة من أمرها، ويستنير بها لتفهم شؤون أخرى.

وتبقى هذه الرحلات عينة مبسوطة، ونماذج مختارة، لعلها تشجع المهتمين بالدراسات التاريخية والأدبية، بالالتفات لهذا التراث، وغربلته، والاستفادة منه، حتى نقف على حجم الهجمة الاستعمارية،

ونطلع على ما قاله الخصوم عنا، وما كتبوه عن بلادنا وشعبنا، وكلها تنفض الغبار عن وقائع تاريخية، حان الوقت لكتابتها بأقلام وطنية صادقة، ترفع من صرح الذاكرة بموضوعية، وتضع الحقائق في نصابها، ولا تغمط حق الآخرين.

وأتمنى أن تكون هذه الزفرات نافعة، وأسأل الله أن يغفر لي كل هفوة قلم، أو زلة عبارة، أو شذوذ فكر، والله من وراء القصد وهو وحده الهادي إلى سواء السبيل.

الوادي: 3 ربيع الأول 1435هـ

5 جانفي 2014م

الدكتور علي غنابزية

مختصرات الهوامش

المختصر	التفصيل
A.O.M	Archives Outre-mer, Aix-en-Provence, France
G.G. A	Gouverneur General de L'Algérie
B.S.G. A	Bulletin de la Société de Géographie D'Alger
B.L. S	Bulletin de Liaison Saharienne
T.I.R. S	Travaux de L'Institut de Recherches Saharienne
S. D	Sans date

التمهيد المنهجي للكتاب

أولا ـ ترجمة النصوص التاريخية

ثانيا: التعليق على النصوص المترجمة

ثالثا: دراسة النصوص المترجمة

التمهيد المنهجي للكتاب

يتميز هذا الكتاب بتنوع فوائده، فيجد فيه القارئ الفضولي ضالته المنشودة، فيتعرف عن أحوال وادي سوف خلال العهد الفرنسي، بعيون فرنسية ناظرة، وأقلام أجنبية وافدة، وشهادات السياح العابرة والدقيقة؛ والتي تم كتابتها في صحف، ودونت في مقالات تعريفية استكشافية.

كما يجد فيه الباحث أساليب تعليمية ولاسيما في مراحل إعداد الرسائل والبحوث العلمية الأكاديمية، فيطلع بعمق على أساسيات الترجمة من الفرنسية إلى العربية، ويتعلم أبجديات التعليق والتحليل للمدونات التاريخية، وأساليب الدراسة في مادتها الخبرية، وطرق استثمار المواد المعرفية المترجمة، وبلورتها حتى تكون جاهزة لبناء التاريخ الماضي، ويمكن الوقوف في هذا التمهيد عند المنهجية العلمية في جوانبها الثلاث:

أولا ـ ترجمة النصوص التاريخية:

تمس الترجمة مختلف ميادين العلوم والمعارف، بتحويل النصوص من اللغة الأجنبية إلى العربية الفصيحة، ومنها النصوص الأدبية الإبداعية، والنصوص القانونية، وأخرى في جوانب الاقتصاد والمال، وغيرها من المجالات، وكلها تلتقي مع ترجمة النصوص والكتابات التاريخية، التي هي مجال البحث في هذا الكتاب.

1 ـ تعريف الترجمة:

أ ـ لغة: الترجمة مشتقة من كلمة ترجم، التي تفيد ما تبعها من كلام، [1]فنقول ترجم الكلام: بينه ووضحه، وترجم كلام غيره نقله من لغة إلى أخرى. [2]وفي اللغة الأجنبية، ترادفها في الفرنسية كلمة **Traduction**، كما تستعمل كلمة **"التعريب"Arabisation** التي تعني نقل النص من اللغة الأجنبية وإعطائه صبغه عربية. [3]

ب ـ اصطلاحا: الترجمة التاريخية، هي نقل نصوص تاريخية من لغة إلى أخرى مع المحافظة على المعاني المقصودة، والمعلومات المضبوطة، بأسلوب علمي له مسحة جمالية.

2 ـ أهمية الترجمة التاريخية:

الترجمة فن غزير الفوائد، عظيم الأهمية في كل العلوم والمعارف، وتكمن أهميته في علم التاريخ بالخصوص فيما يلي:

ـ الترجمة تساهم في رقي الشعوب ونهضتها، فالأمة العربية عرفت نشاطا باهرا في عالم الترجمة ولاسيما في العصر العباسي، عندما نقلت علوم اليونان وفارس والهند إلى اللغة العربية، وكذلك تأثرت أوربا

---

1 - وردت كلمة الترجمة بمعاني أخرى منها التعريف بالشخصيات وكتابة السير الذاتية، وهي نعت لعلم التراجم، ومن معانيها تحويل الشيء، نقول ترجم القرار إلى عمل، أي نفذه وطبقه في واقعه.

2 - مجمع اللغة العربية، **المعجم الوسيط**، مكتبة الشروق الدولية، ط 4، مصر، 2004، ص 83.

3 - خميس حسن، **فن الترجمة من الفرنسية إلى العربية وبالعكس**، دار الطلائع، القاهرة، كتاب الكتروني مصور عن الأصل، ص 07.

بالنهضة العربية، عندما أعاد علماؤها ترجمة علوم العرب، والتي كانت هي الأخرى سببا في النهضة الأوربية الحديثة، وبالتالي فالمترجم يساهم بفعالية في نهضة أمته. [1]

ـ تمد الترجمة الكتابة التاريخية برصيد زاخر من النصوص الحية التي تستغل في بناء الحوادث والمسارات التاريخية، وتسد الفجوات، وتستدرك النقائص، وتثري الكتب والمقالات التاريخية.

ـ تساهم في كشف الحقائق الغائبة، والتي لا يمكن للقارئ العربي أن يطلع عليها إلا بلسان قومه، ولا يتم ذلك إلا بواسطة الترجمة، والتي تجعل المشتغل بها، يقدم خدمة جليلة لبني جنسه، لأنه يقرب البعيد، ويجلي الغامض، ويفك المعقد من الرموز، ويسهل للمتعثر في اللغة الفرنسية أن يطلع بسهولة على المعارف المدونة.

3ـ تقنيات الترجمة التاريخية:

الترجمة هي العمل العلمي الذي يمارسه المؤرخ في الميدان، وتؤتي ثمارها بعد طول التجربة وكثرة التطبيق، ولذلك فالترجمة هي (الحرفة التي لا تتأتى إلا بالدربة والمران والممارسة استنادا إلى موهبة، وربما كانت لها جوانب جمالية، بل ربما كانت لها جوانب إبداعية. . . ومعنى ذلك أنه لا يمكن لأستاذ في اللغة أو الأدب أو في كليهما، أيا كان حظه من العلم. . . أن يخرج لنا نصا مقبولا مترجما عن

1 - خميس حسن، المرجع السابق، ص 03.

إحدى اللغتين دون ممارسة طويلة للترجمة). [1] ولذلك فالترجمة عند المؤرخ، تقتضي معرفة التقنيات الأساسية، التي يجب توفرها لديه، وأهمها:

ـ **القراءات المتعددة للنص:** تسبق كل ترجمة خطوات عملية، أهمها القراءات المتأنية، فيفهم في المرة الأولى معنى النص العام، ثم يتعمق في تحديد مساره التاريخي زمانا ومكانا، ويكتشف ما به من إشكاليات ينبغي حلها، وألفاظ غريبة ـ يتطلب الأمر ـ البحث عنها في المعاجم المتخصصة، ويسجل في كل مرحلة ما يظهر له من ملاحظات، وتكون الترجمة الأولى ضرورية، وتتبعها خطوات أخرى تخص المادة التاريخية، والصياغة اللغوية.

ـ **معرفة الحدث التاريخي:** إن معرفة الحدث التاريخي بكل أبعاده، يضطر المترجم إلى مراجعة الوثائق، وتصفح الموسوعات، وتقليب الكتب، والتقميش من المخطوطات التي عايشت الحدث، وحينئذ تتضح الصورة، وتكون الترجمة متطابقة، أو قريبة من الحقيقة.

ـ **تحديد المصطلحات الواردة:** لكل مجال مصطلحاته وألفاظه الخاصة به، وهذا يتطلب البحث في المعاجم، والقواميس التاريخية، والاستعانة بأهل الاختصاص إذا اقتضى الحال، وحينئذ تكون الترجمة للأفكار دون حرفية الكلمات أو التراكيب، فالمطلوب أن

1 - محمد عناني، **فن الترجمة**، الشركة المصرية العالمية للنشر، ط5، القاهرة، 2000، ص 02.

تؤدي الترجمة المقصود وتترجم الفكرة بدقة، وتعرض المعرفة التاريخية دون غموض.

وقد تكون المصطلحات محلية، يختلف نطقها عن الأصل، وهذا يدعو المترجم، ويلح عليه الحال أن يتنقل إلى الأماكن، ويختلط بالناس، ويأخذها صحيحة من معينها الصافي، وهذا ما فعله الدكتور أبو القاسم سعد الله عند ترجمته لكتاب شارل هنري تشرشل حول حياة الأمير عبد القادر، فقد زار الأماكن التي شهدت الأحداث في الغرب الجزائري، ومما كتبه في المقدمة :(قبل كتابة هذه المقدمة رأيت من الضروري زيارة الأماكن التي جرت فيها أحداث الكتاب، لذلك توجهت إلى مدينة معسكر، عاصمة الأمير وأقمت فيها عدة أيام زرت خلالها مسقط رأس الأمير في القيطنة على ضفة وادي الحمام. . . والواقع أن هذه الزيارة ضرورية لأكثر من سبب. فنقل الكتاب من لغة أجنبية إلى العربية يستلزم إعادة كثير من الألفاظ والمصطلحات إلى أصلها العربي نطقا وكتابة.) [1]

ـ **حسن صياغة الأفكار:** إن الفهم الشامل للنص، هو النجاح الأول للمترجم، وإن حسن الصياغة والتبليغ، هي الثمرة المرجوة، لأن (المترجم كاتب، أي عمله هو صوغ الأفكار في كلمات موجهة للقارئ، والفارق بينه وبين الكاتب الأصيل هو أن الأفكار التي

1

الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - الجزائر، 1974، ص 05.

يصوغها ليست أفكاره، بل أفكار سواه) [1]. ولكنه يتمكن من نقل النص إلى اللغة العربية حتى يكون في متناول القراء والباحثين عن الحقائق التاريخية. ويضفي على نصوصه مسحة جمالية، تبعده عن الغموض والركاكة اللفظية، وتتعالى به إلى السهولة والعذوبة اللغوية.

ـ الاهتمام بالقواعد اللغوية في الترجمة: حتى تكون الترجمة جميلة، يتطلب إتقان قواعد اللغتين من نحو وبلاغة وبيان، مع الالتزام بالأمانة في نقل النص المترجم، والتفريق بين الأمانة في الترجمة، والحرفية في الترجمة، (فالأمانة تتطلب أن ينقل لنا المترجم النص روحا ومعنى وتعبيرا، وان يراعي المعنى الذي يقصده الكاتب. . . أما الترجمة الحرفية فتعمل فقط على نقل النص كلمة كلمة، بمعنى الالتزام بالنص المنقول منه من ناحية معاني المفردات والتراكيب اللغوية متجاهلا تباين الأساليب اللغوية بين لغة وأخرى وبذلك يعطينا صورة مشوهة لأسلوب الكاتب وأفكاره). [2] ولهذا برزت أهميتها في الجزائر منذ العهد الاستعماري، وتطورت في عهد الاستقلال، وكان لها أثرها العلمي.

4 ـ المسار التاريخي للترجمة في الجزائر:

نشأت الترجمة في المجتمع العربي الإسلامي مع حركة الفتوحات الإسلامية، وبروز الحضارة العربية، بعد ترجمة التراث اليوناني

1 - خميس حسن، المرجع السابق، ص ص 05-06.

2 - نفسه، ص 08.

والروماني، وكان العهد الأموي فاتحتها، عندما مَلَكَ خالد بن يزيد بن معاوية (ت 85هـ / 704م)، مكتبة ضخمة ورثها عن جده، وتعاون مع ثلة من علماء عصره في ترجمتها إلى العربية [1]. وازدهرت الحركة في العهد العباسي وتزامنت مع شغف الخلفاء بجمع الكتب وتطوير المعارف والعلوم، وشملت مختلف التخصصات العلمية، [2] ولعل أكبر انفتاح على الحضارة الأوربية، كان متزامنا مع حملة نابليون على مصر 1798، والتي رافقها جيش من العلماء والمفكرين، وازدادت العلاقة ارتباطا بالثقافة الفرنسية بالانفتاح الذي تم في عهد محمد علي باشا، بإرساله البعثات للتعلم في فرنسا، وبعد عودتهم ألفوا وترجموا ووضعوا النواة الأولى للترجمة من الفرنسية إلى العربية، وتمكن رفاعة الطهطاوي من تأسيس مدرسة للترجمة برعاية الدولة المصرية سنة 1935م. [3] وهكذا صارت الترجمة علما منذ الخمسينيات من القرن الماضي، له أصوله ودراساته المختلفة.

وظهر فن الترجمة في الجزائر في القرن التاسع عشر في ظل الهيمنة الفرنسية على البلاد، منذ توزيع أول منشور أو "بيان" بالعربية قبيل

---

1 - أحمد أمين، **فجر الإسلام**، المكتبة العربية، ط1، بيروت، 2006، ص ص 128-129.

2 - أحمد أمين، **ظهر الإسلام**، المكتبة العربية، ط1، بيروت، 2006، ج1، ص ص 180-181

3 - محمد صبري، **تاريخ العصر الحديث - مصر من محمد علي إلى اليوم**، مطبعة مصر، ط2، القاهرة، 1927، ص ص 54-56.

الحملة في الجزائر وتعداه إلى تونس والمغرب، [1] وكتب البيان يدويا، وطبع ووزع على أوسع نطاق. [2] لأن الهدف من استعمال العربية هو تبليغ الجزائريين أهداف الحملة الفرنسية، وصار غرض الترجمة هو إحكام السيطرة عليهم، والتفاهم السهل معهم، وكان لفرنسا عدد من المترجمين الفرنسيين ـ وهم قلة ـ أو من عرب المشرق أو اليهود الذين ارتبطوا بالفرنسيين بعد حملتهم على مصر، وحينئذ فان الحملة الفرنسية على الجزائر أنتجت هذا الوضع الأول للترجمة. [3]

وتولى الترجمة اليومية ـ التي تسهل للفرنسيين التعامل مع الجزائريين ـ رجال النخبة الاندماجية الذين كانوا في الجيش والإدارة والقضاء، كما كان للمدارس الشرعية الثلاث دورها الفعال في تكوين النخبة التي حافظت على الهوية وبعضها كان نتاج الجامعة الجزائرية [4]. وشهدت الترجمة تطورا ارتبط بالصحافة والقضاء والجيش، والمكاتب العربية، والملحقات العسكرية، وضمت جزائريين ومستشرقين فرنسيين، وكان هدفهم ترجمة النصوص العربية إلى الفرنسية في الأساس الأول.

---

1 - أنظر: أبو القاسم سعد الله، **أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر**، دار الغرب الإسلامي، ط3، بيروت، 1990، ج1، ص ص 271-276.

2 - أنظر: صورة البيان الأصلية في كتاب، **مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار**، تحقيق أحمد توفيق المدني، ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط2، الجزائر، 1980، ص 177.

3 - أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1998، ج6، ص145.

4 - نفسه، ص 144.

وكان قادة الاحتلال يجمعون المخطوطات والمدونات المحلية، ويدفعونها للمختصين لترجمتها، مثلما فعل مترجم الجيش الفرنسي شارل فيرو الذي ترجم تاريخ العدواني في 12 نوفمبر 1867، من النسخة التي حصل عليها حاكم تقرت وسوف علي باي بن فرحات، ونشرت الترجمة في نفس السنة في مجلة **"Recueil"** الصادرة بقسنطينة [1]. وقدم المتعلمون الجزائريون خدمة كبيرة للغة والثقافة الفرنسية، وترجموا إلى الفرنسية كتبا في اللغة والتعليم ولاسيما القواميس، والفقه، والأدب والتاريخ والاجتماعيات. [2]

والترجمة من الفرنسية إلى العربية هي هدفنا اليوم ـ وهي فحوى هذا الكتاب ـ ولكنها لم تكن هدفا أساسيا لدى الفرنسيين، ومع ذلك وُجدت ـ في العهد الاستعماري ـ بعض الترجمات التي تعتبر نوعا من المعارف أو القرارات الرسمية أو الإجراءات الصحية، أو النصائح المتعلقة بالفلاحة وتربية الحيوانات، والأخبار الدعائية، وكذلك النسخة الفرنسية المعربة لجريدة المبشر التي بدأ صدورها عام 1847، ويضم القسم العربي فيها عدد من المترجمين الجزائريين، وكل ما سبق ذكره يخدم المصالح الاستعمارية ويمتن الروابط بين الجزائر وفرنسا. [3]

---

1 - أنظر: **تاريخ العدواني**، تحقيق أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1996، ص39.

2 - أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج6، ص 173.

3 - نفسه، ص ص 181-182.

ولكن عهد الاستعمار، شهد حركة فتية للترجمة الوطنية، وهي الرافد الأول لكتابة التاريخ الوطني، وتصدى لها ثلة من المؤرخين الجزائريين بأنفسهم، أو بمساعدة غيرهم من المثقفين ممن يتقن اللغة الفرنسية والعربية، وفي مقدمتهم الشيخ مبارك الميلي عندما شرع في تأليف كتابه "تاريخ الجزائر في القديم والحديث" وأتمه سنة 1928، وتلقى المساعدة من إخوانه المقربين ومنهم أحمد توفيق المدني، ومنهم أصدقاءه الذين أثنى عليهم في الإهداء بقوله : (أولئك الذين اذكر منهم - وملء فمي الفخر بهم - الشبان العاملين الأصدقاء: عيسى الزهار الترجمان بالأغواط، محمد التهامي الترجمان بميلة، عمر دهينة أحد المعلمين بالمكاتب الفرنسية وأفذاذ نبغاء الرسامين). [1]

كما كان الأستاذ أحمد توفيق المدني رائدا في بعث تاريخ الجزائر مبكرا سنة 1931 بتأليف ونشر"كتاب الجزائر" وما تلاه من مؤلفات زاخرة بالأصالة، وساعده تفتحه على الفرنسية كما وصفه ابنه، وتمكنه من الترجمة، [2] واستيعاب ما يقرأ، وتقديمه بلغة سهلة جزلة سخية. وواصل في نفس النهج الشيخ عبد الرحمان الجيلالي، الذي كان له الفضل في نهضة الجزائر، ومقاومة المستعمر، والانتصار للهوية الوطنية، فاخرج كتابه الهام، "تاريخ الجزائر العام"سنة 1954، وساعدته في ترجمة النصوص الفرنسية، زوجته الكريمة المصون، وأثنى عليها في مقدمة

1 - مبارك الميلي، **تاريخ الجزائر في القديم والحديث**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، د ت، ج1، ص 07.
2 - احمد توفيق المدني، **كتاب الجزائر**، دار البصائر، الجزائر، 2009، ص ص 09-13.

كتابه، لأنها ممن بذر أصول الترجمة لخدمة تاريخ الجزائر عبر العصور، ومما نثبته في هذا الكتاب تأكيدا لدورها، ومما ورد في مقدمة الكتاب يقول الجيلالي: (. . . ما أنا مقر به لربة البيت والعفاف الجليلة الكريمة قرينتي وشريكة حياتي ورفيقتي في السير بهذا العمل المتواضع المنعمة المبرورة: أم غالب "ميمي خداوج" - سقى الله ضريحها - من المؤازرة العظيمة فيما كانت تمدني به من تحقيقات تاريخية وبحوث نفيسة تستخلصها من مطالعاتها المستمرة وقراءاتها المتتابعة لكتب الإفرنج الباحثين في موضوع تاريخ الجزائر، فكانت رحمها الله تلخصها وتترجمها إلى العربية طيلة أيام إعدادنا لهذا التأليف وجمع شتاته من أوله إلى آخره.) [1]

أما في زمن الحرية والاستقلال، ولما فتحت الجامعة أبوابها للطاقات الأكاديمية الجزائرية، من أجل تدريس التاريخ الوطني والبحث في وقائعه، كان في مقدمة الباحثين الجادين، والذين ولجوا باب الترجمة بقوة حزم وعزيمة، الدكتور أبو القاسم سعد الله، والذي احتاج للكتابة باللغات الأجنبية في المهجر، وانفتح على اللغة الانكليزية والفرنسية، ووضع الأصول الأولى للكتابة العلمية في تاريخ الجزائر الحديث

1 - عبد الرحمان الجيلالي، **تاريخ الجزائر العام**، ديوان المطبوعات الجامعية، ط7، الجزائر، 1994، ص ص 04-05.

والمعاصر، [1] وأثرى المكتبة الوطنية بالعديد من المؤلفات المترجمة، والمقالات المعربة عن الفرنسية، [2] وقد بدأ يترس على الترجمة في مرحلة الدراسة بالولايات المتحدة، ولقنها لطلابه بالجزائر، وشهدت الجامعة عددا من الأساتذة الذين اقتفوا أثره، وأبرزهم الدكتور محمد العربي الزبيري، الذي ترجم عدة كتب عن الفرنسية، [3] كما درج هذا الجيل على ترجمة الكتب المختلفة التي تخدم التاريخ، ولاسيما المؤرخ والمترجم المكثر "إسماعيل العربي"[4]وكذلك الباحث الأكاديمي وأستاذ فن الترجمة الدكتور حنفي بن عيسى، الذي سطرت أنامله

1 - أهم الكتب المترجمة من الانكليزية حياة الأمير عبد القادر لهنري تشرشل الذي ترجمه سنة 1971، وكتاب شعوب وقوميات سنة 1984، و كتاب الجزائر وأوربا، للمؤرخ الأمريكي جون. ب. وولف، سنة 1985.

2 - أنظر سلسلة كتبه وخصوصا أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، والتي تحتوي على عشرات الدراسات والمقالات المعربة.

3 - الكتب التي ترجمها هي: مذكرات احمد باي وحمدان خوجة وبوضربة سنة 1971. وكتاب المرآة لحمدان بن عثمان خوجة سنة 1972،

4 - أثرى الأستاذ إسماعيل العربي المكتبة الجزائرية بعشر مؤلفات مترجمة، نذكر منها على سبيل المثال: مذكرات مترجمة من الانكليزية منها، مذكرات الكولونيل سكوت عن إقامته في زمالة الأمير عبد القادر، طبعت سنة 1981، مذكرات وليم شالر قنصل أمريكا، طبعت سنة 1982، مذكرات أسير الداي كاثكارت قنصل أمريكا في المغرب، طبعت سنة1982، والكتب المترجمة من الفرنسية هي كتاب الإسلام في مجده الأول، طبع سنة 1984، سقوط غرناطة، طبع سنة 1988، الدراسات العربية في الجزائر في عهد الاحتلال الفرنسي "1830-1962" ماسي، طبع سنة 2007. راجع: مسعود فلوسي، ترجمة المؤرخ والمحقق والمترجم الأستاذ إسماعيل العربي الجزائري، ، الموقع الالكتروني: **المكتبة الجزائرية الشاملة،** تحت إشراف عمار رقبة الشرفي، تم الاطلاع يوم 2019/09/21، الثامنة صباحا.

ترجمات عديدة في عدة فنون علمية وأدبية وتاريخية، [1] ومن طلبته الأستاذ صالح نور الذي ترجم تحت إشرافه كتاب تاريخ بايات قسنطينة في العهد التركي للكاتب الفرنسي أوجين فايسات[2]. ويضاف إليهم الأستاذ المهتم بالترجمة التاريخية، الدكتور أبو العيد دودو، الأديب والباحث الأكاديمي والذي ترجم من عدة لغات، وأهمها الألمانية واللاتينية، [3] وكان يؤمن أنه أديب، ولا مانع من الولوج إلى حقل الترجمة للنصوص التاريخية، ووضعها في متناول الباحثين، وتكون رسالتهم دراسة ما ترجم بدقة المؤرخ المتفحص، ويجعل الترجمة رسالة، وما ذكره في السياق التالي: (. . . فإني أعتقد أن من واجب كل من يتقن لغة أجنبية لأن يشارك في إعادة كتابة تاريخ بلاده بغض النظر عن ميدان اختصاصه. ومشاركته هذه تتم في نظري عن طريق عرض النصوص المكتوبة بهذه اللغة أو تلك وتقديمها للمؤرخ

1 - مما ترجمه حنفي بن عيسى كتاب تاريخ إفريقيا العام، الدروب الوعرة، رواية سنة 1967، تعلم لتكون بمشاركة اليونسكو، سنة 1974، الجزائر الأمة والمجتمع لمصطفى الأشرف، سنة 1983، وغيرها.

2 - أوجين فايسات، **تاريخ بايات قسنطينة في العهد التركي 1792-1873م**، ترجمة صالح نور، دار قرطبة، ط1، الجزائر، 2010.

3 - أهم الكتب التي ترجمها أبو العيد دودو من الألمانية إلى العربية، كتاب الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان 1830-1855، والذي صدر سنة 1975، وكتاب ثلاث سنوات في شمال غربي إفريقيا، للرحالة الألماني مالتسان هينريش فون، في ثلاثة أجزاء، في سنوات 1976-1979، وكتاب قسنطينة في أيام احمد باي للرحالة الألماني فنرلين شلوصر، سنة 1980، ومذكرات سيمون بفايفر أو لمحة تاريخية عن الجزائر، سنة 1974، وغيرها، وترجم من اللاتينية إلى العربية أول رواية في تاريخ الإنسانية، هي رواية **"الحمار الذهبي"** للفيلسوف والأديب الجزائري ابن مداوروش لوكيوس أبوليوس. أنظر: أبو العيد دودو، **الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان 1830-1855**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989، ص 04.

المتخصص لتقويمها وربطها بقرائنها التاريخية ثم مقارنتها بغيرها من النصوص لمعرفة صحتها وموافقتها للوقائع التاريخية.)[1]

والجدير بالذكر أن الترجمة تتابعت من قبل المهتمين بالتاريخ الوطني والتراث الجزائري في الخارج؛ وساهمت مدينة الوادي في هذا الميدان الذي اقتحمه الأستاذ عبد القادر ميهي، بترجمة الكثير من الكتب والمقالات التي ألفها الفرنسيون في تاريخ وادي سوف، ووضعها في أيدي الباحثين وكانت ثمرتها يانعة[2]، وفي نفس المسار ترجم أستاذي الأديب الشاعر أبو بكر مراد كتبا تاريخية وأدبية هامة في تراث وادي سوف كتبت بأقلام فرنسية، أو من قبل أبناء المنطقة[3]، وكلها تؤسس لثقافة الترجمة الحرة والعلمية على حد سواء، وما ذكرناه هو غيض من فيض، لأن تراث الجزائر المعطاءة بمثابة البحر الذي لا يحده الساحل.

كما وجدت الترجمة مناخا جديدا، انتعشت فيه وتطورت، واكتسبت الحس العلمي في رحاب الجامعة الجزائرية بكل أقسامها، لأن طلبة

---

1 - أبو العيد دودو، الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان 1830-1855، ص 06.

- 2 أثرى الحاج عبد القادر ميهي مكتبة الترجمة في تاريخ سوف من الفرنسية إلى العربية، ومن كتبه نذكر على سبيل المثال، عودة العاشق المنفي حول كتابات إيزابيل ابرهاردت عن سوف، طبع سنة2006، وكتاب غراسة النخيل في سوف لجاستون كوفي، طبع سنة 2013، وكتاب مذكرات الطريق لهنري دي فاريبه، وطبع سنة 2014، وغيرها من الكتب.

3- ترجم الأستاذ أبو بكر مراد، عدة كتب ألفها ابن مدينة قمار، والمقيم في فرنسا، إبراهيم بن عيشة، وهي روايات تاريخية رائعة، أولها القافلة، طبع سنة 2014، والثاني كتاب العيش في الجنة، أو من الواحة إلى مدينة الصفيح، وطبع سنة 2014، وكتاب سوف مونوغرافيا للأستاذ الفرنسي اندري فوازان، وطبع سنة 2016.

الماجستير والدكتوراه، وفي سبيل إنجاز بحوثهم ومذكراتهم ورسائلهم العلمية، اضطروا إلى اقتحام هذا الفن ولاسيما في كتابة التاريخ الجزائري والذي تنتشر كتاباته في المدونات التي كتبها الضباط والمترجمون الفرنسيون والهواة من الرحالة والصحفيين الفرنسيين، فضلا عن الوثائق الأرشيفية التي تزخر بها دورا الأرشيف الفرنسية[1]، والجزائرية، وكنتُ ضمن الباحثين الذين استعملوا الوثائق والمقالات الصحفية والكتب التاريخية الفرنسية، واعتمدت عنها بنسبة كبيرة في إنجاز الماجستير والدكتوراه، وهي التي الهمتني إلى ترجمة النصوص التي يحتويها هذا الكتاب الذي نقدمه، والذي نذُكّر به لعله يعمق الفكرة لدى الباحث الوثاب، حتى نجسد الدراسات العلمية الحقيقية.

ولعل الدراسة الجامعية في أقسام التاريخ عند تدريس مناهج الماستر، توجد ضمن وحدات التعليم، مادة اللغة الأجنبية التي ترافق الطالب في مسيرته التعليمية، والتي تقوم على تدريب الطالب على تقنيات ترجمة النصوص والوثائق؛ والغرض منها، تمكين الطالب من استعمال اللغة الأجنبية في البحث العلمي، والتعامل بيسر مع النصوص والمصطلحات التاريخية، وتعويده على الترجمة الضرورية في

1 - لا يمكن كتابة تاريخ الجزائر في عهد الاحتلال دون الرجوع للوثائق الأرشيفية المكدسة في أرشيف ما وراء البحار بآكس آن بروفانس بمرسيليا، وارشيف وزارة الحرب بقصر فانسان بباريس، والأرشيف الدبلوماسي بنانت، وغيرها من المؤسسات.

البحث، إضافة إلى استخلاص المعلومات من النصوص والوثائق الأجنبية، وتحليلها ونقدها. [1]

ثانيا: التعليق على النصوص المترجمة:

إن التعليق المقصود في كتابنا هذا، هو التعليق الذي يكتبه المترجم في هوامشه، ويكون متناسقا مع ما أنجزه، وذلك هو المطلوب علميا، ولن يتأتى له ذلك إلا بفقه العرف، ومعرفة طبائع الناس وخصوصياتهم، وعادات وتقاليد الفئة التي يترجم نصوصها؛ فان لم يكن المترجم منهم، يضطره الحال إلى استكمال النقص بالبحث في تاريخهم وثقافتهم وتراثهم، والاستعانة بعلم الانثروبولوجيا، والجغرافية البشرية، لعلها تسعفه، وتذلل له الصعاب، وتسهل له الولوج إلى النص السليم.

1 ـ تعريف التعليق:

أ ـ لغة: الكلمة مشتقة من "عَلَّقَ" والتي يختلف معناها اللغوي بحسب موقعها من الكلام [2]، أو مصطلحات العلوم، وعادة يكون التعليق في الأخبار والكتابات هو الإيضاح والتفسير والتحليل. [3]

---

1 - أنظر: عرض تكوين: ل م د، - ماستر أكاديمي في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الوادي الموسم الجامعي 2013/2012.

2 - لكلمة التعليق استعمالات شتى، وهي مبسوطة في القاموس، فإذا قلنا علق الشيء مثل الإعلان، فيعني ثبته وأبرزه، وفي القضاء نقول علق الحكم، أي أوقف تنفيذه، وفي السياسة علق الدستور أي أوقف العمل به مؤقتا، وهكذا تتعد المعاني. أنظر: المعجم الوسيط، المرجع السابق، ص 622.

3 - أنظر: المعجم الوسيط، ص 622.

ب ـ اصطلاحا: التعليق على النصوص، هو إيضاحها وتفسير الغامض منها، ونقدها، وتصويب أخطائها وتجلية ما يلتبس على القارئ من غموض أو يخل بالمعاني، ويكون التعليق عادة في هامش النص [1] أو الكتاب. [2]

2 ـ أهمية التعليق التاريخي:

لا شك أن كثيرا من الأفكار والمعاني والحوادث التاريخية الواردة في النصوص المترجمة تطرح العديد من أشكال الاستفهام، وهنا تكمن الأهمية العلمية للتعليق:

ـ التعليق يعطي للحوادث التاريخية المعنى العميق، لأن المترجم صاحب خبرة، ومعرفة بالتاريخ، وله القدرة على قراءة ما وراء السطور في النصوص المترجمة، ويكتشف ذلك من خلال الوثائق المساندة، والكتابات المفسرة.

ـ العمل على خدمة المعرفة التاريخية، وعرضها بالأسلوب العلمي، واختيار المفردات التاريخية المناسبة للسياق، وخصوصا في الهامش الذي يمثل فضاءً حرًا للمترجم، بدون إفراط أو تفريط، وإنما يكون متوازنا في طرحه للأفكار، مع التركيز على قيمتها وضرورتها، ويتجنب ـ قدر الإمكان ـ الإسهاب الممل.

---

1 - المرجع السابق، ص 622.

2- إذا كان التعليق أصليا ومترجما مع النص، يكتب بين قوسين (المؤلف)، وإذا كان التعليق جديدا من أفكار المترجم واضطررنا إلى التمييز، يكتب بين قوسين (المترجم).

ـ أن يتجرد من كل نعرة يمكن أن تؤثر على المعرفة التاريخية، ويتحلى بالموضوعية العلمية، ويقدم الحقيقة التاريخية واضحة دون ريب أو تشكيك في عرضها.

3ـ تقنيات التعليق التاريخي:

عندما يشرع المؤرخ في ترجمة نصوصه التاريخية، تظهر له الأفكار، والملاحظات، التي تستفزه للتعليق عليها، وحينئذ يتبع طريقة علمية واضحة المعالم:

ـ استخلاص الجمل والأحداث التاريخية، وأسماء الأعلام والمؤسسات، والأشياء المختلفة، وصياغتها بدقة، حتى تكون في متناول البحث في حينها.

ـ الاستفادة من كل المدونات، كالوثائق الأرشيفية، والكتب المخطوطة والمطبوعة، والمعالم المادية، والروايات الشفوية، لأنها الفيصل عند المقارنة والمقاربة التاريخية، بين النص المترجم والنصوص المشابهة لها في نفس المرحلة التاريخية.

ـ التعليق الأولي، بتركيب الجمل، وصياغة الأفكار، والتدقيق في المعلومات التاريخية المحققة، ومراجعة ما كتب تاريخيا من حيث الدقة، ولغويا من حيث الكتابة السليمة.

ـ إحالة التعليقات إلى الهامش، ويكون موازيا للنصوص، يمكن مقارنة ما كتب فيه مع النص الأصلي، ويذيل بالمصادر والمراجع التي اعتمد عليها في التحقيق أو الشرح والنقد والتفسير. فيذكرها

مباشرة أو يقدمه بكلمة " انظر" وبعدها يستعرضها، فالتوثيق هو سيد الموقف والقول الفصل.

4 ـ مجالات التعليق التاريخي:

إن مجالات التعليق المختلفة لا تحمل معاني السلبية في كل الإضافات أو الردود على صاحب النص، بل تعتبر ـ علميا ـ من أجل القضايا التي تؤكد عليها الدراسات الأكاديمية، ومن أهم المجالات التي ترصع بها هوامش التعليق، ومنها:

ـ **الاستدراك والمراجعة:** يعتبر الاستدراك على الكاتب من العناصر المهمة، لأن الغرض منه لفت الانتباه إلى ما أغفله الكاتب من حقائق مهمة، وحوادث معتبرة، وأسباب منطقية جلية، ونتائج معروفة في الأوساط العلمية، ولكنها سقطت من ذهن الكاتب، وتركت فراغا تاريخيا، وخللا معرفيا، ولا يسده سوى الاستدراك، بكتابة فقرات مركزة تستكمل النقص الواضح.

ـ **الشرح والإثراء:** قد يترجم المؤرخ نصا قديما، لا يفقه أهل المكان كثيرا من العادات أو الأحداث التي عاشها أجدادهم، أو كتب عنهم رجل غريب من الصحفيين العابرين، أو من دفعت بهم السياحة في الأرض إلى زيارة المكان، وكتب ما شاهد أو سمع أو أوحى إليه به تفكيره، وحينئذ يكون التدخل الخفيف من المترجم لتجلية ما غاب عن الحدث، وتتمثل هذه العملية، في "إثراء النصوص" وهي بمثابة تأليف جديد على طريقة الحواشي القديمة، التي تعمق النصوص

وتمططها ـ ربما بشكل واسع ـ يتحول إلى الترف العلمي، وهنا ينبغي التنويه إلى الاعتدال في معالجة النصوص ووضعها في موضعها المناسب.

ـ **النقد والتدقيق:** لا شك أن العملية النقدية لا يبالي فيها الكاتب بإظهار الحقيقة، وحينئذ يكون النقد بناءً، وبعيداً عن الغرض الشخصي، ولا يمت بصلة إلى حب الانتقام أو تصفية الحسابات أو التجني على الفرنسيين ـ مثلا ـ بحجة ما فعلوه في الشعب الجزائري، فان فعل أحد ذلك كان بعيدًا عن الروح العلمية، ويصنف في خانة الافتراء، ويكون نقده مخالفا لهدفه، وعليه تصويب ما وقع فيه من انحراف. والنقد يؤدي إلى تحقيق المسائل، والتدقيق في حيثياتها وأسبابها ودوافع أصحابها، وهذا يقتضي تقليب الحقائق على أوجهها، ومعرفة ما استتر منها، ولو تطلب ذلك وقتا معتبرا، لأن المسؤولية العلمية قيد في عنق المؤرخ الذي يعلق على ما ترجم بنزاهة متناهية.

ـ **التصحيح والتصويب:** عادة يخطئ الكاتب بسبب الغفلة عندما يكتب ـ لأن الكمال لله وحده ـ وهذا يقتضي تصحيح أخطائه، والإشارة إلى مكان المعلومات الصحيحة ومصادرها حتى يزول كل خطأ؛ وربما يكون الخطأ راجع للجهل بما كتب، أو عدم التحري فيما عرض، أو بسبب الغفلة وعدم المراجعة، أو كان متعمدا مصرا على رأيه الخاطئ، أو الذي تتعدد فيه الآراء، ومهمة المؤرخ هو التصويب

بعرضه المسألة المطروحة، وعرض الآراء حولها، والترجيح بينها، وتحديد الأقرب منها إلى الصواب.

ثالثا: دراسة النصوص المترجمة:

لما ينتهي المترجم من إتمام نصوصه المترجمة، وتتحول إلى رصيد في الكتابة العربية، ومادة خاما للأحداث التاريخية، تلح ـ تلك النصوص المترجمة ـ على الباحث، وتدعوه إلى دراستها وتنسيقها، وإعطائها أبعادها التاريخية:

1 ـ تعريف الدراسة:

الدراسة من الكلمات الجامعة للمعاني المتعددة، والمرتبطة بالتعليم والبحث العلمي على حد سواء، وحتى تتجلى معانيها جيدا نخضعها للتعريف المزدوج المعهود في الكتابات العلمية:

ـ **لغة:** أصلها من فعل درسَ، وتعني قراءة النصوص المكتوبة، والمعاني المدونة، وتلقي العلم والتتلمذ على الشيوخ [1].

ـ **اصطلاحا:** الدراسة هي البحث، الذي يعتمد أساسا على الكتب والمدونات والوثائق، والتي يقوم الباحث بقراءتها، واقتباس المعارف منها، واستخلاص النتائج المفيدة، واختيار عينات منها، أو حالات ظاهرة، والتعمق في بحثها، والتنقيب في آثارها. وتأخذ في المجال

- 1 لكلمة درس معاني كثيرة في مادة المعجم، وتعني القدم، ومنها دَرَسَ الأثر، أي مر عليه الزمن، ودرس الثوب، أي صار باليا سريع التمزق، ودرس الفراش أي مهده، وغيرها. أنظر: المعجم الوسيط، ص 279.

التاريخي، معاني الإثراء والتوسع في التاريخ وأحداثه المتراكمة، ووقائعه المتتابعة.

2 ـ أهمية الدراسة التاريخية:

إن النصوص التاريخية المكتوبة بلغة أجنبية، هي بعيدة عن ميدان البحث التاريخي، ولما ترجمت، تحولت إلى المجال الجديد، وحينئذ تظهر أهميتها، والتي يمكن حصرها فيما يلي:

ـ التعرف على الأحداث التي أشار إليها الأجانب ـ في أغلب الأحيان ـ فأكدوا في كتاباتهم على حقائق، معهودة، ووصفوا أحوالا شاهدوها، وأشاروا إلى شخصيات مغمورة اتصلوا بها، وعادات مهجورة تنبهوا إليها، ولم تذكرها المصادر المحلية، بل غيبتها، بحجة قلة قيمتها، ولكن التاريخ اثبت عكس ذلك.

ـ تمثل لوحة فنية بارزة من خلال جمع المتناثر، وتقريب المتشابه، والتوفيق بين المتلازم والمتنافر، والوصول إلى الحقائق المعتبرة في المجتمع الذي نسبت إليه، وتساهم في توسيع ثقافته، وتبرز قيمه الحضارية الغائبة.

ـ المساهمة في إعادة كتابة التاريخ، بنظرة علمية، ومصادر جديدة، واستثمار مختلف الآراء ووجهات النظر الغربية، واثبات الصحيح منها، ونقد ما خالف الواقع والحق، والرد على المتحامل أو المتجني على المجتمع، أو المستخف بالجمهور الذي آواه وأكرمه، ولكنه خانه، وغير الوقائع إلى الطرف النقيض.

3ـ تقنيات الدراسة التاريخية:

إثر الانتهاء من عملية الترجمة، يشرع الباحث في مرحلة جديدة من العمل في نفس الحقل المعرفي، ولكن بتقليب المعرفة على أوجه أخرى، واستخلاص النتائج المعتبرة، ويكون للدراسة تقنيات عديدة:

ـ قراءة النصوص من جديد، وتسجيل كل الملاحظات الواردة، وحتى يكون العمل منسقا ومنظما، تفتح ملفات، وتوضع الملاحظات والأفكار في مكانها، ريثما يتم الغوص في أسبابها، وتطوراتها، ونتائجها.

ـ توزيع المعلومات المستخلصة ضمن عناصر محددة، ولو كانت من مواضع عديدة، أو نصوص مختلفة، ولكن الخط الفكري يجمع بينها، والخيط المعرفي يمتن صلتها مع سائر المواضيع المشابهة لها، والتي تشكل نصوصا جديدة، ولدت في أحضان الدراسة، وتصير أبرز ثمارها.

ـ البدء في تحليل المعلومات، وإرجاعها إلى عناصرها الأصلية، ونقدها من ناحية الشكل والمضمون، ومناقشة جزئياتها بما يتناسب مع المنهجية العلمية، أو مقارنتها بما ورد في الكتابات المتوفرة للباحث، وكل ما وصل إليه اجتهاده من جمع وعرض، وحينئذ، يتحلى بالشجاعة دون إفراط، والتأني دون أحجام، والحد الوسط هو روح العقل الذي يزن الحقائق المعروضة، ويناقشها، ويبرز نتائجها النهائية، التي تصلح للعرض والكتابة.

ـ مراجعة ما كتب لغويا، بضبط التراكيب اللفظية، وتنسيق الجمل، وإضفاء الجانب الجمالي على الكتابة؛ كما تشمل المراجعة كل المعارف التاريخية الواردة، وما تم الاستعانة به من مادة معرفية من مصادر ووثائق داعمة للبحث، ورافدة للدراسة.

4 ـ مجالات الدراسة التاريخية:

أحيانا تلتبس على الباحث مجالات دراسة النصوص المترجمة، ويقف حائرا، ويعجز عن تحديد الأولويات، وحصر المواضيع المهمة؛ وحتى يزول اللبس، وتتضح الرؤية، نستعرض أهم المجالات، ونقترح أهم المسائل التي يمكن الوقوف عندها في عملية الدراسة التاريخية:

ـ أن يهتم بالمجالات الأربع العادية في الدراسات التاريخية، والتي تغطي الجانب السياسي للأحداث، وهي المعبرة عن الوقائع التاريخية، وتليها المسائل الاقتصادية، وما يرافقها من النشاط المالي، والممارسات الاستثمارية للمجتمع، ثم الجوانب الاجتماعية، وهي تفاعل الأفراد مع البيئة المحلية والإقليمية، ويضاف إليها القضايا الثقافية التي تعبر عن خط المجتمع وهويته، واهتماماته، مع الانتباه إلى عاملي التأثير والتأثر؛ تلك هي المواضيع الأربع التي تفتح نوافذ أخرى، يمكن إفرادها بالدراسة الجانبية.

ـ يمثل الجانب العمراني، والمنجزات المادية، والمؤسسات القائمة في المجتمع، إحدى المجالات الجديرة بالدراسة، ولاسيما أنها ترتبط تارة بالقرار السياسي في انجازها، أو العامل الاقتصادي في تمويلها،

والجانب الاجتماعي في ضرورة تشييدها، والجانب الثقافي الذي تكون له محلا للنشاط والحيوية؛ وقبل ذلك كله، فالعمران هو ثمرة الإنسان الذي أنجزه، فالمسجد مثلا، من العمران البارز في المجتمع، وله آثاره الاجتماعية في ناحية الدين، والثقافية في جانب التعليم والتربية، وهكذا يمكن الاجتهاد في باقي المؤسسات والعمران.

ـ يتتبع الباحث كل العناصر الطبيعية في نطاق المجتمع، ويقوم بدراسة البيئة، وما حولها من نباتات، وأشجار برية، وحيوانات متنقلة، ومسطحات مائية، وغابات وأحراش، وصحراء قاحلة قاتلة، وما يكتنفها من مجاهل تغيب فيها الأذهان، وتفتقر الأنفس إلى الماء، وتتنكب الطريق، والتحولات التي حدثت في البيئة، بتطور الإنسان، واجتهاده، وكلها تكون حاضرة لدى الباحث، حتى تتجلى حكمها وأسرارها، وتظهر فوائدها التاريخية.

ـ التعرض لحجم التطورات الإيجابية، وما يرافقها من انجازات حضارية، مثل تطور وسائل النقل، وانفتاح المجتمع على المشاريع المستوردة، أو الأفكار النافعة في البلاد، والتي تترك آثارها الإيجابية على الإنسان في بيئته المحلية، وغير ذلك من التطورات في شتى مجالات الحياة.

ـ حصر القضايا السلبية والمخاطر الظاهرة، والتي يكتبها الأجنبي عن المجتمع، ويكون فيها انتقاص من الأفراد، أو طعن في أصولهم، أو تزييف للحقائق والكذب على التاريخ، وحينها يكتشف الباحث تلك

السلبيات، فلا يسكت عنها، ومهمته إبراز الحقائق، وإنصاف الحق، بكل موضوعية، ودون تحيز لبني قومه، لأن مهمته قول الحق، والصدع به، ولا يخشى في الله لومة لائم، ولكن بأدب العلماء، وعقل المفكرين، وأدب المؤرخين.

وكل ما سبق يمثل خلاصة المنهجية المتبعة في هذا الكتاب النموذجي ـ ومن خلاله ـ أقترح هذه المنهجية التمهيدية لتكون نبراسا علميا، يستنير به الباحث، ويطوره من خلال الإثراء والزيادة، ويستدرك عنه، كلما وجد نقصا، وله الأجر والثواب، والله الموفق إلى سبيل الرشاد.

القسم الأول

صحراء قسنطينة ورحلات الفرنسيين (1860-1948)

1) دلالات صحراء قسنطينة

2) رحلات الفرنسيين في الصحراء الجزائرية

3 ـ الاحتلال الفرنسي لصحراء قسنطينة

4 ـ تطور وسائل النقل في صحراء قسنطينة:(1921-1948)

صحراء قسنطينة ورحلات الفرنسيين (1860-1948)

ارتبطت الصحراء الجزائرية بالوجود الفرنسي، الذي خطط منذ دخوله للبلاد، باحتلال كل شبر من الجزائر في مختلف أنحائها، بدون تمييز، وتم تنفيذه على مراحل، بدأت بالرحلات الاستطلاعية والبعثات الاستكشافية، وانتهت بتوغل الجيوش الفرنسية.

1) دلالات صحراء قسنطينة:

سعى الحكام الأتراك في الجزائر، أن تكون الصحراء تابعة للإقليم الممتد في الجنوب ولاسيما العرق الشرقي، الذي يقع جنوب إقليم قسنطينة، وعرفت "بالجنوب القسنطيني" التابع لبايلك الشرق الجزائري، وعمل البايات على إحكام سيطرتهم عليها، بتعيين الحكام المحليين، وإرسال محلات عسكرية لجمع الضرائب، وإخضاع المناطق المتمردة على السلطة، واستمر ذلك إلى عهد الاحتلال.

وإثر احتلال البلاد، بدأت أنظار الفرنسيين تتجه نحو الصحراء، التي كانت مأوى المقاومين، والمتمردين على سلطات الاستعمار، وحينئذ شرع في برنامج الكشف عن مجاهل صحراء الجنوب الشرقي، وظهر مصطلح "**صحراء قسنطينة**" الذي استنسخ عن العهد العثماني، وبرز جليا في الكتابات، والدراسات الفرنسية الخاصة بهذه المنطقة أثناء

رحلاتهم في النصف الأول من القرن 19، ويعتبر شارل فيرو[1] من الأوائل الذين أشاروا إلى هذا المصطلح، عندما ترجم تاريخ محمد العدواني، ونشره في مجلة روكاي، [2] تحت عنوان: **KITAB EL (ADOUANI ou LE SAHARA de Constantine et de Tunis)**

سنة 1868، [3] وكان فيرو مهتما بالدراسات الوصفية (الإثنوغرافية) ولاسيما عن منطقة القبائل الشرقية، كان يرافق الحملة الفرنسية على قبيلة بني خطّاب الشرقية في جوان 1860، فقام بتلك الدراسة التي كانت من أولى الدراسات التي لفتت نظر الاستعمار الفرنسي إلى تلك المنطقة وغيرها، وكان فيرو من أنشط المهتمّين بدراسة وتدوين عادات وتقاليد وفلكلور الجزائر، فقد أدرك أهمّية الدراسات الإثنوغرافية في التمكين لقدم الاحتلال في الجزائر، لأنّ تلك الدراسات تمكّن من معرفة ذهنية الشعب وتكشف عن تناقضاته الاجتماعية، وذلك من شأنه أن يغني إدارة الاحتلال عن كثير من "المتاعب" بل وحتّى الخسائر التي تنجرّ عن الاعتماد الكلّي على القوّة العسكرية. [4] وبرز المصطلح كذلك في الدراسة التي قام بها المهندس

1- شارل فيرو **(Laurent- Charles Féraud):** هو المترجم الرئيسي لجيش إفريقيا الفرنسي بالجزائر، بإتقانه اللغة العربية، ولد بنيس يوم 5 فيفري 1829، ويعتبر أهم خبير في تاريخ مقاطعة قسنطينة، وتوفي بالمغرب الأقصى في 19 ديسمبر 1888 . Voir: Wikipédia l'encyclopédie libre, le 28/12/2013.

2 -L. Féraud: Recueil des notices de la société archéologique de la province de Constantine, paris, 1868.

3 - محمد العدواني: **تاريخ العدواني**، المرجع السابق، ص 72.

4 - محمد العربي عقون: الاثنوغرافيا "الاستعمارية" شارل فيرو نموذجا"ـــ في ـــ **مجلة إنسانيات**، الالكترونية، الجزائر، تم الاطلاع على المقال يوم2013/12/28.

الزراعي الفرنسي(Lucien Marcassin)في دراسته العامة حول الزراعة، وخاصة عند الأهالي في صحراء قسنطينة، والتأثيرات الفرنسية، ومستقبلها، وسبل نجاحها، وتمت ما بين 1893-1894، ونشرت من طرف المعهد العالي للزراعة سنة 1895. [1]وتوالت الدراسات، وتعددت الاهتمامات حول الصحراء الجزائرية، بعد إحكام السيطرة عليها في بداية القرن العشرين، وتكونت الجمعيات المهتمة بالصحراء، وربطت صداقة معها، ومنها"أصدقاء الصحراء" في فترة الثلاثينيات، [2])وتختص في دراسة الصحراء ومحاولة التعرف عليها بشكل واسع بما يخدم السياسة الفرنسية الاستعمارية.

وخضعت اغلب الصحراء للسلطة العسكرية الفرنسية، منذ 1901، وقررت تقسيم البلاد إلى قسمين: الشمال والجنوب، وشرع البرلمان الفرنسي في إصدار القوانين لتحديد الوضعية القانونية للصحراء الجزائرية، [3] وتأسست أراضي الجنوب الجزائري **les Territoires du Sud de l'Algérie**"" بمقتضى قانون 24 ديسمبر 1902 الذي حدد المجال الجغرافي لها مع مناطق الشمال، والحدود التي تفصلها عن تونس جنوبا والمغرب الأقصى غربا، [4]

---

1 - Lucien Marcassin: **L'agriculture dans le Sahara de Constantine** ,imprimerie Berger-levrault,nancy,1895.

2 - Les amis de Sahara, **Orange du l'association Les amis de Sahara**, Alger,1932.

(3) أحمد توفيق المدني: **كتاب الجزائر،** نشر دار الكتاب، ط2، البليدة. الجزائر، 1963، ص 275.

4- Voir : G. G. de l'Algérie: **les Territoires du Sud de l'Algérie,** Première partie Imprimerie Algérienne, Alger, 1929, p 03-09.

وحدد بقانون 1902، وتم تقسيم هذا الإقليم إلى (Territoires) إي أراضي، [1] وعين على رأس كل منها قائد عسكري يتم تكليفه بواسطة قرار حكومي، ويهتم بإدارة الشؤون العسكرية والإدارية، وتم تقسيم كل أرض إلى دائرة وملحقات.

وصحراء قسنطينة، تمثل الفضاء الممتد في العرق الشرقي الكبير، الذي يمتد من جنوب الأوراس، ويضم مجموعة من الأقاليم الصحراوية وخصوصا بلاد الزاب بقاعدته بسكرة، ووادي ريغ بقاعدته تقرت، ووادي سوف بمركزه مدينة الوادي، ويصل الفضاء إلى ورقلة وغيرها، وحتى بلاد الهقار، والحدود الليبية. وتتركز الرحلات التي هي ـ لب هذه الدراسة ـ في التعرض لجزء هام من هذا الفضاء الشاسع الذي يضيع فيه الإنسان، فضلا عن الأذهان، التي تختلط عليها المعارف والمعلومات.

2) رحلات الفرنسيين في الصحراء الجزائرية:

لقد انطلق جهاز المخابرات الاستعمارية الفرنسية في الجزائر في عملية جمع المعلومات، ومباشرة الدراسات التاريخية عن الصحراء منذ الأيام الأولى للاحتلال، وقاموا بترجمة الرحلات التي قام بها المسلمون مثل رحلة العياشي والأغواطي والدرعي، ونشرت على أوسع نطاق

(1) وتمثلها الأقسام التالية: أرض عين الصفراء ومركزها عين الصفراء، وغرداية وقاعدتها الأغواط، وتقرت ومركزها تقرت، وارض الواحات ومركزها ورقلة. أنظر: توفيق المدني، المرجع السابق، ص 276.

للاستفادة منها سياسيا وعسكريا. ويمكن تتبع الرحلات في محورين من خلال العرق الشرقي الكبير:

أ ـ رحلات الجنوب الشرقي: لقد اندفع الفرنسيون بإلحاح، بعد احتلالهم لمدينة قسنطينة سنة 1837، إلى إرسال بعثات استطلاعية لاكتشاف خبايا هذه المناطق. فقد ترجم دافيزاك " **D'AVEZAC0** " رحلة الأغواطي من الانكليزية إلى الفرنسية ونشرتها مجلة" أخبار الرحلات الجديدة " في نوفمبر 1832، ثم قرأها دافيزاك نفسه أمام أعضاء الجمعية الجغرافية الفرنسية في باريس في جوان 1833، ثم نشرها مدعمة بتعاليق هامة وتذييلات بباريس سنة 1836 في كتابه " دراسات في الجغرافية النقدية ". [1] وتتعرض هذه الرحلة إلى وصف دقيق للواحات وطرق المواصلات في الجنوب، واحتوت على معلومات معتبرة تهم منطقة وادي ريغ وسوف وغدامس وغيرها من المناطق المجاورة، وأرفق دافيزاك هذه الدراسة بخريطة جغرافية هامة توضح المعالم الرئيسية ممثلة في طرق المواصلات القديمة وكيفية استغلالها من طرف فرنسا في المستقبل. [2]

---

1 - أبو القاسم سعد الله: **أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر**، دار الغرب الإسلامي، ط2، بيروت، 1990، ج 2، ص247.

2 - احميدة عميراوي" مقاومة الشريف محمد بن عبد الله في الجنوب من خلال وثائق نادرة " -في-**مدونة أشغال ملتقى مقاومة الشريف محمد بن عبد الله بورقلة**- جمعية الانتفاضة الشعبية التاريخية بورقلة. فبراير 1998. ص 41.

وتكونت لجنة علمية فرنسية في عام 1839 ضمت عددا من العلماء والضباط العسكريين للبحث في مختلف جوانب الحياة بالجزائر، ومنها العلاقات مع إفريقيا، وهكذا درس العقيد كاريت "**CARETTE**" الطرق التجارية التي سلكها العرب في الصحراء، [1] وقد أخرج دراسته في مؤلف بعنوان " دراسة حول جغرافية وتجارة افريقية الجنوبية ".[2]

وبعد احتلال بسكرة في مارس 1844 شرعت السلطات الاستعمارية في استغلال تلك المعلومات، ودعمتها ببعثات ذات طابع تجاري في ظاهره، وذلك عندما انطلقت قافلتان من بسكرة يوم 13 جويلية 1844 بهدف التعرف على أسواق المدن الداخلية فاتجهت واحدة إلى تقرت والثانية إلى عين صالح. [3]

ويتضح أن فرنسا بعد احتلالها لبسكرة توقفت عن التغلغل وتمهلت ريثما تتعرف أكثر عن تقرت وسوف وتحاول رصد قوة هذه المناطق وتحديد إمكانياتها ومدى صمودها أمام القوات الفرنسية الغازية، واعتبرت عملية الاستطلاع وجمع المعلومات أحد الأسلحة الفعالة التي رسمت على منوالها خططها وتحركات جيوشها.

---

1 - أبو القاسم سعد الله" المترجمون الجزائريون وافريقية " في **مجلة الثقافة.** العدد 113. 1996. ص 35.

2 - احميدة عميراوي – المرجع السابق – ص 41.

3 - نفسه. ص 42.

ومن الرحلات الاستكشافية الأولية في وادي ريغ تلك الزيارة التي قام بها كل من دي شوفارييه "**DECHEVARRIER**" وماريوس قارن"**MARIOS GAREIN**" عام 1847، [1] وبعدها بعام (1848) كلف براكس"**PRAX**" [2] من قبل وزارة الحربية والتجارة [3] للقيام برحلة سرية نحو الجنوب الجزائري فزار وادي ريغ، [4] وأصدر دراسة عام 1848 بعنوان " تقرت وسوف " نشرها في مجلة " الشرق والجزائر " في الجزء الرابع، وفي نفس السنة قام برحلة أخرى انطلاقا من تونس نحو سُوفْ، مرورا بتقرت وبسكرة، ونشر خلاصة رحلته في دراسة نشرها بباريس عام 1849 بعنوان "تجارة الجزائر مع مكة والسودان " وقد ضمّن كتابه المنشور معلومات هامة اعتمدتها الجيوش الفرنسية في تحركاتها نحو وادي ريغ وسوف وغيرها من المناطق الصحراوية. [5] أما الباحث الفرنسي بيربروجر " **Berbrugger**" المختص في الدراسات التاريخية، ويشغل مناصب هامة في هذا المجال فهو محافظ مكتبة ومتحف الجزائر ورئيس المؤسسة التاريخية الجزائرية، فقد باشر عمله بترجمة مخطوط العياشي ونشره بباريس سنة 1846، وقد استفاد منه

1- بن نعمية عبد المجيد " مواقف شيوخ بني جلاب في تقرت من الاحتلال الفرنسي 1830 – 1854 " – في- **مدونة الملتقى التاريخي الثالث** - لفترة حكم بني جلاب بمنطقة وادي ريغ. (1998). الجمعية التاريخية الوفاء للشهيد بتقرت. الآمال للطباعة الوادي، 1999. ص ص 122 – 123.

2 - هو ضابط قديم في البحرية الفرنسية.

3 - André Voisin: **le souf Monographie d'une région Saharienne** –Paris. 1985. (Manuscrit). p 52.

4 - بن نعمية عبد المجيد – المرجع السابق – ص 123.

- André Voisin – op. Cit. p 52. 5

في رحلته التي قام بها سنة 1850 لاكتشاف الواحات التونسية الجزائرية، فقد عبر المنطقة من سوق أهراس إلى تونس وتجول في بلاد الجريد ثم توجه منها إلى وادي سُوفْ، [1] وقد ذكر فيرو، أن أدريان بيربروجر هو أحد الجواسيس الفرنسيين الذين نزلوا سُوفْ قبل احتلالها وكان قادما من نفطة على ظهر حصان، وقد كتب أنه حصل من احد شيوخ طرود بكوينين على نسخة من تاريخ العدواني بتاريخ 28 نوفمبر 1850، وعلق على ذلك بأنه مخطوط يتحدث عن تاريخ المنطقة. [2] ويتضح من تحركات بيربروجر أن الرحالة الفرنسيين كانوا يبذلون جهودا مضنية من أجل الحصول على الوثائق التاريخية النادرة في زمنهم مثل العدواني الذي اقتبسوا منه معلومات هامة عن أصول السكان وطبائعهم وطريقة عيشهم والمستوى الثقافي والاجتماعي فضلا عن الجانب العسكري. [3]

وقد واصل هذا الرحالة طريقه نحو وادي ريغ وورقلة وميزاب، واستفاد من حصيلة تلك الرحلة الاستطلاعية الجيش الفرنسي في وضع الخطط لاحتلال المناطق المذكورة، والتي ما زالت يومئذ خارج نطاق الاستعمار الفرنسي.

- Loc- Cit. 1

- L. Feraud – **le Sahara de Constantine et de Tunis** –1868 -p 6. 2

3 - مخطوط محمد العدواني – (نسخة الشيخ احمد خراز).

وتواصلت الرحلات ذات الطابع العسكري الاستطلاعي قبيل الانقاض على وادي سُوفْ، إذ قدم إليها الملازم (**Rose**)روز[1]من الفيض[2]واتجه نحو قمار رفقة مجموعة من " القـوم " في سنة 1852، [3]وكانت هذه المعلومات وغيرها في متناول يد الجيش الفرنسي حينما توغل في منطقتي وادي ريغ وسُوفْ ما بين سنتي 1854 – 1855 بقيادة العقيد ديفو " **Desvaux** ". [4]

ب ـ رحلات في أعماق العرق الشرقي:

كانت الصحراء الكبرى الإفريقية عالما مجهولا بالنسبة للأوروبيين لقرون طويلة، [5] واستمر ذلك إلى أواخر القرن 18، وكانت المعلومات المتوفرة لدى الباحثين في تاريخ الصحراء، قليلة، ومستندة على معلومات الجغرافيين اليونان والرومان والرحالة والتجار والجغرافيين العرب، [6]ولما احتلت فرنسا الجزائر، نشطت الحركة الاستكشافية لمجاهل الصحراء، ويعتبر دوفيـري من الأوائل، والذي وصل إلى أقصى الجنوب، واستطاع ـ بواسطة أحد التوارق ـ أن

---

1 - **الملازم روز:** ضابط في الجيش الفرنسي ونائب رئيس المكتب العربي بالزيبان.

2 - **الفيـض:** موضع بالزاب جنوب زريبة الوادي وشمال شط ملغيغ أي (شمال سُوفْ).

3 - André Voisin – op. Cit. p 52.

4 - أحميدة عميراوي – المرجع السابق- ص ص 43 - 45.

5 - يحي بوعزيز: **ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين**، دار البعث. ط 1. قسنطينة. 1980، ص 257.

6 - إسماعيل العربي: **الصحراء الكبرى وشواطئها**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983، ص63.

يدرس منطقة التاسيلي في الفترة ما بين 1856 ـ 1861،[1] ونشر كتابا ضخما عن طوارق الشمال، سنة 1864. [2] كما قام الرحالة "بونمان" برحلته إلى غدامس عبر وادي سُوفْ عام 1857.[3]

ولكن الرحلات التي أخذت الطابع العسكري أو كانت على شكل بعثات، أو قام بها المبشرون، تعرض أفرادها للقتل من طرف التوارق، كما حدث لبعثة فلاترز في فيفري 1881، [4] أو بعثة المبشرين الثلاثة الذين أرسلهم الكاردينال لافيجري سنة 1876، وهم الآباء يوليي، وموريه، وبوشاند، ولكنهم قتلوا في القليعة من طرف التوارق، وأثار هذا الحادث ثائرة الآباء البيض، فكل واحد منهم يطالب بإرساله في مهمة عبر الصحراء ليخلف إخوانه" الذين سقطوا في ميدان الشرف" كما عبروا، [5]ولكن القتل استمر ضد الفرنسيين بمختلف ألوانهم. وقد أثارت تلك النكبات، انتباه الفرنسيين،

---

1 - ريمون فيرون: **الصحراء الكبرى**، ترجمة جمال الدين الدينا صوري، مراجعة شكري نصري، مؤسسة سجل العرب، القاهرة، 1963، ص111.

2 - Henri Duveyrier: **les Touareg de Nord Exploration du Sahara**, paris,1864.

3 - يحي بوعزيز: ثورات الجزائر، ص 263.

4 - **فلاترز(Flatters)**: ضابط فرنسي أسندت له السلطات الفرنسية مهمة القيام بعمليات اكتشاف لمد طريق صحراوي من الجزائر إلى النيجر وتشاد، فقام برحلتين إلى بلاد التوارق(1880 -1881)، ولكنه تعرض للقتل مع رفاقه من طرف التوارق. أنظر: يحي بوعزيز، ثورات الجزائر، صص264-265. إبراهيم مياسي: **توسع الاستعمار الفرنسي في الجنوب الغربي الجزائري 1881-1912**، منشورات متحف المجاهد، الجزائر، 1996، ص ص 62-64.

5 -إسماعيل العربي، المرجع السابق، ص ص110-112.

إلى أهمية وضرورة المسارعة إلى إخضاع سكان الصحراء، لأنه بدون ذلك لا يمكن اكتشافها، [1] ويتعذر الاستفادة منها.

3 ـ الاحتلال الفرنسي لصحراء قسنطينة:

إثر احتلال فرنسا لقسنطينةسنة 1837، بدأت تفكر في مواصلة الزحف نحو الجنوب الشرقي، والتوغل في أطراف الصحراء من اجل استكمال عملية التوسع وبسط النفوذ في بقية أجزاء الجزائر، لاستغلال ثرواتها، وتوطين أعداد من المستوطنين الأوربيين. وصارت تثير القلق، ولاسيما إقليم "وادي سُوفْ " الذي تحول إلى منطقة عبور إلى تونس وطرابلس، وهو فضاء مفتوح يسهل التنقلات بمختلف أشكالها مما يجعل الحدود الجنوبية والشرقية غير آمنة في نظر الاستعمار الفرنسي. لأن الصراع الفرنسي كان مع القوى الأوربية، والتنافس الشديد بينهم، للهيمنة على تونس وليبيا، وذلك دفع فرنسا إلى التوغل نحو الجنوب الجزائري حتى تكون قواتها على مقربة من حدود تلك البلدان، حتى تستغلها في وقت الحاجة لصد القوات التونسية المنهزمة نحو الجنوب، عندما تتمكن من غزوها عبر البحر المتوسط أو من الجهة الشمالية الشرقية للجزائر.

وحينئذ شرعت فرنسا في تطبيق مخططاتها الاستعمارية في الجنوب الصحراوي، وفق سياسة المراحل التي دامت أكثر من نصف قرن.

---

1 - ريمون فيرون، المرجع السابق، ص111.

وكانت المرحلة الأولى، احتلال بسكرة يوم 4 مارس 1844، عندما دخلها الدوق دومال، واستمرت القوات الفرنسية في ملاحقة المقاومة التي قادها خليفة الأمير عبد القادر، والحاج احمد باي، [1] والشيخ بوزيان في الزعاطشة 1849، وانتهى الصراع بالمقاومة، وتثبيت قدم الفرنسيين في المنطقة والتطلع لما بعدها من الصحراء.

ولكن المقاومة ظهرت في وادي ريغ وورقلة، ووادي سُوفْ، والأغواط، وغيرها من المناطق الصحراوية الواسعة، وتجمعت القوات الشعبية، التي يقودها الثائر محمد بن عبد الله (شريف ورقلة). والثائر بن ناصر بن شهرة منذ 1851. ولم تستطع القوات الفرنسية أن تواصل توغلها نحو الحدود الجنوبية الشرقية إلا بعد تطويق المنطقة المجاورة والهيمنة عليها.

أما الاغواط فقد بدأت مهاجمة الشريف محمد بن عبد الله لها في أوائل عام 1852 وذلك دفع الفرنسيين إلى إرسال جيش بقيادة بيليسيه بداية من شهر أكتوبر، إلا أن الشريف استطاع الدخول إلى الاغواط في شهر نوفمبر بمساعدة بن ناصر بن شهرة، واستمر القتال على أشده وانتهى بمعركة عنيفة بين الطرفين في4 ديسمبر 1852 أجبرت الشريف وأعوانه على الانسحاب، واستولى الفرنسيون على الاغواط،

1 - إبراهيم مياسي: **من قضايا تاريخ الجزائر المعاصر**، ديوان المطبوعات الجامعية. الجزائر 1999، ص63.

[1] ووضعوا بها حامية عسكرية دائمة واتخذوها قاعدة حربية لتوسعاتهم نحو الجنوب. [2]

كما أبرموا اتفاقا مع أهل ميزاب في 19 أفريل 1853 يتعهدون فيه بدفع ضريبة سنوية قدرها 45 فرنك والاعتراف بحمايتهم وعدم التدخل في شؤونهم الداخلية، بشرط أن يتعهدوا بعدم فتح أبوابهم لأعداء الفرنسيين، والغرض من ذلك تحييد أهل ميزاب وإبعادهم عن مساعدة الثوار أمثال الشريف محمد بن عبد الله وابن ناصر بن شهرة. [3]

أما ورقلة التي كانت موقعا هاما للشريف محمد بن عبد الله وصديقه بن شهرة، فقد جند لها الفرنسيون قوات كبيرة قدمت من البيض في 3 نوفمبر 1853 والتحمت بقوات المقاومين في نقوسة والرويسات وانتهت بهزيمة الشريف ورفاقه، وسيطر الفرنسيون على
ورقلة في أواخر عام 1853. [4]

ولم يبق للفرنسيين يومئذ إلا احتلال إمارة بني بني جلاب " تقرت " التي وضع الفرنسيون أمامها كل ثقلهم العسكري. وتوجهت إليها

---

1 - أبو القاسم سعد الله: **الحركة الوطنية الجزائرية**، دار الغرب الإسلامي. ط 1. بيروت. 1992. ج 1، ص ص 358 – 359.

2 - ج ايفر -الأغـــــواط – في - **دائرة المعارف الإسلامية** – دار الشروق. 1933 القاهرة. المجلد الثالث. ص 576.

3- أبو القاسم سعد الله – الحركة الوطنية –ص ص 359 – 360.

4- يحي بوعزيز – ثورات الجزائر-ص 127.

قوات ضخمة آتية من بوسعادة بقيادة العقيد ديفو والقائد جيري قادما بقواته من الأغواط، [1] كما تعززت القوات الفرنسية بكتائب وطوابير عسكرية أحدها بقيادة بان " **Pein** "والثاني بقيادة باراي " **Barail** "والثالث بقيادة مرمي " **Marmier** " [2] والتحمت هذه القوات مع جيش سلمان الجلابي والشريف محمد بن عبد الله، وجيش النجدة الذي قدم من "وادي سُوفْ " تلبية لنداء سلمان لهم، وكانت المعركة في نواحي المقارين في المكان المعروف [3] ببورخيص، [4]في يوم 29 نوفمبر 1854. وانتهت المعركة بانتصار الفرنسيين وخضعت مدينة تقرت لحصار فرنسي شديد، وسقطت في يد الفرنسيين يوم 5 ديسمبر 1854، لما دخلها العقيد ديفو قائد ناحية باتنة، [5]معلنا عن سقوط "مشيخة بني جلاب" التي حكمت تقرت أكثر من أربعة قرون، وبسقوطها سَهُل على الفرنسيين مواصلة زحفهم نحو" وادي سُوفْ ".

لسلوك طريق رملي صعب، كثير المنحدرات متعدد المسالك،

1- نفسه. ص 128.

2- أبو القاسم سعد الله – الحركة الوطنية – ص 361.

3 - عبد الحميد ابراهيم قادري: **التعريف بوادي ريغ،** منشورات جمعية الوفاء للشهيد بتقرت. الآمال للطباعة بالوادي. 1999. ص 19.

4-**بورخيص:** تقع شمال تقرت وتبعد عنها بحوالي 15 كلم.

5-André Voisin – op. cit. p 47

6-Ibid – p 47.

وبعد أيام وصراع مع السكان، استطاع السيطرة على مركز سُوفْ، مدينة الوادي، في حدود 14 ديسمبر 1854. وحكمت فرنسا وادي ريغ وسُوفْ من طرف القياد والخلفاء، ولم تستقر فيها القوات الفرنسية، مما جعلها منطقة صراع مع المقاومة الشعبية السابقة، وظهر في الأخير محمد التومي بوشوشة سنة1869، ولما عجزت القوات المحلية على التصدي لهم، أرسلت فرنسا جيشا بقيادة الجنرال – لاكروافوبوا – " LACROIS VAUBOIS "وبدأت عملية الاجتياح الاستعمارية من ورقلة التي انتزعها من أنصار بوشوشة يوم 2 جانفي 1872، ثم زحف على تقرت وسيطر عليها، ثم لاحق قوات الثوار والتحم جيشه معها يوم 9 جانفي 1872 واستولى على معظم زمالة بوشوشة بما فيها من حيوانات وأمتعة. [1]ثم اتجه نحو وادي سُوفْ وأخضعها للسلطة الفرنسية. [2] واستمر حكم القياد إلى قبيل احتلال تونس، الذي جعل الإدارة الفرنسية تستقر بالمنطقة منذ 1881. وفي تلك السنوات قامت رحلات الفرنسيين بشكل محدود، ولم تتسع حركة السياحة إلا في النصف الأول من القرن العشرين.

أما العرق الشرقي، وهو امتداد في الجنوب الموازي لإقليم قسنطينة، والذي شهد اعتداءات كبيرة على الرحالة والمغامرين، والبعثات

1- يحي بوعزيز – ثورات الجزائر – ص 180.

2 -إبراهيم العوامر: **الصروف في تاريخ الصحراء وسوف**، تعليق الجيلاني العوامر. الدار التونسية للنشر. تونس. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر. 1977. ص 257.

الفرنسية المنظمة من السلطات، وأهمها حملة فورو ولامي، 1898-1900، ووصلت إلى بلاد التوارق وخاضت معارك معهم، ووصلت إلى تشاد، والتقت مع حملتي جنتل وفولي، وكان من نتائجها الهامة، إبرام اتفاقية سنة 1899 مع الانكليز لتقسيم القارة فيما بينهم وتجنب الصراع. [1]

وحتى سنة 1902 بقي العرق الشرقي في أقصى الجنوب، غير آمن للسياح والرحالة، وهذا دفع الفرنسيين إلى العمل أكثر لإخضاع التوارق، واسند هذا للضابط لابيرين دي هوبول الذي عين على القيادة العسكرية في المنطقة، وعرف أن المدفعية وحدها لا تستطيع اجتياز الصحراء، فاقنع الراهب " شارل دي فوكو" بالانتقال من بني عباس إلى بلاد الهقار لمساعدته، وانشأ فرقا من "الهجانة" من قبيلة " الشعانبة" خصوم التوارق، وخاض معارك عنيفة، وانتهى ذلك بإخضاع المنطقة للسلطات الفرنسية ابتداء من أوت 1917.[2] وحينئذ شرعت فرنسا في استغلال الصحراء، وبدأت الآليات الحديثة في التوغل عبر كثبانها الرملية العالية من طرف المغامرين.

4ـ تطور وسائل النقل في صحراء قسنطينة:(1921-1948):

كانت الوسيلة الأساسية للنقل في عملية التجارة، أو التنقل في الصحراء لمختلف الأغراض، هي القافلة التي تضم عددا من التجار

1- يحي بوعزيز – ثورات الجزائر-ص 267.

2- يحي بوعزيز – ثورات الجزائر-ص 268. ريمون فيرون:، ص116.

الذين لا تربط بينهم سوى مصلحة الطريق، وكانت القافلة تسير بالمراحل، والمرحلة هي المسافة التي تقطعها القافلة في اليوم وتتراوح ما بين 35 إلى 40 كيلومترا، [1] وسبب هذا الاختلاف هو الظروف المناخية والطوبوغرافية للطريق التي تسلكها القافلة، لأنها تسير من 14 إلى 15 ساعة في اليوم بدون توقف وبسرعة متوسطها 40 كيلومترا في اليوم، [2] فتستغرق ثلاث مراحل من الوادي إلى تقرت، وأربع إلى نفطة، وخمس مراحل إلى بسكرة، وسبعة عشر إلى غدامس[3].

وكان وقت خروج القوافل غير محدود، ويخضع لظروف التجار واستعداداتهم، وتتم رحلاتهم في كل فصول السنة بدون استثناء،[4] ولكن القوافل العابرة للمنطقة، والآتية من أماكن بعيدة مثل قوافل قسنطينة وغيرها، فإنها تفضل أن تبدأ رحلاتها في مطلع الشتاء. ولكنها تتعرض إلى أخطار عديدة كهجمات قطاع الطرق، والظروف المناخية القاسية، والعطش الشديد الذي يتسبب في القضاء على قوافل بأكملها، [5]فضلا عن رمال العرق الشرقي الذي تضيع فيه القوافل، التي تجهل طريقها؛ ولذلك تطلب تأجير دليل للقافلة، له خبرة بمجاهل الصحراء ومسالكها، وإنجاز كل ما يؤمن طرق القوافل،

---

1 - إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص 37.

2 - إسماعيل العربي، المرجع السابق، ص 59.

3 - إبراهيم العوامر، المرجع السابق. ص 37.

4 - p 12. Capitaine Roger leselle: les noirs du Souf, **Supplément au bulletin de liaison Saharien** ,S D,

5 -Voir: Maréchal Jubeau**:** "La Mort de Soif du Mehariste Hamou ben. Mabrouk. (**BLS**) N: 16 Mars 1954. pp 24-26.

وحينئذ شرعت الهندسة العسكرية الفرنسية في إنجاز عدة علامات ونقاط إشارية، بداية من عام 1884، [1] وتمثل في بناء القمايز، [2] وتشييد الأبراج[3] في طريق القوافل الفرنسية المتنقلة، وتدعى"**خان القوافل**" وحدد مكانها في محطات الراحة. إضافة إلى حفر الآبار الجديدة في أعماق الصحراء [4] وتم إنجاز تلك العلامات لتأمين القوافل والطوابير العسكرية وحمايتها من الأخطار الطبيعية، [5] وتسهيل عملية سير الجيوش الفرنسية حتى تستطيع التحكم في الأهالي، وبسط النفوذ الاستعماري في البلاد القريبة، وخاصة تونس وليبيا.

وبقيت القوافل هي الوسيلة الوحيدة لنقل المسافرين والبضائع التجارية، بين وادي سوف والمدن الصحراوية، إلى منتصف العقد الثاني من القرن العشرين، حينما دخلت عليها الوسائل الحديثة، فعبرت أول سيارة من نوع " **Citroen** "، كثبان العرق الشرقي، قادمة من تقرت، ووصلت إلى الوادي يوم 08 ديسمبر 1922، دون

1 -D. Escard – Etude médicale et climatologique sur le pays de l'oued-Souf – publié dans **les archives de**, **médecine militaire** en 1886. T 7. p 46.

2 - **القمايز**: وهي أهرامات بنيت بالجبس والحجارة، وحدد مكانها بين بسكرة والوادي، وفي الطريق بين تقرت الوادي، ووضعت بطريقة تجعلها واضحة الواحدة بعد الأخرى.

3 - **الأبراج**: وهي بناءات صغيرة، تحتوي على مسكن الحارس المكلف بحراسة الآبار المتقاربة، ويفتح البرج للمسافرين من الضباط العسكريين والموظفين.

4 -D. Escard ,Op-Cit,p 45-49. C. Roger leselle ,Op-Cit, pp9-26.

5 -Pierre Fontaine: **Touggourt Capitale des Oisis ,** Edition Devry, Paris, 1952, p122.

أن يكون الطريق ثابتا، [1] بل هي اجتهادات من السائق، وتم العبور قريبا من طريق القوافل.

وعندما اتسعت حركة النقل بالسيارات المختلفة والشاحنات، بدأت معالم الطرق شبه المعبدة تتضح، وتهتم المصالح المختصة بصيانتها، وحمايتها من الرمال، وشيئا فشيئا رسمت . وكل سائح يزور المنطقة قبل منتصف العشرينات، كان يمتطي ـ دون اختيار منه ـ حصانا أو جملا ضمن قافلة تجارية، أو مخصصة للسفر مع القوات العسكرية، [2] ثم بدأ ظهور العربات التي تجرها الأحصنة. [3] وإثرها شرع الفرنسيون ـ منذ الحرب العالمية الأولى ـ في اقتحام الصحراء بسياراتهم ذات العجلات، وعرباتهم المدعمة بالسلاسل والتي تقاوم الرمال الكثيفة، ونشطوا بعد الحرب، ووصلوا إلى أعماق الصحراء الأفريقية، [4]

---

1 - سيارة "**Citroen** " يقودها رئيس ملحقة الوادي الضابط " **Mars** "، وتحمل 06 أشخاص، وعبرت الطريق من المقارين، بير العسلي، الفولية، الرقيبة، وقمار، قاطعة نحو 135 كلم، ورجعت في اليوم الموالي عابرة من ورماس إلى اميوت القايد والفرجان، وقطعت المسافة في 06 ساعات. André Voisin ,Op-Cit, p257. -ethnographie de 'Annexe d'El-Oued , 1931. Le Souf: D. D. M. E2

3 - قطعت أول عربة (**كاليجCalèche**) يجرها حصانان، الطريق بين تقرت والوادي، سنة 1911 وكانت تحمل شيخ التجانية سي البشير التجاني عند زيارته لزاوية قمار، والعربة الثانية تجرها البغال حملت أول حاكم عام للجزائر يزور سوف (**Lutaud**) عام 1917 انطلاقا من محطة جامعة، وقد لفت عجلات العربة بشرائح عريضة من الفولاذ لمنعها من الغطس في الرمال الرخوة، وكان صاحب الفكرة الضابط (**Deluot**).

C. Couvet –Notes sur le souf et les souafa– **Bulletin de la société de géographie d'Alger**. 1934, p78.

4 - M: Audouin Dubreuil: **: La Première Traversée du Sahara en Automobile,**

Conférence faità Alger 6 Juin 1923in (**BSGA**) 3T, -N° 95,1923, pp329-340.

SL. Poivre: " l' Automobile"**,Revue de l'Armée d' Afrique**,Déc 1924, pp 432-435.

وحينئذ بدأت الوسائل الحديثة تربط طرق المواصلات بين مدينة الوادي والمناطق المجاورة في منتصف العشرينات. [1]وكل ذلك ساهم في تنشيط الرحلات في العرق الشرقي من صحراء قسنطينة، واخترنا بعض الرحلات التي نستعرض تحليلا سريعا لأهم عناصرها.

1- نشأت شركة (**Latèrrere et Costes**) في تقرت سنة 1924، وكانت تربط بين تقرت والوادي بمعدل رحلتين في الشهر في الشتاء ورحلة واحدة في الصيف، وتحمل السيارة 15 مسافرا، وتقطع مسافة 126 كيلومترا.
A. O. M. 24H35, Lettre de Commandant Militaire de Touggourt (Fournier) à M. le Gouverneur Général de l'Algérie, le21 Mars 1924.

القسم الثـاني

الدراسة الوصفية التحليلية للرحلات

1 ـ الوصف العام للرحلات.

2 ـ المحتوى المعرفي للرحلات.

3 ـ دراسة تحليلية للرحلات

4 ـ تقييم ونقد الرحلات.

الدراسة الوصفية التحليلية للرحلات

دونت عدة رحلات للأجانب في نواحي الصحراء الممتدة الأطراف، على مدار قرن من الزمن الماضي، ولكن الرحلات التي نحن بصدد عرضها، ودراستها استغرقت عقدا ونصف من القرن العشرين، وكتبت في فترة متميزة، وبتقادم الزمن، صار لها قيمتها العلمية والتاريخية، فضلا عن المعالم السياسية التي تبرزها، والقيمة الحضارية التي ضلت شاهدة على الانجازات البشرية في حركة التاريخ المتتالية.

1 ـ الوصف العام للرحلات:

أربع رحلات تمت في منطقة الجنوب الشرقي الجزائري أو بالأحرى (صحراء قسنطينة)، في فترة زمنية يمكن تحديدها ما بين (1933-1948)، من طرف السياح الفرنسيين، وأعوان الإدارة الفرنسية وخدامها، والضباط العسكريين، ويمكن الوقوف عند أهم المراحل لكل رحلة:

ـ **الرحلة الأولى:** بعنوان" **أرخبيل سُوفْ"** كتبها السائح الفرنسي "ريني فاليت"، والذي لم يفصح عن صفته، واكتفى بنشر هذه الرحلة في مقال بمجلة(**Alegria**)، الشهرية[1]، وهي مقتضبة لا تتجاوز أربع صفحات(من ص 10 إلى 13)، ودعمها بسبع صور فوتوغرافية، الأولى عبارة عن منظر عام لمدينة الوادي في

1 - مجلة شهرية مصورة تحت الرئاسة الشرفية للحاكم العام في الجزائر، وتنشر من طرف الوكالة الجزائرية للشؤون الاقتصادية والسياحية.

أفق بعيد يبرزها بعمرانها وقبابها، وتحيط بها الكثبان الرملية من كل أطرافها، أما الصورة الثانية فهي لأول الغيطان في وادي سوف، والثالثة لرجل من بدو سُوفْ يمتطي جملا وصفه بأنه ودود رغم حرارة الجو وفضاضة الراكب وسوء معاملته. أما الصورة الموالية فاشتملت على عدد من الغيطان المتجاورة التي تعانق عنان السماء، بينما احتوت الصورة الأخرى على الخطارة حول البئر، والتي بعدها، لها منظر جلي لمدينة الوادي والتي عبر في تعليقه بأنها مدينة الألف قبة، وفعلا، تحتوي عددا من المباني التي تعلوها القباب في مشهد رائع الجمال. وختمت بصورة التقطت لعدد من"زهرات الرمال" التي تحدث عنها الكاتب في البرج.

ولم يذكر تاريخ انجاز تلك الرحلة بالتحديد، فاغفل الفصل والشهر، بينما وردت السنة في المصدر فقط، وعموما فالرحلة كانت وصفا لمسير القافلة، بداية من تقرت، وما شاهده السائح الفرنسي في طريقه رفقة القافلة، وما عاشه في مدينة الوادي، ثم الرجوع إلى تقرت، ثم بسكرة.

ـ **الرحلة الثانية:** بعنوان" **من الجنوب التونسي إلى سُوفْ"** وكتبها السائح الفرنسي "ريني تورنيول"، وصفته فنان ورسام اللوحات الزيتية، وقد نشر ملخصا عن رحلته في نفس المجلة السابقة سنة 1933، في خمس صفحات (من ص 3 إلى 7)، ودعمها بست صور فوتوغرافية حية،

الأولى لعدد من الفتيات الصغيرات وهن يلعبن (لكعاب). [1] والصورة الثانية لتجمع العائلة في البيت وصنع المرأة للكسكسي، وبجانبها الرجال. والثالثة صورت وضعية القافلة في مويت القائد وهي متأهبة للرحيل، ووجود البئر والقميرة. أما الأخرى فتظهر الغوط بين كثبان سُوفْ المترامية، بينما كانت الصورة الموالية لامرأة تغزل الصوف، وهي المهنة التي تتعاطاها المرأة في وادي سُوفْ على الإطلاق، ولا توجد واحدة منهن في بطالة ولو كانت ميسورة الحال. وختم الألبوم بصورة ضريح أحد المرابطين بمدينة الوادي.

والرحلة باختصار تشبه سابقتها، ولكنها تَمَّت في اتجاه مقابل في الناحية الشرقية للمنطقة، عندما قدمت القافلة من جهة الجنوب التونسي، وبرفقة بعض رجال المخزن الفرنسي، لتوفير الرعاية والحراسة، وتأمين القافلة من قطاع الطرق أو "الجياشة"، مع توصية برسائل من نفطة لشيخ القادرية، والقياد في الطريق، وكانت ترافق السائح فتاة أمريكية من كاليفورنيا، جمعته بها رفقة الطريق، ومرت القافلة بعدة أبراج مثل برج ليهودي، وبرج العادل، وقرية حاسي خليفة وبلدة الدبيلة، وقرية البهيمة، وأخيرا تم الوصول إلى مدينة الوادي مركز وادي سُوفْ

(1) العظيمات التي تكون في رجل الحيوان، والواحدة منها، هي الكعبة، ولها أربع أوجه، وتلعب برميها مع حجرة صغيرة ترمى إلى أعلى، ويتلقف العظيمات بسرعة مع الحجارة الساقطة، ومعها تحريك لها في مختلف جهاتها، ويكون فوزه محققا بانتهاء العملية بنجاح.

الإداري، وقطبه الاقتصادي، ولم يذكر في رحلته طريق الرجوع، بل اكتفى بالوصف فقط.

ـ **الرحلة الثالثة:** بعنوان" **أصدقاء فرنسا" الميعاد الخيري"** وهي عبارة عن تقرير صحفي، عن رحلة إلى الهلال الثلاثي، أو أقاليم الجنوب الشرقي الرئيسية بمقاطعة قسنطينة، وتضم بلاد الزاب، ووادي ريغ، ووادي سُوفْ، ونشر التقرير في جريدة "صوت الأهالي" لصاحبها رابح زناتي، [1]في العدد 475، والصادرة في قسنطينة يوم 13 أفريل 1939، قبيل اندلاع الحرب العالمية الثانية بشهور قليلة، ولعلها بقلم محررها، وهي صحيفة الوحدة الفرنكو- مسلمين، والدفاع عن حقوق الأهالي، وهي تدور في فلك الإدماج، بل صاحبها من غلاة الإدماجيين المتغربين، ويعتبر فرنسا أم الحضارة، ويرى أن الشعب الجزائري لا يجد سعادته إلا في صدرها الحنون، كان هذا هو اعتقاده. والمقال بدون صور، وفيه استرسال واختصار لأهم الأحداث،

---

1 -**رابح زناتي:** ولد في بلدة توريرت الحجاج عام 1877، نواحي المقاطعة، وينتمي إلى عائلة فلاحية، ودرس مبكرا في معهد تكوين المعلمين ببوزريعة(1892-1895) وعمل مدرسا في مقاطعة قسنطينة، كما امتهن الصحافة، وأسس عدة صحف تخدم الفرنسيين، وتصب في وادي الإدماج، منها سنة 1922، صحيفة الفقراء " **La voix de humbles**"وهي نشرية جمعية المدرسين الأهالي، وصار رئيس تحريرها منذ 1925، ثم تركها وأسس " **La voix indigene**" سنة 1929. ثم تغير اسمها في فيفري 1947، وصارت **"La voix libre** "واستمرت إلى وفاته التي كانت في قسنطينة يوم 15 أكتوبر 1952.

Voir: louis pierre montoni-guy pervillé: **Rabah Zenati, ecrivain inconu**. net le30/12/2013.

ولكنه يستعرض الرحلة جيدا، والتي تمت في فصل الربيع، في مارس 1939، حين انطلق أعضاء الجمعية الخيرية بالسيارات، من مدينة بسكرة إلى وادي ريغ ونواحيها، وحطت أولا بمدينة تقرت، وبدأت بتناول القهوة عند آغا تقرت مصرلي محمد الصغير، وبعدها توجهوا نحو تماسين لزيارة الزاوية التجانية، إذ قدم لهم طعام خفيف عند الشيخ أحمد التجاني، وحضروا المديح الصوفي، ثم توجهوا نحو مدينة جامعة، التي تناولوا بها وجبة الغداء عند الباشاغا السنوسي، وتوجهت القافلة صوب وادي سُوفْ، ولما وصولوا لمدينة الوادي، تناولوا العشاء في ضيافة الباشاغا مصرلي عبد العزيز، ودارت كلمات مجاملة من القياد، تذكروا فيها الزمالة التي جمعت بينهم في الثانوية، وأثناء الحرب العالمية الأولى، وقتالهم للدفاع عن فرنسا، وموت شقيق عبد العزيز، والتنويه بخصاله، ووصفَ الباشاغا السنوسي صديقه عبد العزيز بأنه أعظم رئيس للأهالي، وتقدم صاحب الدار مصرلي، بخطاب شكر فيه أعضاء الجمعية ورجب بهم كثيرا، وأثنى على جمعهم ووحدتهم، ونوه بتفانيهم في خدمة دولتهم فرنسا. كما تناولوا طعام الغداء عند شيخ الزاوية القادرية محمد الصالح الشريف، الذي هيأ لهم حفلا تضمن المديح الخاص بالطريقة القادرية والمنوه بخصال الجيلاني، ووالده الشيخ الهاشمي، وغيرهم من أقطاب الطريقة، وقبل رجوعهم إلى بسكرة قدمت لهم وجبة العشاء من طرف رئيس بلدية الوادي في فندق الترانزات، وأثر ذلك عاد الوفد إلى مدينة بسكرة، ولقوا العناية

عند شيخ العرب بن قانة، وضيافة ثانية على شرف رئيس بلدية بسكرة، وختمت بسهرة حافلة في تلك الليلة، واستمرت إلى الصباح في فندق بالاس.

ـ **الرحلة الرابعة:** بعنوان" **الوصل بين مدينة الوادي وغدامس بسيارة الجيب**" بقلم المقدم (ج. فيري) رئيس مخفرة الوادي، ونشر ملخصا عن رحلته في دورية " أبحاث معهد الدراسات الصحراوية" المجلد 5، لسنة 1948، والصادرة عن جامعة الجزائر، في سبع صفحات (من ص 223- إلى229)، ودعمت بخريطة توضح أهم المسالك والدروب، ولم تدعم بأي صورة.

وتم تنظيم الرحلة في شهر مارس وبداية فصل الربيع، المناسب للسير، لأن الجو معتدل ويساعد على التنقل بيسر وراحة، وتجنب برودة الشتاء القاسية، وحرارة الصيف الملتهبة، وانطلقت من مدينة الوادي واتجهت شرقا عبر طريق توزر التونسية، ولكنها عند بلدة حاسي خليفة، اتخذت الطريق الجنوبي نحو بير الجديد، في خط شبه مستقيم نحو غدامس، مرورا بعدة معالم وإشارات من الآبار والأبراج، وكانت السيارات من نوع (جيب) الأمريكية الصنع، تعاني من العطَل المفاجئ بسبب قدمها، فيتدخل الميكانيكي لإصلاحه، وعند اقتضاء الحال، تعبر الأحواض، وتتسلق الكثبان، ولكن السيارة الأولى تعطلت، فتركوها مع السائق، وواصلوا الطريق، وبعد النوم ليلا استأنفوا رحلتهم، وعبروا بير لحرش، وبير طنقور وبير دحمان، ولكن

الدليل أضاع الطريق، وادَّعَى المرض، ولكنه استدرك أمره، وواصلت الرحلة طريقها إلى برج فطيمة الذي كان منتهى الرحالة سنة1938، ولكن نفاد البنزين في السيارة وكذلك الكمية الاحتياطية، اضطرتهم لترك السيارة الثانية، وساروا على الأقدام إلى البرج المذكور، وهو برج مهم به قيادة تحت إشراف ملازم، وضابط الصف، فتطلب الأمر تقديم مفرزتهم، وسلموا البريد، وبلغوا أخبار الملحقة، وواصلوا مسيرهم إلى برج مسعودة على الحدود مع غدامس، وحينئذ حققت الرحلة مقصودها، وأنجز المشروع، وعادت القافلة أدراجها إلى مدينة الوادي.

2 ـ المحتوى المعرفي للرحلات:

تحتوي الرحلات في مجموعها على لوحة فنية طبيعية، لم ترسمها يد الفنان، ولم تلتقطها كاميرا السواح، وإنما دبجت ملامحها أنامل الأقلام، وبعد قراءة متأنية في صفحاتها المقتضبة، تم تصنيف المعلومات والمعارف كما يلي:

ـ الوسط الطبيعي: تحدد الرحلات بصفة دقيقة العناصر الهامة للوسط الطبيعي ضمن الجغرافية المحلية، وتصف البيئة المحيطة بصحراء قسنطينة، ونستطيع التعرف على مختلف عناصرها بجمع المتناثر من الرحلات، ونضعها في هذا النسق الموحد لكل موضوع:

أما المناخ فهو صحراوي يغلب عليه الجفاف، وتشتد الحرارة في منتصف النهار، وحينها يصعب التنقل وتضطر القوافل إلى الاستقرار

في مباني البرج، وهذا ما ذكره"ريني فاليت" في رحلته التي تمت في فصل اشتداد الحرارة، بينما يبرد الجو ليلا، ويضطر السواح إلى البحث عن الأغطية، وتسقط بعض الأمطار القليلة التي تثبت التربة.

أما الأرض فهي تختلف بين وادي ريغ التي هي ارض طينية، وباقي المناطق التي تمتد بها الرمال، وتكثر المنحدرات والأحواض، وتتشكل الكثبان الرملية، والغرود العالية ولاسيما في الصحراء الجنوبية في طريق غدامس الليبية، وبعض الأرض الحصوية، وهذا

ما يمكن ملاحظته من تضاريس.

أما الماء، فهو نادر في الصحراء، فلا توجد أنهار جارية، ولا بحيرات عذبة، إلا الخنادق المتعفنة في تقرت، وفي بقية الصحراء يستعمل الرحالة الآبار المتعاقبة في طريق المسير، فيضطر إلى ملء الأواني والقرب.

وتفتقر الصحراء إلى الغطاء النباتي الكثيف، وهي عبارة عن حشائش جافة وشوكية، لها سيقان وتنتهي بشكل يشبه الإبر، كما هو شكل نبات الدرين(الحلفاء)، ويوجد نبات الديس، والشيح الذي تفوح منه رائحة طيبة، كما ذكرته الرحلة ما بين تقرت والوادي، وتتغذى عليه الجمال والأحصنة، ولا يكفي ذلك فيصطحب الجمَّالة معهم

العلف، وهو عبارة عن الحشف، [1]ونوى التمر الذي يغمس في الماء، حتى يسهل تناوله.

أما عالم الحيوان، فهو لا يختف كثيرا عن سابقه، فبدأ بذكر البعوض في وادي ريغ، بسبب وجود المياه الراكدة، التي هي المناخ الحيوي لنموه، بينما ينعدم في وادي سوف وبقية العرق، ونجد بدله الذباب الرمادي اللاسع، والذي يزعج المسافرين وحيواناتهم، بما يحدثه من أصوات طنانة، ويمكن مصادفة بعض الطيور، والجعل والخنفوس، التي تعرف من خلال آثارها فوق الرمال، والرتيلاء والعقارب عند الإقامة في البرج أو فوق الرمال. ولم تكن الحيوانات الأليفة التي شاهدها الرحالة إلا التي استفادوا منها في طريقهم، والتي تشكل القافلة كالجمال والأحصنة جزءا منها، أما الحمار فقد شوهد في القرية، وكلاب البدو التي تحرس الخيام، والخرفان التي تباع في السوق.

ـ الوضع الاقتصادي:

يتسم الاقتصاد المحلي بالبساطة، وهو يسعى لتوفير الضرورات، وتعرضت الرحلات إلى الزراعة الغالبة، ولاسيما في وادي سُوفْ، وهي النخيل، وتزرع قرب الماء في الأحواض الواسعة(الغيطان) وهي توفر الغذاء الأساسي للسكان، وهي مصدر الثروة والمال، وأساس الغنى، وإلى جانبها الزراعات البقلية تحت النخيل، فيما يسمى

1 -**الحشف:** هو التمر الردى الذي يستعمل علفا للحيوان الأليف.

"الحرث"، وتحتوي على الزراعة المعاشية، التي يتطلبها قِدْر الطعام يوميا، وهي الخضر والبصل والفول والجزر واليقطين، والشعير وهو (الذرى) للحيوانات، ويضاف إليه التبغ.

أما الصناعة، فلم تتعرض إليها النصوص إلا قليلا، وتتمثل في المنسوجات التي تتم من طرف النساء، بغزل الصوف، ونسج الزرابي، والألبسة الخاصة مثل حايك الحرير، والشاش(العمامة) والبرنوس، وبعض الصناعات اليدوية للأواني المستعملة كالقربة لحفظ الماء وحمله، والقفة لرفع الرمل، والعمورة لاستخراج الماء من البئر، وتثبيت آلة تقليدية حول البئر وهي الخطارة، واستغلال جلد الماعز كرقعة لعجن الخبز.

وتتم التجارة في الأسواق، وتباع فيها التمور وهي الأكثر أهمية وخاصة من نوع "دقلة نور" الطيبة المذاق، والأحسن في الصحراء كما عبرت الرحلة الأولى، ولاسيما تمر وادي سُوفْ، وذكرت سوق مدينة تقرت الذي بها التمر الجاف، والخرفان، والقارورات القديمة التي تستهوي البدو، وتشبهها سوق مدينة الوادي، بها قاعة الحبوب، التي يطلق عليها السكان(رحبة القمح) وتخصص لبيع الحبوب التي تجلب من خارج المنطقة وهي القمح والشعير، وتعرض بقية المواد في ارض السوق الرملية المنبسطة، فيضع الجزار لحوم الجمال الحمراء، ولحوم الخرفان، والفلاح يبيع الخضروات المحلية، والأسماك المجففة المستوردة من قابس التونسية، لأن التجارة ذات نشاط مستمر،

فالقوافل دائبة الحركة، في أعماق الصحراء، ولا يوقفها فصل ولا وضع، ويقصدها الصناع لبيع منتوجاتهم، مثل الخياطين، لبيع المنسوجات من الصوف والوبر مثل البرنس والحايك والزرابي وغيرها.

ـ الحياة الاجتماعية:

وهي حياة السياح في رحلتهم ومدى انسجامهم في الحياة الاجتماعية مع الأهالي، واندماجهم في أتون الحياة القاسية، فلا يبالون في تناول طعامهم في محطة القوافل في تقرت، ولكنهم في برج المقيتلة، عندما قدم لهم الحارس طعام الكسكسي، الذي تخالطه حبات من الرمل، تحدث اصواتا مقلقة بين الأسنان، عافته نفس السائح الفرنسي، فالتجأ إلى المصبرات التي يحملها معه، وكذلك الشأن في الطريق ما فعله ترينيول والفتاة الكاليفورنية، بتناول العشاء، والاكتفاء ببعض المعلبات والبيض، وفي الصباح يضيفون القهوة والمربى، وحليب المعزة الذي وجدوه في مدينة الوادي. ولكن خبزة الملة التي أعدت لهم في الطريق، وتمت بعجن دقيق الشعير، بالماء والملح، على شكل دائري، وسمكه نحو أصبعين، ويحفر له في الأرض نحو 40 سم، ويدفن بالرمل الساخن تحت الموقد، وبعد انتظار نصف ساعة، تخرج الخبزة الذهبية الجميلة، التي كانت شهية لديهم. كذلك أجزاء لحم الغزال المشوية، التي تناولوها في أقصى العرق الشرقي ببرج فطيمة، وعبر عنها الضابط فيري بقوله : (فكنا نرى تذوق اللحم بشهية الذئب الجائع).

أما الطعام الذي أعد لهم سواء في الزوايا في تماسين، أو الزاوية القادرية بالوادي، أو عند الأغوات والقياد بتقرت والوادي وبسكرة، وعلى شرف رؤساء البلديات، وفي فندقي الترانزات بالوادي وبالاس ببسكرة، فكان في قاعات منظمة وبها الطاولات من الخشب أو الحديد، وتناولوا الأطعمة المتنوعة، التي نالت الإعجاب لدى وفد الميعاد الخيري بالخصوص، وعبروا عن المستوى الحضاري الراقي لقادة الأهالي.

وتحتفظ الذاكرة، بالاحتفالات البدوية، للعرس في قرية الدبيلة، وتتمثل في العزف الرجالي بآلة الغيطة، والضرب على الدربوكة، ويصاحب الحفل طلقات البارود المدوية، والتي تنبعث من القاربيلة التقليدية، وتم ذلك بعفوية شاهدها الكاتب في تنقله، أما الحفل الذي اعد لهم في بيت الخليفة، فالتأم الجمع في ساباط البيت الرحب، المضاء بمصباحين من الأسيتيلين، وجلس الأهالي من العرب ـ على حد تعبيره ـ نحو مائة يجلسون القرفصاء، وبدأت الفرقة الشعبية في العزف، وشاركهم أحد الرجال من السود في الرقص، ومعه امرأة متميزة، كانت تتصبب عرقا، وتثير الإعجاب، وتستدعي التصفيق من الجمهور الحاضر، ولا يملك السائح الفرنسي والأمريكية الشابة إلا التصفيق تعبيرا عن امتنانهم وفرحهم بالسهرة الليلية التي أقيمت على شرفهم.

وأما النوع الثاني من الاحتفالات، ذات الطابع الديني، والتي استقبل بها أصدقاء فرنسا، في الزاوية التجانية بتماسين، وتخلل الحفل إنشاد

مدائح الطريقة، أو الحضرة التجانية، [1] وتخللها الحديث الجميل المتبادل بين أتباع الطريقة وأعضاء الميعاد الخيري. وهذا ما وصف به الحفل الذي عقب مأدبة الطعام في الزاوية القادرية بالوادي، بالاستمتاع بمدائح الطريقة، وأخذ البركة، وتشنيف الآذان بالكلام الشعبي الجميل.

أما النوع الثالث من الاحتفالات ما يستقبل به أعضاء الميعاد الخيري في كل بلدة يحلون بها، ويبدأ بتظاهرة شعبية، يجند لها الأهالي كثيرا من الناس، لإظهار القبول الشعبي، الذي يتجمع حول بيت القايد الأهلي، ويحتوي المهرجان على الغناء، والضرب على الطبول، وإطلاق البارود في الهواء. ثم توجت الرحلة بالحفلة الغنائية الساهرة التي نظمت من طرف الجمعية بالاتفاق بين الأطراف العديدة، ونظمت في فندق بالاس ببسكرة، بإشراف مديره السيد بابي وزوجته، والذي قدر على جلب الزبائن العرب، وتقديم الشانبانيا، وعرفت السهرة الغناء والموسيقى الصاخبة، وحضرها أعيان البلد وأصدقاء فرنسا، وكانت سهرة عربية، أحياها الفنان الشاب عبابسة، رفقة كوكبة من الشابات، ومنهن الشابة المتميزة ليلى، وصاحب الحفل الرقص والتصفيق، واستمر إلى الصباح، وهو تعبير على مستوى السكان،

---

1 -**الحضرة:** هي فرقة المديح الديني أو الصوفي، وكان لكل طريقة صوفية في الصحراء، فرقتها المنظمة التي تستدعى لمختلف المناسبات، وتنظم في المساجد والزاويا، أو في البيوت والساحات العامة، وتُحيِ تلك المناسبات، وحتى الزواج والختان، أو عند قدوم الحاج، وهلم جرا من المناسبات الشعبية والدينية.

وانغماسهم في حياة الطرب الذي يعتبر مقصودا من طرف الإدارة المحلية الفرنسية المتعاونة، والمتحالفة مع الإقطاعيين من وجهاء الأهالي.

ويمكن مشاهدة لمحة عابرة عن طبيعة البيت في وادي سوف، والذي عبر عنه السائح تورنيول، وهو منزل الخليفة الذي يحتوي على الحوش الفسيح والمحاط بسور مرتفع الجدران، وتفتح في رحابه الحجرات التي يأوي إليها النساء، ورغم الحياء الذي انتابهن في بادئ الأمر، ولكنه بدأ في الزوال، وبقيت الحشمة جلية في غطاء الرأس أو الخمار الذي يكسو الشعر ويحجبه عن الأنظار، وتقدمن نحو الكاليفورنية، ولعلها هي التي شجعتهن على البروز، وأعتقد أن ذلك التصرف من الشابات فقط، وحضورهن فيه تعبير عن الاحترام، والترحيب، وهن يرتدين بعض الحلي، ولون بشرتهن أسمرا، غير أنهن أجمل من النساء التونسيات، وخصوصا أعينهن، هكذا عبر السائح في ملاحظاته، عن هذا الوضع الاجتماعي الصحراوي.

3 ـ دراسة تحليلية للرحلات:

ـ منهج كتابة الرحلات:

لقد كتبت جل الرحلات بأقلام الهواة؛ أولهم "ريني فاليت" الذي لا نعلم عن مستواه الثقافي شيئا، ولا نملك أي معلومات عن صفته العلمية والأدبية، ولا الوظيفية التي يشغلها، ولم يعبر عن هدفه من رحلته الصحراوية، ويظهر انه سائح يريد التعرف على المنطقة، وثَّمَنَ

جهده بكتابة هذا المقال الذي يعبر فيه عن انجازه السياحي. بينما عرفنا السائح الثاني "ريني تورنيول" بصفته، أو هوايته، فهو رسام، له الذوق الفني، ويبتغي من رحلته تسجيل الانطباعات، والتعرف على العالم الخارجي، والبلدان البعيدة، ويدخل ذلك في حب المغامرة، والفضول المعرفي.

أما كاتب التقرير عن رحلة الميعاد الخيري، هو أحد أصدقاء فرنسا، والذي نشر في صحيفة الأهالي، ولم يصرح الكاتب بشخصه، واكتفى بسرد المعلومات، وتفصيل الأشياء التي يراها جديرة بالاهتمام، وركز على الخطابات التي قدمها القياد أو الضباط، أو شيوخ الزوايا. والكاتب الأخير وهو رئيس الحامية العسكرية بالوادي، "ج فييري" يعبر عن سلوك الضباط، ونشاطهم المتواصل، في انجاز الأعمال، والقيام بالتجارب في الصحراء، وتحطيم الأرقام القياسية، عندما قام بالرحلة، ونشرها في دروية علمية أكاديمية تصدر عن جامعة الجزائر، ومقاله يلقى العناية، ويكون مجسدا لجهده الذي لا يضيع سدى، ويكون سببا في ترقيته العسكرية للمستوى الأعلى في الرتب.

ـ أهداف الرحلات:

التي نظمت من اجلها الرحلات المنجزة، وأهمها:

- حب الاستطلاع، والرغبة الملحة في اكتشاف العالم المحيط بالفرنسيين، واكتساب الجديد حول الصحراء الجزائرية، وتوسيع المدارك الثقافية.

- الاستجمام والترويح عن النفس، والعيش في الظروف الصعبة للإحساس بطعم الحياة، لأن الروتين في فرنسا لا بد من كسره ولا يتم ذلك إلا بالسفر، ورؤية المناظر الصحراوية التي سبق الكتابة عنها في الدوريات، وتحدثت عنها ملياً ايزابيل ايبرهاردت في مقالاتها وكتبها ويومياتها، وفي جريدة الطريق التي تحكي مراحل رحلتها لإقليم صحراء قسنطينة.

- اكتشاف أحوال شعب واقع تحت السيطرة الاستعمارية، والتعريف بحياته وأوضاعه، وإبراز المعاملات الفرنسية، والانجازات "الحضارية" المزعومة، التي تمت من طرفهم في تلك الأصقاع النائية.

- رحلة الميعاد الخيري، كانت للدعاية، والترويج للأفكار الاندماجية، ومحاولة إقناع الأهالي بدور فرنسا في الرعاية والتطوير للجنوب الصحراوي، وبث الأمن والاستقرار، وتقديم نموذج للميعاد الخيري المتواطئ مع السلطات الكولونيالية، وتلميع صورته، والتأكيد على مكاسبه المادية والمعنوية، حتى يتأثر السكان ويقتفوا الأثر.

- إجراء تجارب، وانجاز أعمال، وتطوير المسالك الرملية، ومحاولة فك العزلة عن قوات المخزن الفرنسي المتواجد في عمق الصحراء على الحدود الليبية، ولا يتم التواصل معهم لتزويدهم بالمؤن والعتاد الحربي،

والأخبار والأوامر إلا بجهد جهيد، وطول المدة التي تقضيها قوافل المهاري، فتأتي هذه الرحلة العملية ـ بتجريب السيارات ـ في نطاق تذليل تلك المصاعب الخطيرة.

ـ أسلوب الرحلات وقيمتها الفنية:

يغلب الأسلوب المباشر على السياق الأدبي للنصوص، ويتخللها بعض التعبيرات المجازية، والصور الفنية، والتأثر بالأسلوب الرومانسي الذي بثته ايزابيل ايبرهاردت في كتاباتها، مما جعل السواح يقتبسون منها، مثلما فعل تيرنيول، الذي صدَّرَ رحلته بفقرة من كتاباتها، وكذلك اقتبس منها نصوصا في آخر الرحلة، ونوه بعجزه عن التعبير مثلها، وتركها تعبر بصفة أحسن.

والكاتب فاليت، في الرحلة الأولى، نلاحظ عليه الاستطراد، فهو يتحدث عن مدينة تقرت، ثم يبدأ يتطلع لمدينة الوادي، ثم يرجع لوصف سوق تقرت، فيصعب المتابعة؛ كما أن التكرار في وصف الطبيعة يتجلى في ثناياها، لأن الأحداث التي عاشها السائح قليلة، ومنتهى اهتمامه هو المناظر الطبيعية، التي استولت على نفسه، وقدم من فرنسا للتمعن فيها، وهذا جعله يجتر ما سبق، ويهرب للطبيعة لعلها تسعفه ببعض المعلومات التي يرصع بها صفحات رحلته.

ولكن جمال التعبير يتجلى عند عرض لوحات وصفية لمظاهر الطبيعة، حيث يصف (فاليت) الرمال خلال الليل، والتي يتحول لونها الذهبي إلى لون أشقر، ثم بنفسجي ولاسيما في المنحدرات والأحواض،

والسماء يتورد لونها عند غروب الشمس. ويصف التجول بين البساتين(الغيطان) التي أعطت لوادي سُوفْ مظهرا عجيبا، وكأنها أرض انفصلت من بعض الكواكب البعيدة، وأنها منطقة جذابة للسواح، وتمنح لضيوفها الاحترام وحسن الضيافة، وتفعل ذلك عن جدارة واستحقاق، لطيب سكانها وتقديرهم للأجنبي. وأظهرت الكثبان الرملية " بأنها مرتفعات عالية نقشت في الطبيعة بفعل الرياح والتي فصلت بأشكال ضخمة. . . " ، وفي ورماس، وهي القرية التي تستقبل السائح لأول وهلة، فقد وصف (فاليت) أول الغيطان التي شاهدها، كأنها جزر خضراء حفرت وسط الرمل الذهبي. وكذلك الإشارة إلى منازل البدو، عند خيامهم تسلم عليك كلابهم الغاضبة بنباحها.

أما الفنان (تيرنيول) فقد تمعن في الصباح، وفي الساعة التاسعة، وقال أن الشمس تبعث الحياة في الصحراء، وذكر الركوب فوق الجمال، وحالة وضع الرجل، والتدحرج، وكيفية نزول الجمال إلى الأرض، وما يصاحبها من هزات عنيفة، ووضع السرج الصحراوي[1] في مقدمة السنام، وكيف يفضل السائح وضع رجله فوق عنق الجمل للضغط عليه بقوة، حتى يحثه على السير مسرعا.

1- كانت وادي سُوفْ على صلة وثيقة مع الهقار وغدامس، والسرج الرائج يومئذ من صنع تارقي أو شعانبي.

ومن أجمل التعبيرات، تلك التي وصفت بها سيارة الجيب في قطع مسالك العرق، وحالة انسيابها، ونترك المقدم (فيري) يعبر عنها برأس القلم:" وفي هذا الوسط الطبيعي الخلاب، كانت السيارة الجيب تبحث عن سبيلها، وتنساب بين المعابر والكثبان بشكل عمودي في اتجاه الممشى".

ووضعت الكلمات الشعبية، متميزة سواء كانت خاصة بالأعلام، أو النباتات، أو نحتت تلك الكلمات في جمع بين الفرنسي والعربي، وخصوصا التي تدل على الوحدة بين الطرف الفرنسي والأهالي، ومنها كلمات: "فرانكو- مسلمين" أو " فرانكو- انديجان" أو " فرانكو- أهلي".

والرحلات قليلة الاقتباسات، إلا بعض النصوص المستعارة من ايزابيل ايبرهاردت، أو الشواهد التي عرضها الباشاغا مصرلي عبد العزيز في خطابه، ومنها المثل الشعبي التداول (لولا ظلم الجريد وتهم وادي ريغ ما عمرت سوف), أو الاستدلال بالآية القرآنية عن التعاون على البر والتقوى.

- القيمة التاريخية للرحلات:

نستفيد تاريخيا من الرحلات في شتى الموضوعات المسجلة، وأبرزها:

- المدن والعمران: تفيدنا الرحلات بتشخيص متميز للمدن والمنشآت العمرانية الصحراوية، ويبدأ بوادي ريغ، مثل بلدة تماسين، وتقرت، والمقارين، وجامعة، وذكرت أن شوارعها متعرجة وطويلة، وبها يتسكع السكان الذين يعيشون حالة من الفراغ، بينما تشهد السوق

نشاطا وحيوية، وارتفاع الأصوات بعنف، [1]، كما يوجد بتقرت الخنادق المائية المتعفنة، وهي محاطة بالجريد والآبار.

أما وادي سُوفْ، فتضم مدنا وقرى عديدة، أهمها عاصمة الإقليم، مدينة الوادي، وفي أطرافها عدد من البلدان، ومنها ورماس، وكوينين، وقمار، وعميش، والبهيمة والدبيلة، وهي سُوفْ أرخبيل الصحراء وجنة التمور، وتتميز هذه المنطقة بكثرة القباب التي تزين الأسطح، مما جعل الكاتبة ايزابيل تطلق عليها اسم " مدينة الألف قبة"، ومنازلها متلاصقة، بنيت بحجر اللوس والجبس، والمنازل ضيقة، والأزقة متعرجة وحلزونية، وشيدت المنشآت التي تشمل قطاع الخدمات، وهي الفنادق، ومكتب البريد، والمقهى، والإدارة، وبيت العينين، وأماكن العبادة، كالمسجد، والمئذنة المربعة، وزاوية قمار التجانية، والزاوية القادرية بالوادي. وفي الجنوب السيوف، والكثبان الرملية، والغرود العالية، وتسمى بأسماء محلية، مثل سيف سلطان، وسيف ليهودي، وإلى جانبها مواقع أخرى منها فور سانت، وبير الصف، بير طنقور، بير دحمان، بير الجديد، وبرج فطيمة، وبرج مسعودة، وغدامس.

ـ **الوقوف على تطور وسائل النقل:** حددت الرحلة الأولى لكل مسافر يرغب في زيارة صحراء قسنطينة، فإن الوقت الذي يستغرقه ستة أيام،

1

هيشات الأسواق.

من باريس إلى أقصى نقطة في الجنوب الشرقي وهي وادي سوف، ولا بد من استغلال إحدى وسيلتي النقل:

ـ السفر مع القافلة الصغيرة، المكونة من الأحصنة والبغال والجمال، وتدوم نحو أسبوع من تقرت إلى وادي سوف، وتمتاز الرحلة بقلة تكلفتها، ولكن تعتري صاحبها بعض المتاعب الصحية، مثل تصلب الساق، وصعوبة الجلوس على ظهر الحيوان، ولكن السفر يعوِّد السائح على تحمل ذلك مضطرا غير مختار. وتتشكل القافلة من جِمال مخصصة للركوب، وأخرى تحمل الأمتعة، مثل الماء المعدني، والغرابر الواسعة، وتوضع بها الأفرشة وزاد الطريق.

ويتطلب الحال مرافقة الدليل العارف بدروب الصحراء، والاهتداء إلى المعالم الهادية، ومنها: القميرة، وهي الشكل الهرمي، الذي يشيد على طول الطريق، وبين الواحدة والأخرى يستغرق المسافر نحو ساعتين من المسير، وانجازها ضروري وأكيد، لأن الكثبان الرملية متشابهة، فتساعده على الاهتداء بأمان. ويزيدها الخط التلغرافي تدعيما، وهي الأعمدة المقامة في شكل متراص على طول الطريق، ويستنير بها في وضوح ملامح الطريق. وخلال ذلك شيدت الأبراج، وأولها ـ في طريق تقرت ـ برج المقيتلة، وهو أول برج تصله القافلة، وشيد على هيئة قلعة داخل الصحراء، وبه الحوش الذي تفح إلية عدة غرف، وبقربه بئر بدائية، وله حارس من الأهالي، معين من الإدارة الفرنسية، ويقيم بداخله المسافرون في وقت الليل، أو عند

اشتداد الحرارة وقت الهاجرة، وكذلك الشأن في برج الفرجان، وبرج مويت القايد.

ونفس الأمر بالنسبة للقادم من الجنوب التونسي إلى صحراء قسنطينة، على متن القافلة المتجهة نحو وادي سوف، والمنطلقة من نفطة التونسية، وبها جمال هزيلة، وتحمل أمتعة متنوعة، ومنها صناديق زجاجات الماء، وزاد الطريق الذي يحتوي على أقراص من الخبز العربي، والليمون، والشمع وأدوات الفنان(الصباغ) وأدوات الشابةالكاليفورنية الخفيفة، وعبرت القافلة شط الجريد، ووصلت إلى برج ليهودي، وهو عبارة عن أربع جدران من الطوب، مربع الشكل، تعلوه قبتان أو ثلاث، وأبوابه خشبية وعالية وعريضة، وبه الحوش الداخلي، ومرابض الأحصنة، وداخل الغرف مدفأة أوروبية، ووزعت غرفه، واحدة للحارس، وغرفة للضيوف من العرب الجمَّالة، وغرفة إسمنتية، بها أثاث بسيط يتمثل في طاولة عريضة، ومقعد صغير، ومشجب لتعليق الألبسة، وبخارج الغرف حارس كبير السن لتامين حياة المقيمين. وبعده برج العادل. وكان الاهتداء بالقمايل التي وضعت على طول الطريق، وكانت القرى المتقاربة إحدى المعالم التي سهلت الرحلة، ومنها حاسي خليفة والدبيلة والبهيمة، وأخيرا الوصول إلى مدينة الوادي.

ـ السفر مع مصلحة النقل بالسيارات ـ وهو الخيار الثاني للسائح ـ التي تنطلق من تقرت، وتقطع المسافة خلال يوم واحد، وتسلك الدروب

الوعرة التي تتجه نحو الشمال، وعلى شكل قوس، وهي طريق معوجة بها المنعرجات، وهذه الطريق يختارها السائح المستعجل المضطر، أو العاجز عن تحمل السفر لوقت أطول. والجدير بالذكر أن الصحراء لا يصدق عليها المثل القائل " كل الطرق تؤدي إلى روما"، بل يتحتم على السيارات أن تتبع المسالك المعروفة والمعلمة بالإشارات، والمسافر بالسيارة من تقرت إلى الوادي يتحتم عليه الرجوع إلى جامعة، لأخذ المسلك الخاص بالسيارات في طريق بسكرة، عبر بلدة المقارين. فالطريق رملية، وعجلات السيارة تعاني المتاعب، ويتعاون الأفراد في دفعها للأمام، وإخراجها من المأزق الرملي.

وقد شغف الفرنسيون بحب المغامرة، ولاسيما في العرق الشرقي، الذي تجوبه القوافل، فبدؤوا في الرحلات عبر السيارات ما بين الوادي وغدامس سنة 1938، عندما استطاع الملازم مايغروت أن يصل بسيارة من نوع (Lorraine)، إلى أقصى نقطة على الحدود مع غدامس، تبعد عنها نحو 500 كلم، في مدة أربعة أيام، واعتبر انجازا فريدا، وعلق لافتة في برج فطيمة، تخلد هذا العمل الفاخر، ولكن الضابط ج. فيري، أراد المضي أبعد من ذلك بواسطة سيارة الجيب، التي انطلقت يوم 18 مارس 1939، من مدينة الوادي، ولاقت صعوبات، وعاشت القافلة مغامرات، فكانت عجلات السيارات تغوص في الرمال، ويضطرهم ذلك استعمال الصفائح

الحديدية المخصصة لهذا الشأن، [1]، وكانت السيارة يغرق حديدها السفلي بأكمله، وحينها عجز الدليل عن معرفة الطريق، ولكن برج فطيمة لاح لهم من بعيد، وفوقه يرفرف علم فرنسا، واستعان الدليل بالخريطة، وخففت الحمولة عن السيارة التي مكنتهم من الوصول إلى مرحلة متقدمة عن الهدف المنشود. ويتضح مما سبق حجم المعاناة، والتطور ما بين القافلة والسيارة.

ـ **معرفة دور أعوان الإدارة الاستعمارية:** وهم فئة من الأهالي، أعطوا زمام القيادة لبني جنسهم، تحت الرعاية العسكرية، وعلى رأسهم القايد، وتختلف رتبته بين الآغا، والباش آغا، ويساعده الخليفة، والدايرة، الذي يمثل رجل الأمن أو الدركي الذي يقدم خدماته للإدارة بتكليف من القايد، في القرية أو المدينة على حد سواء، وللقايد مكتب يجتمع فيه مع أعضاء الجماعة أو المجلس البلدي للقرية، ورجاله لهم ألبستهم الخاصة، فالدايرة يرتدي برنسا أزرق اللون، وهو وسام السلطة. وتسعى الإدارة إلى توريث المناصب في نفس العائلة، فالباشاغا السنوسي، يهيئ ابنه علي لخلافته بعد التقاعد.

1 -**الصفائح الحديدية:** هي صفائح صلبة وسميكة، بها دوائر عديدة مثقوبة ينفذ منها الرمل، ولها سطح خشن، تثبت فوقها العجلات، وتساعدها على السير والتقدم.

4 ـ تقييم ونقد الرحلات:

إن الدراسة النقدية للرحلات، وبعد استعراض الأفكار الواردة، يمكن تحديد المسؤولية، والتي تخدم الأهداف الفرنسية، وفي بعض الأحيان تظهر الموضوعية التي يفرضها الواقع:

ينظر الفرنسيون للمنطقة الصحراوية، بنظرة الاستخفاف، والنقد اللاذع، فوادي سُوفْ مازالت خارج مستوى الحضارة، ويعيش فيها فقراء الناس، وأثناء مسيرهم في الطريق، وشعورهم بالتعب، عبروا عن إحساسهم بالمعاناة التي لا تذللها إلا الحضارة، وهي الكفيلة بتخفيف تلك الشدة، وإنهاء السخرة المفروضة عليهم، وهي أمور تجاوزتها أوربا، ولكن السائح يعيش ـ في تلك الأثناء ـ حياة البدو القاسية؛ والذي ينبغي التأكيد عليه أن الاستعمار يتحمل ذلك الوضع المزري، عندما استعبد الشعب الجزائري، واستنزف ثرواته، وحرمه من أدنى ضرورات العيش، لأن فرنسا تدعي أنها قدمت للجزائر من أجل نشر الحضارة، فتبين من أقلامهم، أن الفقر والتعاسة هي الأثر البالغ في حياة الأهالي.

وعندما تعلق الأمر بوصف حياة القياد، أشادوا بدور فرنسا، بتطوير حياتهم الاجتماعية، فقد أشار مقال الميعاد الخيري (إلى الوسط المتحضر عند الباشاغا السنوسي ـ في جامعة ـ فالوسط كله متحضر، سواء في ترتيب الطعام، الذي عبر عنه انه يفوق ما عند الفرنسيين، وكذلك الخدمات التي قدمها الشباب والتي تقارن بأرقى المؤسسات

الأوروبية). ولكن الحقيقة غير ذلك، لأن القياد وفرت لهم الإمكانيات، وفتحت أمامهم الفرص في العيش الرغيد، وهم في ذلك الاستقبال، يولون العناية الكبيرة لرؤسائهم، وأصدقائهم، وتقديم صورة مقبولة عن نشاطهم في الإدارة المحلية، من أجل تمكين نفوذهم، وكسب ود رؤسائهم من العسكريين.

كما أكد القايد مصرلي عبد العزيز، أن زيارة وفد "أصدقاء فرنسا" لبلد الرمل(الوادي) لم يبق في عداد المستحيل، بفضل جهود الإدارة الفرنسية، ومهارة عمال الهندسة الفرنسية، بإعدادهم الانجازات التي تتماشى مع روح العصر، وخصوصا تحديد الطرق، واستعمال السيارات في التنقل، والتي عوضت الجمال، وخففت من المعاناة، واختصرت الزمن من عدة أيام إلى يوم واحد، أو بعض الساعات. وهو تلميع لصورة الاستعمار، ومحاولة إبراز الانجازات، والتعبير عن محبتهم العميقة لفرنسا. ونلمس ذلك في خطاب شيخ العرب سي بوعزيز بن قانة، الذي أسرف في الثناء على فرنسا، بقوله" تحيا بسكرة، تحيا الجزائر الفرنسية، تحيا فرنسا ". وأثنى على رئيس بلدية بسكرة (لأنه يعمل على جعل المستقبل زاهرا لفرنسا، وتطوير بسكرة بأعماله الجبارة). وكان رد رئيس البلدية على نفس النسق من التمجيد لشيخ العرب، ودوره في خدمة فرنسا، بكل إخلاص وتفان، وعبر عن أهمية خطابه: (الذي يحمل الثقة لحكومة الجمهورية، ويحدث الاتصال بين جميع أطفال ما وراء البحر. وعبر الأمواج البحرية، تسمع العاصمة

باريس صوته، وإن الفرنسيين يحسون بقيمة خطابه، ويضعونه في عين الاعتبار، لأنه يظهر القيمة المعنوية لشمال إفريقيا، وهذا يجعل الأهالي يعتبرون بلادهم ليست مستعمرة، بل هي امتداد طبيعي، وحقيقي لفرنسا). وهذا منتهى الاستكانة والخنوع، والتمجيد السافر للاستعمار الذي بذر الحقد، والضغينة وامتص روح الشعب الجزائري.

ولكن في خطاب مصرلي عبد العزيز، يرى (أن فرنسا استطاعت القضاء على العصبية القبلية الواقعة بين الصفوف(القبائل والعروش) وأنهت التقاتل بين الأشقاء، والتناحر بين الأخوة). وهذا الكلام فيه جانب كبير من الحقيقة، ولكن الخفي منه أن فرنسا، لم تفعل ذلك محبة في سكان وادي سوف، حتى يتحدوا في خدمة بلادهم، ولكن حاولت إنهاء تلك النزاعات، لأنها مجال خصب لحدوث معارك يستعمل فيها السلاح الذي تخاف أن يوجه لصدور أعوانها، مثلما وقع في عدة حوادث قبل الاستقرار النهائي للإدارة الفرنسية في مناطق الجنوب، فسعيها غرضه تحقيق الأمن في صحراء قسنطينة من اجل راحة الفرنسيين، وتشجيع السياحة، وقطع الطريق على المقاومة الشعبية، ووأدها في المهد. والجدير بالذكر أن العصبية كانت متأصلة في نفوس الفرنسيين، مثلما أشار (تورنيول) في رحلته، وعندما وصلت القافلة إلى برج ليهودي، وعاش مع العرب المرافقين للقافلة في البرج، وهم يحتسون الشاي أمام الموقد، وأصواتهم تشق صمت الليل، فكر

هذا السائح (أن يخبر نقيب المكتب العربي بالوادي بذلك، ويرجوه أن يخصص غرف البرج للأوربيين فقط، وان يحرم العرب المرافقين من ذلك).

ومع ذلك فان المصلحة، اقتضت اندماجهم ـ السواح ـ مع المرافقين، وتحملوا المصاعب، لتحقيق غايتهم، والاطلاع على مظاهر الحياة في أقصى صحراء قسنطينة. وعبروا عن ذلك الاندماج، فقد وصف فاليت ريني، حالة الأوربيين في تعاملهم مع الأهالي من المرافقين، بأنها حياة سادها التفاهم، وكأنهم في جو عائلي. فقد تعودوا على النوم فوق الرمال، ولم يفتقدوا الرفاهية الحضارية، ولم يشعروا بالشدة التي تؤرقهم، في سبيل العيش في تلك اللحظات التاريخية التي توفر لهم الراحة والهناء، وقد عبرت الفتاة الكاليفورنية عن تجربتها في هذا السفر بأنها في راحة كبيرة.

ولكن تمر عليهم فترات مأساوية، لكنها سرعان ما تزول، مثلما حدث لقافلة سيارات الجيب، عندما تعطلت الأولى، ونفد بنزين الثانية، وضاع الطريق على الدليل الأهلي ـ العارف بالطريق ـ وبدأ شبح الهلاك يساورهم، وسارعوا إلى تفقد كمية الماء المتبقية لديهم، وهم يشعرون بالحرج والضيق، خوفا من المصير المجهول، ولكن الفرج أتاهم، ووصلوا إلى مبتغاهم، وكان برج فطيمة منقذا لهم من الهلاك، وتصور الفرحة التي غمرتهم، وصار النقيب غاتنيول ينظر إلى المقدم فيري وينفجر ضاحكا.

وعموما فالرحلات التي نعرضها لاحقا، قطعة من التاريخ، وصفحة من النشاط المتعدد للمجتمع الصحراوي تحت السيطرة الفرنسية، وهي مناطق عسكرية، حرصت فرنسا أن تبقيها معزولة عن أي تيارات فكرية أو سياسية، وتسمح بذلك لأعوانها، والمقربين من الأعيان والوجهاء، وشيوخ الطرق المتزلفين، والقياد المخلصين للعلم الفرنسي، وعبرت عنهم الرحلة الثالثة بأصدقاء فرنسا. وسيجد القارئ فيها معلومات ثرية، رغم اقتضابها.

القسـم الثـالث
رحلات الفرنسيين في صحراء قسنطينة

الرحلة الأولى: أرخبيل سوف. . . بقلم : ريني فاليت

الرحلة الثانية:من الجنوب التونسي إلى سوف. . . بقلم: ريني تورنيول

الرحلة الثالثة:جولة "أصدقاء فرنسا " في الجنوب الشرقي

المقدم: ج. فيري

الرحلة الأولى
أرخبيل سوف بقلم :ريني فاليت[1]

تجمع سكاني يبلغ 25.000 نسمة، [2] يعيش منطويا على ذاته، كذلك كان معزولا عن بقية العالم المحيط به، [3] لإن وسائل النقل الحديثة لم تعبر إليه إلا منذ خمس أو ست سنوات وبمشقة. [4]

للمنطقة زراعة أو بساتين، أو بعبارة أخرى تلك البساتين هي الوحيدة في العالم، ولها عادات وتقاليد لم تمسها الحضارة بعد، ولها هندسة معمارية خاصة، وفوق هذه الأرض لا تبصر سوى فقراء الناس، هذه المنطقة ليست صخرية، وليست حجرية، وليست حصوية، كل ذلك لا يحمل التناقض، وليس ذلك يعبر عن جزيرة مفقودة في

---

(1) Voir: René Valet: "L'Archipel du Souf" **,RevueAlegria**, N: 7, Sep 1933.

2 - الإحصائية غير دقيقة، فقد بلغ عدد سكان وادي سوف سنة 1931، 68203 نسمة.

C. Cauvet , " Notes sur le Souf et les Souafa", **(B. S. G)**, d'Alger, 1934. , p64.

3 - قطعت أول عربة (**كاليجCalèche**) يجرها حصانان، الطريق بين تقرت والوادي، سنة 1911 وكانت تحمل شيخ التجانية سي البشير التجاني عند زيارته لزاوية قمار، والعربة الثانية تجرها البغال حملت أول حاكم عام للجزائر يزور سوف (**Lutaud**) عام 1917 انطلاقا من محطة جامعة، وقد لفت عجلات العربة بشرائح عريضة من الفولاذ لمنعها من الغطس في الرمال الرخوة، وكان صاحب الفكرة الضابط (**Deluot**)**.**- Cauvet , Op . C**.** Cit, p78.

4- بدأت الوسائل الحديثة تربط طرق المواصلات بين مدينة الوادي والمناطق المجاورة في منتصف العشرينات، نشأت شركة (**Latèrrere et Costes**) في تقرت سنة 1924، وكانت تربط بين تقرت والوادي بمعدل رحلتين في الشهر في الشتاء ورحلة واحدة في الصيف، وتحمل السيارة 15 مسافرا، وتقطع مسافة 126 كيلومترا.

A. O. M. 24H35, Lettre de Commandant Militaire de Touggourt (Fournier) à M. le Gouverneur Général de l'Algérie, le21 Mars 1924.

المحيط، ولكن ستة أيام تنطلق فيها من باريس، يمكنك أن تصل إليها، ولكنها مع ذلك متميزة وصغيرة ـ حسب معرفتنا بالعالم ـ هل تعرف سُوفْ؟[1]

في وسط رمال العرق الشرقي الكبير، [2] وفي عمق الصحراء، وبعد عدة أيام من السير في الواحات الأخرى، تتراءى لك على مد البصر في الرمال الممدودة، عاصمة الوادي، المحاطة بست قرى: عميش، كوينين، ورماس، قمار، البهيمة، الدبيلة. [3]هي سُوفْ، أرخبيل الصحراء، [4] وجنة التمور، [5] كلها منفردة، في هذه البقعة التي ضاعت بها الحياة في وسط فارغ، وهي كما كتبنا، تبرز كل ما يتطلع

1 - **سُوفْ:** هي إقليم تاريخي، يقع في الجنوب الشرقي الجزائري، قاعدته مدينة الوادي، وله حدود مع بلاد الجريد التونسية، وتبعد مدينة الوادي عن الحدود التونسية بنحو 85 كلم، واقرب نقطة حدودية هي حزوة التونسية.

2 - **العرق الشرقي الكبير:** هو الصحراء الرملية، وتمتد في الجنوب الشرقي الجزائري والشمال الشرقي للصحراء الكبرى، ومن الجزائر إلى تونس. وتبلغ مساحته 190,000 كم² وهو عبارة عن رباعي الأضلاع 500 كم على 300 كم، ويتكون من كثبان رملية قد تبلغ أعلاها 250 م طولا، وتفصله هضاب صخرية وسهول حجرية عن العرق الغربي الكبير .

3 - اقتصر على ذكر بعض القرى، وغفل عن قرى هامة ذكرها الدكتور ايسكار سنة 1885، وهي تاغزوت والزقم وسيدي عون .

4 - **الأرخبيل:** هو احد أشكال سطح الأرض، ويمثل مجموعة متراصة من الجزر، وهنا يرمز إلى الواحات الرملية، وتعرف بوادي سوف، هذا الإقليم الصحراوي الذي يقع بين إقليم الزاب شمالا، ووادي ريغ غربا، وغدامس جنوبا، والجريد التونسي شرقا.

5- **جنة التمور:** وادي سوف مشهورة بزراعة التمر بشتى أنواعه، ويعتبر غلة نقدية وغذائية هامة في المجتمع، بل هي عموده الفقري، وعنصر عيشه الرئيسي.

له السواح، وتطول حيرتهم، وَسُوفْ حينئذ تعبر لهم عن جدارة، في هذا المجال، بأنها منطقة تمنح ضيوفها كل التقدير والاحترام.

تستطيع منذ بعض سنوات أن تستغل ـ من اجل زيارة الوادي ـ مصلحة النقل بواسطة السيارات التي تنطلق من تقرت، ويتم قطع المسافة خلال اليوم، ولكن الطريق (غير المعبد) الذي يتجه نحو الشمال، يشكل قوسا كثير التعرجات، ولا توجد العجلات التي تستطيع مقاومة الرمال المستعصية، أو المنحدرات المنتشرة في كثبان العرق الكبير، فتركب السيارة إليها إن كنت مضطرا أو عاجزا، بينما يمكنك عند القدرة على التحمل أن تقضي أسبوعا في الرحلة، فلا تتردد، تركب مع قافلة صغيرة، تتكون من أحصنة وبغال، والأولى الجمال، فهي رحلة عادية[1] وأقل تكلفة، لقد سلكنا طريق الجمال، طريق القميرة، [2] في أول المساء تجد ساقك بدأت تتصلب، وتحس ببعض الصعوبات عند الجلوس، ولكن سرعان ما تتعود، وما ينتظرك من بهجة وسرور سوف يبدد ذلك.

يوم جميل بعد استكمال الاكتشاف لتقرت وتماسين، روعة الشوارع المعوجة والطويلة، والتي يتسكع فيها البطالون، أو يجلسون فوق الكراسي الحجرية، المنعزلة كأنها قبور الملوك. عذوبة المساء، وبسمفونية

(1) كل سائح يزور وادي سوف قبل منتصف العشرينات، كان يمتطي ــ دون اختيار منه ـــ حصانا أو جملا ضمن قافلة تجارية، أو مخصصة للسفر مع القوات العسكرية.

(2) **القميرة:** وهي شكل هرمي قوي، بنيت بتراكم جذور النباتات الصحراوية أو بالجبس والحجارة، وحدد مكانها بطريقة تجعلها واضحة يمكن رؤية الواحدة بعد الأخرى، لتدل المسافرين على معالم الطريق.

البعوض في الواحات، وتظهر حيوية السوق، التي تنبعث منها الأصوات بشدة قبل شراء جراب من التمر الجاف، أو عدد من الخرفان، أو قارورات قديمة، والتي تستهوي البدو، وهي أوعية فارغة (savora). وقد سلكت الطريق بعد تناول الغداء، توجد في المحطة[1] مجموعة محترمة، متهكمة، تراقب طاقم القافلة بما فيه من أمتعة: دابة لكل مسافر، وكثير من الجمال الخاصة بحمل الأمتعة والمواد، وبها التلاليس[2]الواسعة التي تستوعب أمتعة الركاب، وزاد الطريق، والأفرشة، والأهم من ذلك، الماء المعدني، هذا المنظر الذي يسوده اللطف، وشيء من الجو العائلي للسواح الأوربيين، ويعطينا أول احترام، وسوف تكون أحسن من الآخرين.

قافلتك تنطلق بهيبتها، فهي تقطع الواحات التي بها السواقي والخنادق المائية المتعفنة التي تعكر بياض ملح المغنزيوم، وهي تتبع نهجا عريضا محاطا بالجريد والآبار، ظل ذلك المشهد فيه الجفاف، وبعد طول بعض القصور[3] التي تشبه لون الأرض، والتي تأوي الأطفال والفقراء.

---

(1) **المحطة:** هو مكان تجمع القافلة قبل الانطلاق.

(2) **التليس:** كيس مصنوع من الصوف أو الوبر، يحمل فوق الجمال، وتوضع فيه الأمتعة، أو بعر الإبل، ويدعى عند أهل سوف باسم"غـرارة".

(3) **القصور:** هذه القصور في تقرت بوادي ريغ، وهي التجمعات السكانية التي تشبه القرية، وهي ذات بيوت متعددة، ومحاطة بسور خارجي، وتدعى القصبات في المجتمعات الإسلامية المغاربية، واسم القصر هو التعبير الغالب على العمران في الواحات الصحراوية.

وراءها نكتشف الصحراء الحقيقية، المشهد الطبيعي بدون نبات، وبدون أي مظهر للحياة. في الأفق، حينئذ يظهر نخط من الذهب، أول كثيب رملي، قريبا، لباسك يدوس على تلك الرمال الجميلة، مازالت بعيدة عن الحس، وهي تنتشر في مختلف الأرض التي سوف تمر بها خلال رحلتك. في الكثيب الأقرب إليك، يستقبلك هرما عاليا له قاعدة، كأنه نصبُ لمقام معبود مجهول؟ كلا إنها ببساطة أول قميرة، وهي التي تحدد الاتجاه في طريق غير محدد، وأنت تتحرك عبر هذا الطريق، تصادفك مثل تلك القمايز، ما بين الواحدة والأخرى حوالي ساعتين من المسير، فهي إشارات ضرورية في وسط الكثبان المتشابهة.

أما الخط التلغرافي[1] فهو يوازي تحديدا خط مسير القافلة، ولكنه يدفن في بعض المراحل في الرمال، وتنزع عنه عادة بفعل الرياح، وقد يتجاوز القمم الأكثر وعورة، ويتواجد في أسفل مضيق رملي، ويختفي عن الأنظار البعيدة، ويصعب إتباعه، [2] ولكن لا شيء

(1) **التلغراف:** جهاز اتصالات استخدم في نهاية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين لإرسال البرقيات والنصوص يعتمد على ترميز الحروف بنبضات كهربائية ويرسلها عبر الأسلاك إلى آخر يطبع تلك النبضات، وكانت أعمدتها تربط بين تقرت ووادي سوف حتى هذه السنة 1933.

(2) وعبر عنها رحالة آخر بقوله عن الطريق: (كما تدل عليه أعمدة الخطوط البرقية(التلغرافية) التي يراها الرائي صفا على مرأى البصر كأنها صف متراص من الجنود الشاكين السلاح). أنظر: أبو القاسم سعد الله: " مهمة موتيلانسكي في سوف لدراسة اللهجة الغدامسية سنة 1903" ــ في ــ **مجلة الثقافة**، الجزائر، 1995، العدد 108/107، ص 104. .

يمكنه إخفاء القميرة الشاهدة، والتي تظهر في الأفق صغيرة جدا، ولكنها تكبر كلما اقتربنا منها.

وفي سكون الليل الذي يرخي سدوله، فانك تسير بدون استعجال، وبدون تفكير، فالرمل الذهبي يتحول أشقرا، أو بنفسجي اللون ولاسيما في المنحدرات، والسماء يتورد لونها عند حلول الغروب، حينئذ وبمقارنة المشهد بغيرة، يأخذ مسحة جلية لحجر كريم شفاف. وذلك السكون لا يخرق إلا بخطوات الحيوان، وصوت أنين لجمل بسبب طبيعته العادية.

عند خيام البدو تسلم عليك كلابهم الغاضبة بنباحها، هي كلاب ذات وبر، ولما تواصل السير في الطريق الغامض، حيث تختفي آثار السير بسرعة، لأن الرمال متحركة بشكل مستمر، وأنت تكابد ـ تقريبا ـ مراحل مبهمة وغامضة وبدون نهاية، وتلتقي في مشهد طبيعي منذ أمد قديم.

لقد حل الليل عندما وصلنا إلى البرج، [1] الذي سوف نقضي به الليل، هو برج المقيتلة، الذي شيدت قاعدته على هيئة قلعة، وهو عبارة عن رحاب مبني، يضم بعض الغرف العارية، وهو يختفي في

(1) وكانت تدعى " **خان القوافل** " وشيدت في طريق القوافل الفرنسية المتنقلة، ومكانها حدد تقريبا في محطات الراحة، وهي بناءات صغيرة، وتعطيها قبابها ميزة خاصة، وتحتوي على مسكن الحارس المكلف بحراسة الآبار المتقاربة، ويفتح هذا البرج للمسافرين وخصوصا الضباط العسكريين والموظفين، ويخضع كل ذلك لنظام محدد. C. Cauvet – Notes. p 76.

منعرجات الكثبان في الظل الأبيض، بالقرب من بئر بدائية، [1] وسوف نقضي شطرا من اليوم الأول، لتهيئة المخيم، وبالبرج، حارس كبير السن وثرثار، وهو جندي قديم في سلاح الرمي، اسمر اللون، صحراوي الأصل، وقد عرض علينا خدماته، ويحمل إلينا ماء مالحا، أو ماء من القربة. [2] وإذا أردت أن يقدم لك خدمة ـ أطلب منه طعام الكسكسي ـ ولكن دون أن تجد الاستعداد لتناوله، بينما أفراد القافلة يكونون سعداء، وهم يمصون هذا الطعام المختلط بحبات الرمل، [3] والذي يحدث صوتا بين الأسنان، وأما المرق السائل، فهو يوزع باستمرار كلما احتجت إلى ذلك.

تناول عشاءك من الزاد الذي تحمله، [4] فيما بعد، في الغرفة التي نظفت لك جيدا، ومع ذلك تصادفك في بعض الأحيان، بعض

---

(1) كانت الصحراء تحتوي على آبار قليلة، بحيث يسير المرء ما بين ست إلى سبع ساعات دون أن يجد ما يطفئ به عطشه، ولكن بالقرب من هذه الأبراج حفرت الآبار. انظر: علي غنابزية: **مجتمع وادي سوف من خلال الوثائق المحلية في القرن التاسع عشر** " (رسالة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر(مخ) تحت إشراف الدكتور عمر بن خروف، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، نوقشت 30 (أفريل 2002). ص 95.

(2) **القربـة:** هي مزود من جلد الماعز، يستعمل لحمل الماء وحفظه وتبريده في فصل الصيف. علي غنابزية، المرجع السابق، ص 76.

(3) اعتاد سكان الصحراء على الرمال التي تملأ عليهم حياتهم، فهي تحل في طعامهم، وتصيبهم في أبصارهم، وتلفح وجوههم أثناء ثوران الزوابع الرملية، ولكنهم تأقلموا معها، بينما يحس بضررها كل سائح أوروبي، تعود على رطوبة العيش، ورخاوة المدينة.

(4) يبرز مدى الحرج الذي يلاقيه هذا السائح الذي فضل طعامه الجاف على طعام البدو، وهو ينصح بني جنسه الذين يقصدون المنطقة، بهذا السلوك، وهو في محل الدعاية، ولكنه ينبه على كل الدقائق في هذا الوسط الصحراوي.

العناكب، أو العقارب المتعددة العائلات، لقد نمنا وقضينا ليلة بدون أحلام، وفي سكون تام، والذي يحدث اضطرابا كأنه ضجيج مرتفع.

تم الرحيل في الصباح الباكر، وفي الضوء الذهبي، والجديد في الحال، وفي غضون ساعة وأنت تتأرجح في دابتك التي تمتطيها، وتصعد بك كثبانا عالية، وذات أشكال مختلفة، وفي الأفق، منظر جميل لسلسلة من الكثبان، سيوف [1]- هكذا يسميها العرب، بسبب قمتها الحادة - منها سيف سلطان، سيف ليهودي، وانتم تمرون في بعض الأحيان بإحدى المراعي، تحس بالشدة، ولكن توجد عدة أمتار بها وسط طبيعي به الاخضرار، وخلال المسير تتمتع برؤية الآثار فوق الرمال، إنها آثار طائر، أو حشرة سوداء اللون كبيرة الحجم، أو عدد معتبر من الخنفوس الذي صارت علما بارزا في عرف الصحراء. وبعد ذلك، وفي ساعة اشتداد الحر، وهو الوقت الذي يبدأ فيه الإحساس بشدة الشمس وحرها، حينئذ اكتشفنا، فجأة، وفي ثنايا الكثبان، برج جديد، هو برج الفرجان.

توقفنا بسبب الهاجرة، [2] وتناولنا الغداء الذي ختم بقهوة، أعدها لنا حارس البرج، وحينئذ قضينا الوقت في الراحة لأن السير صار مستحيلا، فتأملنا في أحوال البرج وأخباره، توجد به زهرة رمال

---

(1) **السيوف:** هي الكثبان الرملية، التي تكون قممها حادة، تشبه السيف في صقالته، ويطلق عليها أسماء محلية، ولاسيما الكبيرة المتميزة التي تحافظ على المكان، وتبقى ظاهرة للعيان لا تتغير إلا قليلا. .

(2) **الهاجرة:** هي وقت اشتداد الحر في منتصف النهار، وتستمر إلى وقت العصر، وتلتهب الأرض، وتسمى رمالها بالرمضاء.

ضخمة، [1] تزن 30 كلغ، ثقيلة جدا يصعب اقتناؤها من طرف الراغب فيها.

ولما خف الحر الشديد، استأنفنا المسير، والجمَّالة[2] نشطوا دوابهم، وجعلوها تتناول العلف، وهو الحشف بالنوى، الذي غمس في الماء. وتم استئناف الرحلة بخطى خفيفة تماشيا مع حركة القافلة، مع ترنح الركاب في أعلى الراحلة والتي أصبحت الآن أقل شدة، وتنحني الدواب لتلتهم ما تختاره من الحشائش الشوكية الجافة.

أنت انطلقت في الرحلة منذ يومين فقط، وبدأ التعب يظهر أثناء المشي ومنذ البداية، والذي يخفف هذه المتاعب، إنه الحضارة، [3] وهذه المشاق مضاعفة، وبدون بروتوكول، هذا الطقس، وهذه الأوامر والسخرة، كل هذا انتهى لديك منذ زمن بعيد، [4] ولكنك الآن كأنك أحد البدو، مثلك أنت، ربما تلاقي واحدا أو اثنان خلال كل الرحلة، عند من لا يحسب الوقت، من كل عمل تافه، وعبر هذه الكثبان كل شيء مماثل، أو متغير، انه سفر بدون نهاية.

---

(1) **زهرة الرمال:** هي نوع من الحجارة من فصيلة اللوس، بلورية، وهي متشابكة، منها الصلب يستعمل للبناء، والرخوة منها، لها جمال، وتستعمل للزينة من طرف السواح، أما السكان فيستعملونها "الترشة" لصنع الجبس الخاص بالمنسوجات.

(2) **الجمَّالة:** الذين يقودون الجمال، ويشرفون على الدواب، ويطلق عليهم أيضا "الحمارة".

(3) يشير إلى التقدم المادي، وتطور وسائل النقل.

(4) يذكر نفسه بذهاب المعاناة من المجتمع الفرنسي، ولكنه في هذه الرحلة يحس بحجم الشدة، وضياع الجهد والوقت، ولكن البدو لا يبالون بذاك، فتلك حالتهم الاضطرارية.

أما في المساء، وفي برج جديد يدعى مويت القايد، وبعد حط الرحال مرة أخرى، إذا كان الليل لطيفا يمكنك وضع فراشك فوق الرمال، خارج البرج، لأن الصحراء آمنة، ولكنك تتغطى حتى تسلم من برودة الليل، أنتم تتأملون الكواكب والنجوم السرمدية،[1] مثل تأملكم للعرق الذي انتم به، هذه النجوم المتناثرة في الأفق بكثافة، ولا يخفيها أي ضباب، وسوف تشعروا ببعض الإزعاج، ربما، تحت هذا العدد الهائل من الأعين المتلألئة.

تنطلق القافلة في الصباح، وإلى آخر مرحلة، وأنت تعبر الطريق بين الكثبان، وقد يزعجك ذباب الصحراء الكثيف واللاسع بوخزه، وهو ذباب صغير ورمادي اللون، وعند اقترابك منه يتفرق، ولكنه يحوم حولك وحول دابتك، وكأنه ضباب طنان. من أي شيء يتغذى هذا الذباب؟ وماذا يشرب؟[2] ومن الممكن أن يكون بمثابة وسيلة في ممر القوافل؟ ولهذا الشأن هو لاصق بهم لهذا الحد.

في حدود منتصف النهار، ومن قمة احد الكثبان، تراءى لنا من بعيد، شبحا اخضر اللون، إنها باقة من النخيل المتوغل في الرمال، إنها أول بساتين سُوفْ، وتتمثل في تلك الأحواض الهائلة التي

---

(1) يعيش لحظات نادرة لا تتكرر، ولا يمكنه الوقوف عليها في بلده، لأن الرمال والجمال، والنجوم لا تتوفر إلا في هذه الصحراء.

(2) **ذباب الصحراء:** رمادي اللون، ويتواجد بكثرة في المناطق الاستوائية وشبة الاستوائية، وتفضل هذه الحشرة البيئات الصحراوية والريفية، وتهاجم البدو الرحل وخاصة الأطفال وبأعداد كبيرة، وتتغذى على الفضلات البشرية والجروح والمواد الغذائية المتعفنة، ولاسيما التمر.

بلدة ورماس، [2] وسفرك الطويل قارب على الانتهاء.

ولنا أن نتساءل، لماذا هذه الزراعة المتفردة؟ ولماذا هذه المزارع داخل الرمال، والتي هي في كل النواحي، والتي حفرت بكل إتقان.

إنها سُوفْ، اسم المدينة المقصودة، والتي يعبرها المجرى المائي العريض تحت الأرض، [3] والسوافة تقليديا، عوض إيصالهم الماء إلى مزروعاتهم، فضلوا حفر الأرض، حتى يزرعوا نباتهم على مستوى الماء السطحي وقرب الثرى الأسفل، [4] فيتم حفر تلك الأحواض (البساتين) وهم يحمونها دوما من الرمال، والتي يوقفوا زحفها بواسطة

---

(1) **الغيطان:** مفردها غوط وهو المزرعة أو البستان الذي يزرع فيه السوفي نخيله، وتجمع عند السكان بلفظ غواطين أو غيطان. ورد في لسان العرب: غاط يغوط غوطا: حفر. والغوط: المتسع من الأرض مع طمأنينة وجمعه اغواط. وهو عمق الأرض الأبعد، والغيطان كل ما انحدر من الأرض – انظر لسان العرب لابن منظور. ج 9. ص ص 239 – 240.

(2) **ورماس:** تقع في الشمال الغربي لوادي سوف، وهي أول قرية في طريق القوافل بين الوادي وتقرت، وتبعد عن مدينة الوادي بنحو 19 كلم.

(3) هي الطبقة المائية التي تكون في أسفل الغوط، وتشرب منها النخلة مباشرة، وجذورها قريبة حوالي متر، وغالبا في منطقة الرمال الغزيرة في جنوب العرق، توجد طبقة حجرية من التافزة، تمنع تسرب الجذور، وهذا يجعل الفلاح، ينزعها بوسائله، ويزرع النخيل فوق التراب الذي حل محلها.

(4) **زراعة النخيل:** تدعى هذه الزراعة "البعلي" لا تسقى، بل تشرب الماء مباشرة، لأن جذورها تغوص في الماء، وتعتبر ظاهرة فرية في نوعها، وهذا ما دفع منظمة "الفاو" التابعة للأمم المتحدة، إلى تصنيف "الغوط" أو النخيل "البعلي" ضمن المعالم العالمية.

حواجز، والكثبان الزاحفة، ترفع[1] عن طريق القفاف، [2] إنه الرمل الدائم الدوران. [3]

وتحت هذه النخلة التي يصل رأسها إلى عنان السماء، وعند قدمها السفلي، تزرع الخضروات، وهي البصل، والفول، والجزر، واليقطين، والشعير، والتبغ، وهذا التبغ له نشوق قوي، وذو قيمة معتبرة، وتجارة رائجة، ولكنه اقل أهمية من تجارة التمور، وخاصة تمر سُوفْ من نوع "دقلة نور" الذائبة واللذيذة، وهي الحسن والبهاء في كل الصحراء. [4]

ونذهب الآن للتجول بين البساتين التي منحت المنطقة مظهرا متميزا، وكأنها انفصلت من بعض الكواكب البعيدة بانفجار قنبلة ضخمة، أو لغم مملوء بالاخضرار. وصلتَ الآن إلى "مدن" سُوفْ. وتمر بالقرب من بلدة كوينين، [5] تحت الشمس والذباب، والرمال، والوسخ هو

---

(1) **رفع الرمل:** هي عملية مكافحته الرمال المتراكمة بصفة دائمة، وتكاد تكون يومية. وكل ذلك يتطلب من المالك الاستمرار في هذه العملية بنفسه أو عن طريق تأجير العمال، ويستعملون عدة وسائل لرفع الرمال من أعماق الغواطين، ومنها القفة التي يحملها الإنسان فوق ظهره ويرتقي إلى أعلى ليرمي تلك الرمال، والقليل الذي يستعين بالأحمرة والبغال.

(2) **القفاف:** مفرها قفة وهي وعاء يصنع من سعف النخيل، وله مقابض في الأطراف، وشكلها دائري، وتستعمل لرفع الرمال، وحمل مواد البناء وغيرها.

(3) أنظر: علي غنابزية " تحدي الإنسان للرمال وتطويع الصحراء للعمران البشري"ــ في ــ ملتقى الإنسان والصحراء الكبرى قراءات تاريخية واجتماعية المنعقد يومي 23-27 نوفمبر 2011، بالمركز الجامعي بغرداية – الجزائر، نشر ـ في ــ **مجلة الواحة للبحوث والدراسات**، العدد 15، المطبعة العربية، غرداية، ص ص 214-222.

(4) **دقلة نور:** هي أفضل أنواع التمور، وهي مخصصة للبيع، وتعرف بغلاء أسعارها، بينما يحتفظ المالك بنوع"الغرس" الذي يكون الغذاء الأساسي للسكان.

(5) **كوينين:** وتأتي بعد ورماس، وتبعد عن مدينة الوادي بنحو6 كلم.

الآخر، صنع بلدة من العميان، [1] مما جعل احد المصحات تدعى " بيت العينين" والتي تم إنشاؤها من قبل إدارة الجنوب، [2]التي تبحث على منحها النور، وبعد، وفي المساء، وفي جلال الخيال وعند غروب الشمس في العرق الكبير، الذي يستقطب الإنسان، ويقدم له الجديد، حينئذ وصلنا إلى"الوادي".

الوادي، هي مدينة الألف قبة، [3] نعم، إذا بقيت بها، ورغم سفرك، فان بعض الذكريات التي تربطك بأوروبا، وفي هذا الجو العائلي، يجعلك تنساها بسرعة، في هذا الحي المتفرد.

لا يوجد سطح مستو هنا، إلا القباب، بل هي قباب تكسو العمران بشكل ملفت للنظر، وتظهر في الأفق متعانقة مع الكثبان الرملية. هذه المنازل الضيقة، وذات الأزقة المتعرجة، التي تكتسحها الرمال، وعند التمعن في أحسنها، فهي مبنية بدون حجارة، بل شيدت بزهرة الرمال مثل تلك التي شاهدتها في الطريق، وهذا الجبس ذو الأصل الصواني، هو القوالب التي شيدت بها جدران المدينة. تلك الحجارة [4]

---

(1) يشير إلى إصابة الأعين بالأمراض، ويساهم الرمل والرياح العاتية في إضعاف البصر وينتهي بفقدانه عند فئة من السكان.

(2) **بيت العينين:** وهي مصحات فتحت في القرى، وتهتم بعلاج أمراض العينين من طرف ممرض، ويزورها الطبيب في بعض الأحيان.

(3) اسم أطلقته الصحفية الفرنسية، ايزابيل ايبرهاردت، عندما عاشت في سُوفْ في آخر القرن، فكانت تشاهد منظرا عجيبا للقباب التي تملأ سطوح المنازل، فقدرت بلغتها الشاعرية بأنها ألف قبة، مدللة على كثرتها.

(4) الحجارة التي يصنع منها المادة الأولية للبناء، تدعى " التافزة " أو " الصلصالة "وهي نوع من الجص الذي يحرق، ويدق، فيصير مثل الدقيق، ويعجن بالماء، فتبنى به القباب، وتشيد به الجدران والأقواس.

التي تعطي الكلس الضروري للبناء، وهي المادة الأولية التي لا تسبب في الرمال أي خلل.

أنت غير مضطر للإقامة في تلك البيوت الضيقة، فمدينة الوادي بها فنادق، ومكتب بريد، ومقهى، وإدارة، وهذا ما تبدأ به، ولكن تذهب للتجول في الأزقة والتأمل في سوق المدينة، أين؟ هي أرض عادية، يعرض فيها الجزار لحم الجمال الأحمر، ولحم الخرفان والذي يوضع بشكل متواضع، وكذلك خضروات المنطقة، التي تتواجد مع الأسماك المجففة والمستوردة من قابس. [1] وتذهب لمعاينة الخياطين وهم يبيعون حايك الحرير، [2] أو إحدى زرابي الوادي بصباغتها البسيطة، ورسومها الخشنة، والداكنة، وذات الألوان البيضاء والسوداء، المصنوعة من وبر الجمال، والصوف، وشعر الماعز. وتتجول حول الآبار التي بها الخطارة، [3] والتي تحدث صريرا مميزا في المنطقة، وحول المسجد بمئذنته الضخمة المربعة، [4]والتي اتخذت للتفرج عن

---

(1) يستورد السمك المجفف من تونس، ويدعى "الوزف".

(2) **حايك الحرير:** وهو الحولي، يشبه الفستان الواسع، وله أنواع ومنها الذي يصنع من الحرير، أو الصوف. إبراهيم العوامر، المرجع السابق، 86.

(3)**الخطارة:** وهي آلة ثلاثية الأطراف تقام حول البئر، وتتكون من ركيزتين خشبيتين من جذع النخلة، ولها عمود متحرك ممدود بين الركيزتين، تربط في مؤخرته حجارة ثقيلة تساعد على رفع الطرف الثاني الذي يعلق به دلو مصنوع من سعف النخيل يدعى "العمورة " ويشد بحبل متوسط الطول مصنوع من ليف النخلة. أنظر: علي غنابزية، المرجع السابق، ص 67.

(4) **مسجد سيدي سالم:** ويقع في سوق مدينة الوادي، وله منارة عالية تشرف على المنطقة بأسرها، ويقصدها السواح للتفرج عن المنظر الخلاب، وتوجد بئر بها خطارة، قرب المسجد، تستعمل للوضوء، والشرب.

المنظر المتميز في هذا البلد الفريد من نوعه، وتأمل منظر تراكم الكثبان في الجنوب، صوب المناظر الطبيعية وتعرف باسم (Fort-Flaters) [1] و(Bir-es-Çof) [2] وغدامس. [3]

وإذا كان لديك الوقت الكافي، فعرج على مدينة قمار، [4] لزيارة زاويتها الشهيرة، وحتى إلى الدبيلة، [5] وعميش [6] التي بها البدو، وعند اقتراب رحيلك، خذ المسلك والآن هو عائلي.

ربما تصاب بلفحة من الرياح الرملية، هذا السموم المزعج، كأنه من قصص المغامرات، وإذا كان خفيفا فهو العجاج الشتوي، والرياح عادة تذرو الرمال وتحركها في الكثبان، وتثير الغبار، ولا بد من إدارة

---

(1) **Fort-Flaters:** اسم أطلق على العقيد فلاتيرز الذي قتل عام 1881، من طرف السكان المحليين، وموقعه في واحة تيماسينين(حاليا إحدى بلديات ولاية اليزي)، على بعد 370 كلم جنوب حاسي مسعود، و 700 كلم شمال تمنراست، ويدعى حاليا برج عمر إدريس، وكان في القديم ملتقى طرق الحجيج والتجار لمختلف المدن الصحراوية والإفريقية.

(2) **Bir-es-Çof:** محطة في الطريق بين الوادي وغدامس في طريق القوافل، ويقع إلى الغرب من بير رومان.

(3) **غدامس:** مدينة ليبية تقع في الجزء الغربي منها. وتبعد 543 كيلومترً جنوب غرب العاصمة طرابلس. وغدامس هي عبارة عن واحة على الحدود التونسية والجزائرية، وتبعد عن مدينة الوادي نحو 500 كلم.

(4) قمار: وتقع شمال مدينة الوادي بنحو 15كلم، **وهي** المدينة الدينية، التي عرفت بعلمائها، وزاويتها التجانية العريقة، وهي أول زاوية أسست سنة 1207هـ/1789م، بأمر من الشيخ المؤسس أحمد التجاني. أنظر: بن سالم بلهادف: **سوف تاريخ وثقافة**، مطبعة الوليد، الوادي-الجزائر، مارس 2008، ص 86.

(5) الدبيلة: وتبتعد عن مدينة الوادي بنحو 20 كلم، في الشمال الشرقي، **وهي** المدينة التي أسسها الولي الصالح سيدي على بن خزان.

(6) عميش: وتقع جنوب الوادي، وتضم البياضة التي تبعد نحو 5 كلم، والرباح نحو 14 كلم، وتدعى القبلة.

الشاش[1] على رأسك، ويكون ظهرك منحن، وأنت تسير تحت هبوب تلك الرياح.

في المساء، وعند العشاء الخبز يتكسر بين أسنانك، وتشرع في تجميع أمتعتك، وتحضير حقيبتك، وتحمل بعض الرمل الذي تأخذه معك ذكرى لأصدقائك بعد عودتك لبلدك.

لا يوجد حبور وابتهاج بدون نهاية.

ستعود إلى تقرت، وقد تغيرت بشرتك إلى اللون الأسمر في غضون أسبوع هذه الرحلة، وستمنح آخر دعابة لمطيتك، لقد الفت هذا الجمل الذي عرفت قيمته، وصرت تعطف عليه، والذي لا يتعب ولا يتذمر، وان عربة المطعم في " القطار الأبيض" وحانات بسكرة، فلا تحتاج إلى علبة الطعام المفتوحة فوق الكثبان، أو كاس حليب العنزة، أو القهوة المائية للفرجان، [2]بعد مدة، عندئذ، الكآبة، التي تبحث عنها، وبعد إخراج الصور، والتي تبعث وتعيد لك ذكريات الساعات التي عشتها، واكتسبت تجربة. كتاباتك مثل صورك التي تزين هذا المقال، تكون مثمرة، وباهتة وبدون رونق، لأن الله، الرؤوف

(1) **الشاش:** هو اللفافة، أي العمامة، وهي قطعة قماش يلفها على رأسه، ويستعملها غطاء دائما، وهي شعارهم يومئذ، ولا يظهر الرجل حاسر الرأس، وهو ينافي العرف والمروءة.

(2) نظرة نقدية تهكمية، وإشادة بما يوجد في مدينة بسكرة، التي بها القطار الذي يسافر به نحو الشمال، وتوجد بها الحانات، والحليب، والقهوة التي فيها تركيز أحسن مما هو عند بدو الفرجان بوادي سوف.

الرحيم، والذي يمجد، لا يسمح للرومي أن يأخذ من الأرض شيئا من النور، من العرق الكبير، وشيئا من فضاء وأفق سوف. [1]

الكاتب: ريني فالي

(1) هكذا تمت الرحلة، ولم يذكر شيئا عن طريق الرجوع، لأنه رغم شدة الطبيعة، ومتاعب السفر، وقساوة الصحراء، وشساعة العرق وخطورته، فان الذكريات بقيت تقطر شوقا وتلهفا للمزيد من التمتع بالمناظر الطبيعية التي تحمل التواضع والبساطة، وعيش أهلها على السليقة.

الرحلة الثـانيـة
من الجنوب التونسي إلى سوف[1]
بقلم ريني تورنيول

أريد أن أبث إليكم مشاعري في الأفق الضيق، ضمن شساعة الصحراء، في بلد الرمال القرمزية " لا بد أن تتنفس هنا، وتنظر هنا، وتلم هنا، حتى تتعرف على الشدة التي يمكن أخذها لهذه الأعمال الآلية. . . تحفظ المخ عن التحضر والجسم والقلب يعود إلى الأصول المحسوسة، ثنائية الكائن، ثنائية الروح، الزمن المتباعد، الذي يوحد في هذا الجزء الحقير الذي نحن منه". هكذا عبرت ايزابيل ايبرهاردت[2] في بعض الصفحات عن حبها الشديد للصحراء.

أحب أن تتابعوني في رحلة طويلة والتي قمت بها برفقة شابة كاليفورنية، طالبة في الكيمياء، لقيتها في تونس، في بلد صغير من هذه الصحراء، بمظاهرها المختلفة، على الرغم من الأساطير، والتفسيرات التي نريد تبليغها، والتي سمعناها في تلك العزلة المطبقة، وهي جافة بالطبع، ولكن شكل أرضها يختلف عن المناطق الأخرى،

---

(1) Voir: Renée Tourniol: "Du Sud Tunisien au Souf ", **Revue Alegria** ,N°9, Nov1933.

(2)إيزابيل ايبرهاردت: ذات أصل روسي، ولدت في جنيف في 17 فيفري 1877، وقدمت مع أمها لمدينة عنابة، وسافرت بعد ذلك لمدينة الوادي يوم 4 أوت 1899، وغادرتها لتعود مرة ثانية يوم 4 أوت 1900، فأقامت بمسكن شعبي، واعتنقت الإسلام في زاوية الشيخ الهاشمي القادرية، وتعرضت لحادث اغتيال، ثم طردتها السلطات الاستعمارية يوم 18 جانفي 1901، فاتجهت إلى عين الصفراء، وتوفيت هناك يوم 21 أكتوبر 1904، وتركت عدة أعمال أدبية رائعة.

هنا الحمادة الحجرية، قاحلة، وهنا الأرض مغطاة ببعض النباتات المقاومة للجفاف، مما يجعل الجمل يبحث عن غذائه، حتى لقب بهذه المنطقة: المراعي. . . ؛ وإضافة لهذا الركام من الحشائش الإبرية والصلبة، فضلا عن الحيوان المحب لها.

لأول مرة إذا سمعت كلمة المراعي، تُنطق، تذكرت ما جهلته عن النورماندي، [1] لأنه غير مفيد أن أضيف ما يختلف عن مشابهه. . .

للمراقب في توزر شيخ القرية.

---

(1) **النورماندي:** مقاطعة فرنسية تقع في الشمال الغربي لفرنسا وتطل على بحر المانش.

(2) **نفطة:** من أبرز مدن الجريد بالجنوب التونسي، وتنتمي إلى ولاية توزر، ويحدها من الغرب حزوة المحاذية لوادي سوف، وتبعد نفطة عن مدينة الوادي بنحو 116 كلم، أو في حدود أربع مراحل على طريق القوافل.

(3) كان الدخول لمنطقة الجنوب في حاجة إلى ترخيص من السلطات، وتوصية لدى الشيوخ والأعيان الذين يرعون السياح، ويقوموا بحسن الضيافة والرعاية.

(4) **سي لمين:** هو محمد لمين بن لمام الشريف، ولد بالرباح عام 1888، وتولى شؤون الزاوية القادرية بالرباح بعد وفاة والده، واستمر بها إلى وقت وفاته سنة 1955. لقاء مع ابنه لمام بن لمين، في بيته بالوادي يوم 1997/06/25.

ـ تشكيلة القافلة:

اليوم المجدد للانطلاق، استيقظنا مبكرا، ولبسنا لباس الرياضة، وفي الأفق، كان السحاب الأبيض، ونحن ننتظر الجَمَّالة[1] الذين يحضرون في الساعة 6.30 ولا يحضرون الحيوانات إلا في الساعة الثامنة، المرحلة ستكون طويلة اليوم: 45 كيلومترا حتى نصل إلى أول محطة، برج ليهودي، الحيوانات تقدم أسوأ الخدمات، لأنها هزيلة، وهياكلها ضعيفة، [2]واختيرت من الأنواع العادية، في غضون ساعة، تكون المقاومة ضد جمود علي قائد القافلة، الرجل الأعرج الصغير، والآخر(الدليل) صَخْر، ليس هناك شيء سيبذل لشد الأمتعة، صندوق من زجاجات الماء، بعض القوت(الزاد) بعض الليمون(الليموناد) وأقراص من الخبز العربي، والشمع، ودون حساب الطرود الخاصة بالفنان الصباغ، نحن الأقل ضغطا، مرافقتي، التي تقوم بدورتها حول العالم، لا تصحب معها سوى حقيبة (**heureuse mortelle**) وزوج واحد من الأحذية، وتستعمل في نفس الوقت، في الصباح حذاء للمشي، وحذاء المساء للعدو، ولشراء الحبال، ولكن المصادفة، هي كلام امرأة ؟ ونحن نتأسف لغياب التأثير الرجالي.

---

(1) **الجمَّالة:** هم أفراد القافلة الذين يسوسون الجمال، ويقودون القافلة، ويعرفون المسالك والسبل أثناء الرحلة.

(2) اختار أصحاب الرحلة القافلة المتجهة نحو وادي سوف، وكانت الجمال ضعيفة، على حد تعبير الكاتب.

وإننا الآن في وضعية ننتظر فيها الانطلاق، والهيئة تكون بانفراج الساقين عند الركوب، ويصاحبها رد فعل نحو الأمام: ينهض الحيوان، يبسط قوائمه الخلفية الطويلة، ويقف على الركبتين، والثالثة أكثر ليونة، ثم يقوم عليها جميعا، ويسير في الطريق.

مرافقتي بالرغم مما تراه في تجربتها في هذا السفر، قالت لي: أنها : أكثر راحة وفي أي وضعية تكون عليها في تلك الأيام الأربعة، هذه الجملة طرقت أذني " إنني دائما في راحة كبيرة".

وتجوالنا السابق تم بالمهاري في رحله، وسرج التوارق والشعانبة، [1] وشد في مقدمة سنام الجمل، الرِّجل توضع فوق الظهر والعنق، لتضغط بقوة، وأنا أفضل هذا الركوب عن غيره، طبعا فان الحاجة تدعوا إلى المزيد من التمرن على الفروسية، والتوازن جيد ولكنه غير ثابت. [2]

وقريبا، هاهو شط الجريد[3] في يسارنا، فنزلنا في منخفض جاف، والأرض تفرقع تحت أقدامنا، وبعد، إنها رتابة الأرض، رمل متصلب، وبعض النباتات التي تحمل أوراقها أشكالا ابريه (شوكية).

---

(1) **السرج:** هو يثبت على ظهر الحيوان بروابط خاصة. وأكثر الأنواع انتشارا هو سرج الخيل، وصمم لاعتلاء صهوة الجواد. ولكن تم تصميم سروج خاصة بالإبل. وأقدم السروج وجد عام 800 ق م وهو عبارة عن وسائد محشوة يربطها إطار بسيط يلتف حول جسم الحيوان .

(2) يشرح طريقة الركوب، وكيفية قيادة الجمل، ومدى تحكمه في الحيوان الذي يحتاج إلى تجربة وتدريب على قيادته.

(3) هو شط يقع في الصحراء التونسية، وهو يمتد من مدينة قبلي شرقًا إلى مدينة حزوة غربًا، ويبلغ عرضه الأقصى 120 كم، ويقطعه المسافر المتجه من نفطة إلى وادي سوف.

ولما حل منتصف النهار، صارت المعدة فارغة، وبسبب الإهمال لم نضع المؤونة في الحمل القريب الذي يكون في متناول أيدينا، فالتفكير في فك الأمتعة المحكمة بشدة، فيه تعب كبير حتى نتمكن من تناول وجبة الطعام، وبالنسبة للفتاة الكاليفورنية، فالسيجارة التي تتناولها بدون انقطاع، تنوب عن كل شيء.

- الوصول إلى برج ليهودي:

الأرض لا تختلف، الشمس تميل نحو الغروب في وقت ساحر يمكن تصويره، أما قرص القمر فقد صار دليلنا في الطريق، سبع ساعات، وبرج ليهودي سيظهر؟ نظرت إلى أربع جدران من الطوب، ونظر إليه أصحابي وهو لا يزال بعيدا، ولكن الأمر يحتاج إلى ساعة من الزمن حتى نعاينه ونعرف حقيقته، وهو عبارة عن ركام بناء مربع الشكل، تعلوه قبتان أو ثلاث، له بوابة خشبية، عالية وعريضة، تتصل بفسحة داخلية، بها مجموعة من المرابط[1] الخاصة بالأحصنة، وتكون الحيوانات متراصة بداخلها، ويوجد مكان إقامة الحارس، وآخر مخصص للضيوف من المسافرين، أدخلونا إلى غرفة بها بعض

(1) **المرابط:** مفردها مربط، أو مربض، وهي المكان المخصص لربض الدواب وربطها بالوثاق، وتمييزها عن الناس، وكانت منتشرة في البيوت، وأماكن إقامة السكان.

العرب[1] يتحدثون، ويدخنون، ويحتسون الشاي، والغرفة مضاءة فقط بضوء النار المنبعثة من خشب داخل مدفأة للأوربيين. [2]

عند دخولنا ساد المكان بعض الدهشة، وبالجوار منا، توجد غرفة أخرى ذات أرض إسمنتية، [3] مضاءة في كوة، ومغلقة بمصراع، حيث سدت الفرج بأوراق، وكان الريح يُصَفّر، ويحمل الرمل، وأما الأثاث المتواجد، فهو، طاولة عريضة، ومقعد صغير، ومشجب لتعليق الألبسة، تلك هي الغرفة التي سكناها، ويوجد حارس كبير عند باب الغرفة، في الليل، عند عزمنا على الخروج، نأخذ منه الإذن، فيخبرنا بإمكانية الخروج بأمان. [4]

ولن أتأخر عن الإشارة إلى نقيب المكتب العربي بالوادي، [5] بان هذه الغرف يمكن أن تخصص وتحجز للأوربيين، ولكن الأمر نادر، فالحارس لا يزعجنا في السكن.

---

(1) يعني بالعرب المرافقين له من الأهالي من سكان وادي سوف.

(2) **المدفأة التقليدية:** التي تشيد في الحائط، وبها كوة تحشى بالحطب، وبها مدخنة يتسرب منها الدخان نحو الأعلى، حتى يتجنب أهل الدار الموت المحقق من الغاز الكاربوني.

(3) لم يكن الاسمنت من خصائص البناء بوادي سوف، بل هو مستورد من طرف الفرنسيين الذين عملوا على تطوير البناء، وجلب المواد الأكثر مقاومة لعوامل الطبيعة.

(4) لم تكن المنطقة آمنة، ويقتضي الحال تأمين المسافرين في الليل خوفا من الهجوم المباغت من قطاع الطريق، واللصوص الذي يجوبون العرق الشرقي بحرية، وبدون خوف، ويباغتون كل غافل ويسلبوا ما عنده من مال ومتاع، وإذا قاومهم يقتلوه بدون شفقة.

(5) هذه أنانية السائح الفرنسي، الذي لا يريد للجزائريين أن يستفيدوا من الخدمات البسيطة، ولو كان الإقامة المؤقتة في هذا البرج، رغم تقديم خدماتهم له في الرحلة.

الجمال التي أفرغت من حمولتها، أدخلت إلى الحوش، [1]والأمتعة وضعت في نفس الغرفة، إنها اللحظة الحلم التي نجمع فيها الغسل من سطل من الماء، ويحسب الأمر، لأنه لا بد من الغَرْفِ بكمية كافية،[2] وهو بعيد. في كل هذه الرحلة يستحيل (في غياب الأبواب والسوائل) أن تؤدي النظافة الكاملة في مرحاض يفتقدها، وذلك شاق جدا. [3]

تعودنا النوم في الكثبان، ولسنا نعاني من انعدام الرفاهية، وندرة الطعام، فقد تحملنا تلك المراحل الصعبة، وقدمنا تضحية كبيرة من أجل تحقيق الهناء.

ونتخيل أن نتعشى بالمعلبات والبيض، والشاي المعد من طرف علي، وقد أغلقت الباب بالصندوق المائي، ثم إن كلا منا حسب إرادته، فمرافقتي كانت فوق الأرض، وأنا فوق الطاولة، المهم أن نستلقي ونتمدد. وبجانبنا كان الضجيج الذي يصم الآذان من جراء شدة الكلام. ونحن نعلم أن العرب بإمكانهم قضاء الليل كله قرب المدفأة، وحينئذ طلبت منهم الهدوء لأننا في حاجة إلى الراحة من أجل استرجاع قوتنا.

---

(1) **الحوش:** هو الساحة داخل مبنى البرج.

(2) يشير إلى قلة الماء الذي يجب المحافظة عليه، واستعماله في محله، والاقتصاد قدر الإمكان لأنه يجلب من البئر ويتطلب جهدا وتعبا إذا كانت البئر بعيدة عن العمران.

(3) لم تكن الحالة مهيأة كما يريد هذا السائح الرحالة، فالحياة يغلب عليها البساطة، ويطغى عليها طابع البداوة، وكل شيء عزيز ونادر، سواء الماء أو الغذاء.

ورغم الرياح العاصفة، وصلابة الفراش، فقد قضيت ليلة جيدة. استيقظت مبكرا على الساعة السادسة والنصف، الشروع في الترتيب العام، الاغتسال المحدود، وتناول بعض الطعام، والقهوة؛ والخروج لاستنشاق هواء الصباح المنعش. كان البرج مبلل الأرض، والذي أضفى على المكان حيوية؛ وقد انقشع السحاب، وسوف نمضي على الأرجل، في درب سطرته آثار القوافل المتتابعة، لأن لنا الوقت الكافي لتحريك أرجلنا.

الأرض ترتبط بنواة الكثبان الرملية. في الساعة التاسعة الشمس تبعث الحياة في الصحراء، وقمنا بتوقف قصير عند باقة من نبات الديس، [1] وإن علبة المربى كانت كافية لطعامنا.

إن الحياة في الصحراء تمنحك ألف شيء له الكثير من الدلالات، ولكن في هذا الجزء المعزول ما يدعوا إلى الاهتمام، أننا اكتشفنا أقل شيء في هذه الأرض؛ وفي بعض الأحيان يفتر الذهن، ويعجز عن بذل كل قواه. . . انه نسيان كل شيء، فما علينا إلا المضي، والمسير. . . وتمر علينا ساعات صعبة، مثل السفر السابق ذكره، ونتأمل في صورة المخازني، [2] والمظهر الحسن للمهاري[3] التي يقتنونها، وهذا

(1)**الديس:** نوع من النبات من الفصيلة السعدية، ويضم حولي 120 نوعا، وينتشر في بلاد الشام ومصر والمغرب العربي، وحوض المتوسط، وتصنع منه الحصر.

(2)**المخازني:** وهو المجند من القناصة، والمحاربين في صفوف المخزن الصحراوي، التابع لقوات المهاريست، الذين يمتطون الجمال(المهاري). ويطلق على بعضهم اسم الدوايز.

(3)**المهاري:** مفردها مهري، وهو الجمل.

كاف لروحي، ومشهد الحياة الحالية تجلب بعض الاهتمام، في مختلف الساعات يُقرأ القرآن، [1] فالعرب هنا، مثلما هو في المدينة لا يهملون صلاتهم وركوعهم المستمر، والمتبوع بسجودهم على الأرض بجباههم المغبرة، [2] وماء الوضوء يستبدل بالرمل عند غيابه، وهو الذي يُمسح به الوجه واليدين والأرجل، [3] ومشهد آخر وهو السراب الذي يخيب أمل المسافر المتعب والعطشان، وهو هنا نادر، لقد رأيت الأكثر تحديدا أو الأكثر دهشة في الحضنة[4] عند ذهابي إلى بوسعادة. [5] في الرابعة والنصف وعلى النتوء الرملي المحيط ببعض النباتات يظهر برج العادل وله شبه كبير بالذي سبقه، المرحلة لم تكن سوى 30 كيلومترا.

(1)رغم خدمتهم في الجيش الفرنسي، فهم يقرؤون القرآن، وتأثر بهم السائح الفرنسي، ووصفهم بتمسكهم الشديد بالمظاهر الدينية.

(2) ولكنها الوجوه الطاهرة، التي يزيدها السجود تواضعا، وتكون الصلاة سمة على رفعتهم. كما قال تعالى (**سيماهم في وجوههم من أثر السجود**) سورة الفتح الآية 29.

(3) أخطأ في إضافة الأرجل للمسح في التيمم، وهو يقيس ذلك على الوضوء، والتيمم يقتصر على الوجه واليدين.

(4)**الحضنة:** إقليم في الجزائر الشمالية، يمتد في سهل الحضنة، وقاعدته مدينة المسيلة، وأسست به دولة الحماديين، وقلعتها معلما تاريخيا خالدا.

(5) **بوسعادة:** مدينة تبعد عن الجزائر العاصمة بنحو 242 كلم جنوبا، وتدعى مدينة السعادة، ومدينة العظماء، وبوابة الصحراء، وكانت مقصد السواح الأوروبيين، يأتونها للراحة والاستجمام.

ـ إعداد خبـز الملة:

لقد خيم الليل، وظهر القمر بكل وضوح ولكن بلونه الشاحب، وعلى ضوء نار الجمر اللاهب من النباتات الجافة والقاسية، والمتواجدة بالصحراء، صنع رجال قافلتنا. . الخبز.

أنا لا اعرف أيهما أجمل ـ مع هذا التناقض ـ لهذين الضوءين، وهذه المجموعة من الألوان الزاهية، عندما تسطع على برانيسهم وعمائمهم المُزْرَقَّة والتي تصير في النهاية، دقيقة وخافتة(حتى إن كل فنان يصير بعينين مختلفتين) ويختلط ذلك مع ضوء النار.

جلد الماعز الذي فرش على الأرض، [1] وكذلك العجين، والذي يتكون من دقيق الشعير، والماء، والملح، كله لعجن الخبز الدائري، يبلغ سمكه نحو أصبعين، تحفر في الرمل حفرة عمقها نحو 40 سم تقريبا، وصار الجمر اشد التهابا في الموقد، الذي شكل الموضع الذي بسطت فوقه الخبزة من طرف الطاهي المدعو علي، وثانية خمد الفحم، وأضحى اقل احمرارا، وتم تغطية الخبزة، ودفنت بالرمل الساخن، وحينها صِحْتُ بأن الخبزة سوف تحترق"سترين سيدتي انتظري"[2]

---

(1) **الرقعة:** وهو الجلد الذي يهيأ كفراش يبسط، ويعجن عليه.

(2) الخطاب موجه من الطاهي المخزني علي، إلى الفتاة الكاليفورنية التي خافت على الخبزة من الاحتراق، فطمأنها المخزني لأنها ليست المرة الأولى التي يطهى فيها الخبز بهذه الكيفية، بل هي العادة السائرة، والتقليد الدائم في المجتمع الصحراوي.

وبعد نحو نصف ساعة حفر علي واخرج خبزة ذهبية اللون، [1]والتي يمكن رؤيتها ولها بعض البريق، ولما ذقناها وجدناها شهية الطعم.

استيقظنا في اليوم الموالي في الصباح الباكر، وبدا لنا اليوم جيدا، ليس هناك أي صفير للرياح، النباتات صارت أكثر ندرة، لقد اقتربنا من منطقة سُوفْ، فهذا احد الكثبان الذي تسلقناه بأرجلنا، وكل ما هو حولنا موجات مؤقتة ولكن مظاهرها تختلف حسب الرياح.

رأيت كالفورنيتي تنظر قبعتها، وسحنتها القرمزية المتغيرة، وشعرها يتموج في الريح، واذرعها مشمرة، السيقان شدت بعصابات من الصوف، زوج حذائها الوحيد، تحول إلى شكل شبيه بالسفن الشراعية، [2] والسيجارة بين شفتيها، ذهبت، بكل حماسة، لتصوير الأشياء البعيدة بشكل مفرط. [3]

- قريةحاسي خليفة:

لقد تغيرت التربة، منخفضات رطبة، وأسرة بعض الأودية، وبلا شك، والتي توجد بها زهرات الرمال التي ينبعث بريقها، وفي بعض الأحيان هي نموذج ذو شكل جميل، وبعد ذلك، وفي حدود منتصف النهار، في الأفق تراءت زمرة كثيفة ومتداخلة في محيطها، إنها أول

---

(1) **خبزة الملة:** أو كسرة الملة، وهي نوع من الرخساس الذي يدفن في التراب الساخن (الرماد الحار)، والذي يدعى الملي، ويوضع في وسط الخبزة اللحم أو الشحم والفلفل وغير ذلك. أنظر: إبراهيم العوامر: الصروف، ص 79.

(2) صار الحذاء معوجا وانثنى في شكل مقعر، بفعل المشي وطبيعة الأرض.

(3) نلاحظ شدة الاهتمام بالصورة التي توثق الأحداث، وتحفظ الذكريات.

غابة نخل : حاسي خليفة[1] على بعد 10 كلم من بلدة الدبيلة التي أقمنا بها هذا المساء.

انظر إلى أول قميرة كبيرة، بناء مكعب، فوق بعضه البعض، ينتهي بشكل مخروطي، حيث تم تكديس الحجارة الضخمة، وهي نقطة إشارية في هذه المنطقة التي لا يوجد بها الطريق، لأن الرمال تكتسح كل شيء، توقفنا قليلا لتناول بعض الطعام.

ها هي القرية ظهرت بلون بنائها الغريب والخشن، بها القباب، وعددها معتبر، وهي تتقارب الواحدة تلو الأخرى، حتى تقلل من حرارة الشمس داخل البيوت، والطوب الذي بنيت به، لونه أشهب وقديم، ومعتم، ونظرة الفنان ليست تامة، وكثير من هذه القرى بني بالزهر الرملي البراق[2] والذي شد إلى بعضه بواسطة الكلس[3].

حاسي خليفة: قرية بها نحو ألف ساكن، الحرارة كانت قوية، مرافقي التجئوا إلى بعض أصحابهم بعد دق الباب، وشربت كأسي من الشاي بلذة، ثم تمددت تحت النخيل.

---

(1) **حاسي خليفة:** هي أول القرى التي يدخلها السائح القادم من تونس، وتبعد عن مدينة الوادي بنحو 29 كلم.

(2) يعرف في المنطقة باسم حجر اللوس.

(3) ويعني مادة الجبس وهي المادة الأولية في وادي سوف والتي تعوض الاسمنت.

- وصف فرقة العرس في الدبيلة:

بعد ساعة، حضر الجميع، واستأنفنا رحلتنا، صادفنا اثنان أو ثلاثة غيطان، الجديد، هي التموجات الشقراء، [1] ولحقنا بفرقة موسيقية صغيرة كانت متجهة نحو الدبيلة لحضور حفلة العرس، والعازف على آلة الغيطة[2]- وهي نوع من المزمار - تنتفخ وجنتيه بسبب النفخ، ويصحبها سرعة الإيقاع، وتضرب معها الدربوكة، [3]وحينئذ دخلنا إلى قرية الدبيلة، وهي ثاني قرية ندخلها، وهي أكثر أهمية من سابقتها، وشاهدنا في بيوتها خراب، وآثار بناء قديم، فتجمعت ركامات بسبب الهدم الذي أصابها، إنها الأمطار التي أحدثت ذلك، وحولتها إلى مثل قطع السكر المكسرة. . . وتبعنا الأشخاص، إننا نبحث عن منزل القايد[4] حتى نسلمه رسالة التوصية، سلكنا أحد الشوارع، ونحن نسمع

---

(1) الأرض عديمة الاستواء، وبها منخفضات، وتليها أماكن مرتفعة، ولون رمالها ما بين الأحمر والأصفر.

(2) **الغيطة:** تعتبر من الآلات الموسيقية الشعبية، التي يستعملها الشباب دون النساء، وتمتاز بسرعة الإيقاع بشكل عنيف، وهي تشبه الزرنة، وظهرت في طبرق الليبية في حدود القرن 17، ولعلها تسربت لوادي سوف عبر غدامس المتاخمة للمنطقة.

(3) **الدربوكة:** تعتبر من الآلات الموسيقية العربية، الإيقاعية، وتتكون من جسم شبه اسطواني من الفخار، وشدت عليه قطعة من الجلد وأهمه جلد الماعز أو الضان، وتعرف بأسماء أخري، فتسمى في العراق بالدنبك، وفي سوريا بالدربكة، وفي مصر بالطبلة أو الدربوكة، وكذلك في الجزائر، ولعله يقصد آلة "البندير "بوادي سوف.

(4) **القايد:** استعانت فرنسا في تسيير شؤون القرى والقبائل برؤساء من الأهالي يدعى احدهم القايد، أو الآغا، وتتم ترقيته إلى مرتبة أعلى وهي (الباشاغا) أو قايد القياد. أنظر: علي غنابزية: **مجتمع وادي سوف من الاحتلال الفرنسي إلى بداية الثورة التحريرية 1882-1954م** " (رسالة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر(مخ) تحت إشراف الدكتور عمر بن خروف، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، نوقشت 27 (ماي 2009)، ص 130.

لضرب البارود، من قبل مجموعة من العرب، وقفوا في سطر واحد، وهم يضربون بالقاربيلة. [1]

القايد سي صحية(كذا) كان غائبا، ولكن ابنة البالغ نحو الثلاثين، استقبلنا في غرفة حسنة في العموم، لها أرضية محفورة، وبها أشياء قديمة، وبعض الأثاث الأوربي، وورق قديم يعلوه الغبار وضع فوق المكتب، هنا يجتمع أعضاء الجماعة[2]والمجلس البلدي، القايد دوره، هو حاكم البلدة، ورئيس البلدية.

في انتظار الشاي، توزعنا، تقدم الدايرة، [3] هو رجل الأمن، أو الدركي، أو الخادم، تقدمنا في السير، كان الدايرة سي لخضر بعمامته الواسعة المرتفعة، والمحاطة بخيط من وبر الجمال، ويرتدي برنسا أزرق اللون، واسع الأطراف، وقديم، وبه وسام السلطة. . ذهبنا إلى البرج، [4]وحينئذ تبعنا جمهور من الناس، وفي مقدمتهم الأطفال، تبعونا ودخلوا بدون حرج، وفي المقابل في الغرفة الرحبة المخصصة لنا، بها

(1) **القاربيلة:** آلة لضرب البارود في الاحتفالات الشعبية فقط، وهي نوع من البندقية، لها ماسورة واسعة، ومؤخرة سميكة، ولعل اسمها اشتق من اسم البندقية الفرنسي (**carabine**) تحشى الماسورة بالبارود، وتدق بسلك، وتحدث صوتا مزعجا، ودويا قويا.

(2)**الجماعة:** يوجد في كل قبيلة جماعة ترجع إليها الكلمة الأخيرة في شؤون القبيلة، ويتكون مجلسها من مجموعة من أصحاب النفوذ في القبيلة وهم الأعيان والوجهاء. أنظر: علي غنابزية، المرجع السابق، ص ص 129-130.

(3)**الدايرة:** ويقوم بتنظيم العلاقات داخل إدارة القايد، ويشبهه الشاوش، ويشرف على الخدمات التي ترتبط بسكان القبيلة.

(4)**البرج:** ويعني هنا مركز القيادة، ومقر الإدارة الأهلية، وليس برج القوافل السابق الذكر.

زربية، و جلب لنا فراش، أوه ! مريح !في ذلك الوسط العام، ينبغي كنس أدوات الغسيل، والمعلبات. . . إلخ، [1] نوع من الحرية صارت ضرورة لنا؛طلبت من لخضر، وبإصرار، إخراجها ووضعها أمام الباب.

عندما خرجنا كان، الجو منعشا، والشمس هبطت نحو الغروب، قمنا بزيارة للقرية في رفقة لخضر، وكانت جماعة تتبعنا، بعض الكلام تغير بين الدايرة والضيوف، عند الوصول إلى باب الدخول إلى رحاب المنزل، نحن الآن في مكان فسيح ومُسَوَّر، وحينئذ ظهر أهل البيت، وهن مجموعة من النساء بغطاء الرأس، [2]الخمار، وبعض الحلي، واللون الأسود غالب عليهن، وفي بعض الأحيان، بعض الأكمام من القماش بألوان مختلفة، لقد كانت هيئة دخولنا مذهلة بالنسبة إليهن، والذي أضفى بعض الرهبة، ولكن شيئا فشيئا بعض النساء جرين وتقدمنا نحونا، وهن أكثر جمالا مما هو في تونس، أعينهن جميلة، ما لاحظناه أنهن من بقايا الجنس العربي التونسي، أي الأحفاد، ميزتهن في الجزائر، نجد مجوعة أكثر جمالا، في المغرب، وهن منقبات. وبعد الرجوع إلى البرج.

(1) لم يكن المكان نظيفا، ولم يهيأ لاستقبال الضيوف، ويتعامل المسؤول بعفوية ولم يقدر الأمر حق قدره.

(2) الظاهر أنهن من الشابات اليافعات، وتدعى الواحدة "صوبية" وتحجب في البيت عند بلوغها، وتنتظر الزواج الذي يكون مبكرا، وسبب ظهورهن لمقابلة الشابة الكاليفورنية فقط، وهو نوع من الترحيب الضروري، والاحترام المتبادل.

وأخيرا وحيدا! كانت صدمة عند الباب، سي لخضر تقدم نحونا وقال لنا: " الخليفة (إنه مساعد القايد) يدعوكم إلى القاعة المجاورة لحضور مراسم الحفل الذي أقيم على شرفكم". يستحيل رفض دعوة الأحبة، في تلك المجموعة كنت سعيدا.

في قاعة مقوسة وكبيرة، ساباط، مصباحي اسيتلين، وجلس القرفصاء نحو مائة عربي، أخذنا مكاننا فوق بنك قرب الخليفة سي لصم (كذا)، والذي رحب بنا بفرنسيته التي يحاول أن تكون سليمة. وفي الواجهة المقابلة لنا، بدأت الفرقة الموسيقية حفلها بصوت خافت، وصداها تحت القبة جهيرا ومحيرا، ورجل اسود من عمر معين، وقد شد المنديل على خاصرته، حتى يوقع حركات الرقص مع العزف الموسيقي، ومثله فعلت امرأة متميزة، بوجهها الذي يرشح بالعرق، هي تطلب العفو.

نحن نصفق بين المشاهد، كلما سنح الحال، حتى نعبر عن امتناننا وفرحنا بالحفل المنظم من قبل الخليفة، وفي ذلك عند بعض الهدوء، كلام يلقى، وتحية لهؤلاء، وهم يقولون لنا هل نحن سعداء: " كنا نظن أن الأمسية ستكون محزنة لكم، وهنا فنحن ليس لنا نوعا آخر من التسلية " أضاف سي لصم.

حقا، ما هي الفكرة المتميزة التي ستؤخذ عنا، كل الأوربيين الذين يلقون نظرة على هذا التجمع البشري، تحيط بنا امرأتان[1] من جنس مختلف، بعيد عما هو عائلي! شعرنا بالأمان والرعاية والاحترام.

في الغد، انطلقنا على التاسعة، وعلى الأرجل، عشرون كيلومترا تفصلنا عن الوادي، وقد رافقنا سي لخضر، وهو يحمل زجاجة لبن، والتي يريد تقديمها. . . ؛وأن نشرب بعض الجرعات.

في أعلى إحدى الكثبان المطل على الدبيلة المضيافة، قمنا بتصويره مع ابنه، قرب آخر مجموعة من النخيل، وهو أحد الانديجان الصغار ثابت، راكب فوق بغل ابيض اللون فخم الجسم، وظهر فارس لتقديم آخر تحية لضيوف المسير. . . بقوة التخيل؛ شاعر! أسرع نحونا و. . . . . كل أوهامنا تبددت، عندما طلب فجأة (دورو) [2] واتجهنا للحاق بالجماعة الصغيرة التي سايرناها في الصباح، أحد الأحمرة الصغيرة، [3] اسمر اللون فاتحا، يركبه صبي، ويتبعه وصيف؛ وهو يجري وراءه.

وبعيدا عنا، بل أمامنا، صورة لظل جسمين معتمين، [4] هن نسوة يمشين وحدهن في الصحراء؟ لكن، نعم، هن راجعات إلى بلدة البهيمة للعرس، موكبنا يتزايد ببركة وسوسية[5] هن كثيرات الثرثرة

(1) ويعني بهما الكاليفورنية الأجنبية، والمرأة التي ترقص في الحفل الساهر.

(2) **الدورو:** هي العملة الفرنسية، ويبلغ الدورو 5 فرنك.

(3) الأحمرة والبغال هي الوسيلة المستعملة في التنقل، وتستغل في الأشغال، ويمتلكها الشخص الموسر.

(4) لا يظهر من النساء شيئا، لأن الحجاب الذي يرتدى يغطي كل شيء، ويظهر الجسم معتما خفيا.

(5) اسم ربكة والثانية ساسية أسماء نساء.

بشيء من الفزع، خاصة في بلد يتنقل فيه القليل من الأوربيات.
تقريبا دائما إلى الأمام نسير بدوابنا، هذا الموكب المتواضع بحيويته ونشاطه يستهويني، وأريد وضعه في "مخطط" لكن التأرجح فوق جملي، لا يسمح لي بذلك مطلقا.
على بعد 6 كلم، هذه هي البهيمة التي لم تكن ذكرى أبدا، قرية حزينة من سوف، [1] تسبق منطقة الكثبان العالية التي اكتسبت شهرة باستقبالها لحدث جرح ايزابيل[2] ايبرهاردت. [3]
وبعد ذلك هذا العرق، إنه بحر الرمال المزعج الذي لا يمكن إعطاء فكرة عنه، الدواب تنسحب مستأنفة، قررنا أن نساعدها لكن الأرض تغوص الأقدام فيها أكثر فأكثر، فيصبح المشي على الأرجل أكثر صعوبة، أما بالنسبة للجمل، فينبغي أن تكون عارفا بالألعاب البهلوانية حتى تتمكن من البقاء على سرجه خاصة عندما يتوقف للهبوط، يكون الخوف أولا، ثم يهتز عندما ينحني للنزول أرضا، في

(1) يعني قرية فقيرة، ومتواضعة.
(2) خرجت ايزابيل في توديع الشيخ الهاشمي إلى توزر يوم 21 جانفي 1901، ووصلت معه إلى بلدة البهيمة(14 كلم شمال شرق سوف) وبينما كان الشيخ متوقفا بزاوية البهيمة القادرية، وإيزابيل في غرفة مفتوحة للخارج، دخل عليها أحد السكان واستدرجها في الكلام لتقرأ له برقية، ثم غافلها وأهوى على رأسها بسيف كان معه، ولكن حال دون رأسها وجود حبل تلقى عنها تلك الضربة، بينما جرحتها الضربة الثانية. أنظر: علي غنابزية مجتمع وادي سوف، المرجع السابق، ص 104.
(3) وسببت لها إعاقة في يدها مستقبلا، وحملت إلى مستشفى الوادي، وعالجها الدكتور الفرنسي(Taste) وخرجت منه في 25 فيفري 1901، لتغادر وادي سوف مجبرة. C. Ferry: " Isabelle Eberhardt et le Souf ",(**B L S**) N: 3. Fev1951. P 38-39.

هذه اللحظة ارتجف أكثر بالنسبة لمتاعي، لأن الآخرين لم يقاوموا والكل مسه الاهتزاز.

أما الكثبان العالية ! الانطباع حولها لا ينسى، ويجب أن نتوفر ريشة رسم أخرى، وتكون مختلفة عن ريشتي، حتى نعطيها حقها ومكانها في الوصف.

أما الشمس فكانت عمودية، فلم يبق أي أثر للظل، والساعة حينئذ، الحادية عشرة، السماء ليست باللون الأزرق كما تتخيلون، بل هي لازوردية ممدودة، وهي تشكل مع الكثيب الجمال والانسجام، بالرغم من اتصالها بالكثيب وقمته، [1] وهو يكتسي ـ مع الاختلاف ـ مقام الكادميوم (**Cadmium**) [2] الأكثر صمودا.

وفي هذا التعاقب للموجات الشقراء الثابتة، وعديمة الظل، وتحت الشمس، تدفع تأثير ذلك الضوء الساطع. يجب العودة على الأرجل لكل منا لنتذكر علو الكثبان وانخفاضاتها الموالية، إنها الوحدة أو الوحشة التي تفوق أي مكان آخر، وهذا الصمت القاتل، ولا يوجد مقابل ذلك ولو مظهرا واحدا للاخضرار. كنا مجبورين أحيانا، بتتبع الانحدارات الأكثر صلابة، والدوران حول الكثبان، لقد بقيت نحو 20 كلم[3] نقطعها في رحلتنا، ومن المستحيل اخذ قسط من الراحة أو تناول الأكل في هذه الحرارة

(1) يظهر هذا المنظر في تلاقي السحاب مع الكثبان في الأفق البعيد عن الأعين.

(2) **الكادميوم:** عنصر فلزي لين وقابل للسحب، لونه ازرق يميل إلى البياض ويوجد مع النحاس والزنك وخامات الذهب. .

(3) المسافة اقل من 15 كلم، ويظهر عدم تركيزه في الأعداد والمسافات.

العالية، وبعد ذلك هبت الريح، وبدأ الرمل في التطاير والدوران، قريبا من التموج، وأصبح الجو خانقا أكثر فأكثر، وفي الأفق، السماء شاحبة وتوحي بحالة مقلقة.

ساعتان من المشي بقيت يقول صخر، لكن الطبيعة تزينت بباقات من الديس والدرين، [1] والحفر العملاقة حمت بعض النخيل، هذه الحدائق، أصبحت كثيرة جدا، والكثبان لها حواجز وقواطع، وبها أغصان الجريد المغروسة هناك، [2] والمترامية لتمنع هبوط قمم الكثبان على الحرث، [3] لأن كل حوض يحمي حديقة بقلية خضراء وتسقى بالاعتماد على الآبار المزودة بآلة الخطارة. استعير ـ مرة أخرى ـ ريشة ايزابيل ايبرهاردت البليغة لتعبر لكم أحسن مني عن هذا البلد الذي عاشت فيه زمنا معينا.

" الحدائق في سوف هي حفر كبيرة محفورة بأيدي الإنسان بين الكثبان بعمق متغير حسب درجة عمق الطبقة المائية الباطنية. هندسة

---

(1) **الدرين:** هو نبات الحلفاء، هو النبات الجاف، يتعدى المتر طولا، وتنتهي أوراقه الرقيقة بإبرة حادة، وهو نبات ينمو طول العام، ويزهر في أواخر فصل الربيع، وهو من أهم النباتات الرعوية للماشية. أنظر: حليس يوسف: **الموسوعة النباتية لمنطقة سوف**، النباتات الصحراوية الشائعة في منطقة العرق الشرقي. دار الوليد، الوادي-الجزائر، نوفمبر 2007، ص ص 126-127.

(2) يقصد "الزرب" وهو حزام من الجريد يغرس فوق قمم الكثبان وفي أطرافها لمقاومة الرمال، أنظر: علي غنابزية، تحدي الإنسان للرمال، المرجع السابق.

(3) **الحرث:** ويدعى أيضا " لفلاحة " أو " الجنان "، ويخصص للزراعة المعاشية العائلية، ومساحة الحرث تتراوح ما بين 50 إلى 80 م2 ويكون في ناحية الغوط ويحاط بزرب من الجريد، ولابد أن يتوفر هذا الحرث على عدة متطلبات ضرورية لخدمة هذه الزراعة وهي البئر والخطارة، والماجن(حوض الماء) والسواقي التي تؤدي الماء إلى الميزاب (وهو الحوض المحاط بالجريد ويتم الزرع بداخله). أنظر: علي غنابزية: مجتمع وادي سوف، (ماجستير) المرجع السابق، ص 67.

هذه الحدائق المحفورة غريبة نوعا ما، من جهة، يقومون بالانحدار سهل البلوغ، وهنا نتواجد الآبار المهيكلة بجذوع النخل بخطارة وثقالة، وفي احد أطرافها حجرة كبيرة معلقة بحبل، والطرف الآخر به عمورة[1] من الجلد خارجة بسلة منبسطة معلقة في آخر الحبل، وفي محيط الآبار تُرى الأراضي الخضراء البقلية، والنخيل الفتي المنخفض، أما الأصناف العالية فتوجد نحو الأسوار الرملية العمودية المقابلة للآبار، والتي غرس في قممها الجريد اليابس الذي يمنعها من الترمل.

" بلد لا شبيه له: في الصيف: الليل، أُذْن المسافر تلقت الصوت الكبير، انه الأنين الخافت الذي أبدع غيطانا لا تحصى، إنهم العمال السوافة الذين يخرجون الرمل من الحدائق، يرفعونه بصبر، الرمل الثقيل في القفاف وعلى أكتافهم. . . . كل ليلة. هذا العمل في النخيل يتكرر، وفي اليوم القادم الريح الأزلي، ريح سوف يأتي ويدمر كل جدهم وعناءهم الليلي. في الصمت الكبير لليالي الدافئة، الغناء[2]والأنين، والإشارات الصغيرة، والتي تحمل رعشة غريبة وحزينة، بل تقريبا كأنها الأسى. . "

(1) **العمورة:** تشبه الدلو، إلا أن فمها مفتوح مقام على عود مستدير. أنظر: إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص 89.

(2)الفلاح السوفي لا يبالي بالرياح، بل هو يتصدى لها يوميا، وأثناء العمل يروح عن نفسه بالغناء الذي يزيده نشاطا وحيوية، وينسيه التعب والأحزان والمعاناة.

للوادي إنها الثالثة.

انتهت الحياة البدوية.

بالصحراء!" [2]

الكاتب: ريني تيرنيول... فنان ـ ورسام

(1) تدعى في التراث السوفي باسم رحبة القمح، وخصصت الأولى لبيع الحبوب، وأسست من طرف الهندسة الفرنسية في حدود عام 1886 قرب مسجد سيدي المسعود في جهته الشرقية. أنظر: علي غنابزية: مجتمع وادي سوف، (ماجستير) المرجع السابق، ص 78.

(2) أنظر: ايزابيل ابرهاردت: **عودة العاشق المنفي**، ترجمة ميهي عبد القادر، دار الوليد، الوادي – الجزائر، 2006، ص141.

الرحلة الثالثة

جولة "أصدقـاء فرنسا " في الجنوب الشرقي

أو جماعة: الميعاد الخيري[1]

الاجتماع القانوني العام الأيام من 20 إلى 25 مارس 1939 ابتداء من بسكرة. [2] انه تجمع عام تم في ستة أيام، سنقول، أي إسراف !نعم لأن الوقت مقتضب لمن يعملون بضمائرهم، الأيام الستة للميعاد الخيري، [3]هي مليئة بالنشاطات، بل تقريبا هي أكثر تعبئة.

ـ بلاد الزاب (بسكرة): [4]

أما أعضاء المكتب الخاص بهده الجمعية، بعد رجوعهم من فرنسا:

الساعة: 12 تم تناول الغداء الخاص والودي عند شيخ العرب ببسكرة.

الساعة: 18 تجمع عام في مكتب الرئيس.

---

(1) **La Vois Indigène**: journal d'union franco – musulmane, Constantine: 475. 13 Avr 1939.

(2) الاجتماع الرسمي لجمعية الميعاد الخيري تم أولا في بسكرة، وتوج بجولة دعاية وترويج لنشاطهم في الصحراء بمقاطعة قسنطينة، وهي جمعية أعوان الاستعمار.

(3) **الميعاد الخيري:** هو جمعية " **Les Amis de la France** " وتضم القياد من بسكرة وتقرت، ورجال الطرق الصوفية، ورؤساء الملحقات في منطقة بسكرة وتقرت والوادي، وقد زار هذا الميعاد أثناء جولته منطقة وادي ريغ ووادي سوف، وبلاد الزاب، وكلها تمثل صحراء قسنطينة. من يوم20 إلى 25 مارس 1939. وهي رحلة توضح الحياة العامة في تلك المناطق قبيل اندلاع الحرب العالمية الثانية بستة أشهر.

(4)انطلاق الجولة بدأت يوم 20 مارس، من بسكرة.

الساعة: 20 تناول العشاء عند القايد فرحات.

يقول الكاتب: ونلقى في كل مكان تجمعا وديا، وثقة بدون حدود، وفي بعض الأحيان حماسة، وميزة حسنة، في كل مكان، الشعب يستقبلنا بالموسيقى في المقدمة، وبالأعلام والرايات ثلاثية الألوان. . مرة في باريس، طالبنا بحقوقنا، وكونا لجنة، عضوين ماليين، نائب رئيس المجلس، وعضو المجلس الأعلى، وعضو الغرفة التجارية. . . وأين تظهر الجمعية بفعلها؟ ونحن لا نستطيع تحقيق سوى نتائج جديرة بالاحترام، والنجاح المباشر كفيل بظهور آثاره المستقبلية، خاصة ونحن نثابر باستمرار، ونبذل الجهد لندفع بأرجلنا كل تنازع، وبفطانة نتجاوز ذلك، ونرسل التقارير. .

ـ وادي ريغ: العقيد: **Téxeire**، ألقى الخطاب التالي: [1]

" سيدي شيخ العرب، السادة هذه التعاونية قديمة، مر عليها سبعة عشر سنة، عزيزي شيخ العرب، ننسج بيننا صلات قلبية للصداقة، في مختلف الأحوال، فإننا نترجم عن عواطفنا العميقة التي يحملها احدنا للآخر. واغتنم هذه الفرصة، وفيها التجدد من طرفكم، لأقدم للجميع كل عبارات الصداقة والترحيب. وحسب الألقاب والرتب التي تحملونها، فإننا نريد منكم العمل، واستغلال الوقت، لأن بعضا من

(1) **العقيد تيكسير(Téxeire)**: كان قائد التراب العسكري ويقيم في تقرت التي كانت ملحقة يديرها ضابط برتبة رائد، وهو تحت إشراف العقيد السابق الذكر، وتدخل تحت سلطته مناطق وادي سوف ووادي ريغ والزاب الغربي وأولاد جلال وضواحيها.

أصدقائنا يريد لنا الضعف والانقسام" أصدقاء الحسن" أو "أصدقاء فرنسا" فإننا نؤكد أمام العالم اجمع، الاتصال العميق بوطننا الأم. [1]
بالنسبة لكم، بالخصوص، عزيزي شيخ العرب، [2] عواطفك قد ترجمت بحركة عالية تملكها، اثنان من أبنائك طبيعيا مجندين في صفوف القوم ببسكرة. [3]

فلك كل الشكر سيدي مع مرافقيك، وأحييكم من الأعماق. جمعيتكم، جميعا، ونحن نؤكد، نقول للعالم اجمع، جمعيتنا هي الاحترام، جمعيتنا هي المحبة، أمنيتنا العميقة أن نجعل الجزائر أكثر سعادة تحت حماية فرنسا العظمى. وحتى انهي كلمتي، لقد تم استدعاء سي محمد عبابسة، الشاعر الجزائري المشهور، لقد دعي، لا اعرف لماذا شاعر القبائل. ولكن ترك لتقرت أحسن هذه "القصائد" التي تدهش الحضور مع الدعابة، وبعد النظر من كلامه السياسي. " [4]

ـ اليوم الرابع: 23 مارس.

(1) هؤلاء هم ضباط فرنسا، ومعهم الأذيال من القياد الذين يعملون بكل إخلاص لفرنسا، التي عبر عنها العقيد "تيكسير" بأنها الوطن الأم (فرنسا) وهو نفس الشعور عند القياد والأعيان من أعضاء هذه الجمعية.

(2) هو لقب أطلقه الأتراك بالجزائر على رؤساء القبائل التي اسندوا لهم مناصب الولاء، ولاسيما في بلاد الزاب، ولما دخلت فرنسا استمر الحال في إسناد المنصب والذي كان التنافس فيه بين عائلتين هما عائلة بوعكاز، وعائلة بن قانة. أنظر: علي غنابزية: مجتمع وادي سوف، ماجستير، ص 14.

(3) كان شيخ العرب يومئذ هو بوعزيز بن محمد الصغير بن قانة، وأبناؤه من فرقة القوم التابع للجيش الفرنسي.

(4) استعانة فرنسا بالشعراء والفنانين للدعاية، والتأثير في الأهالي البسطاء.

السيد مصرلي[1] محمد سي الصغير آغا تقرت.

ـ زيارة الزاوية التجانية بتماسين، [2] وتم تناول أكلة خفيفة عند المرابط سي احمد التجاني[3] شيخ الطريقة، وبعدها الرجوع إلى تقرت.

ـ الاتجاه نحو جامعة وتناول الغداء لدى الباشاغا السنوسي، والانطلاق بعد ذلك نحو مدينة الوادي.

ما نقوله إن الطعام الذي تناولناه في تماسين وعند الآغا مصرلي محمد الصغير من أحسن الوجبات، وكان بالحلوى الأكثر شهرة، والأكثر طلبا. أما مسجد الزاوية، وقاعة الأضرحة أصحاب الطريقة بتماسين، هما مَعْلَمَان من آثار الفن المتميز في وسط الصحراء، ومن جهة أخرى أثار المشهد شعور الزوار ولاسيما لطف وبشاشة المرابط الكبير ورجاله. سي أحمد التجاني، لقد صنع أحسن الأشياء، فكل الزاوية في حركة دائبة من أجل توفير الراحة للميعاد الخيري، قدم النشيد والمتمثل في

(1) كان مصرلي إسماعيل بن بابا ميدة هو القايد في تقرت مدى حياته، ثم قسمت على أبنائه وغيرهم، وكلهم يأتمر بأمر شيخ العرب بن قانة.

(2) تماسين إحدى قرى وادي ريغ، تقع على بعد حوالي 12 كلم من مدينة تقرت، وتوجد الزاوية التجانية بجنوب تماسين في منطقة تملاحت، وقد أسسها الخليفة الأول الحاج علي التماسيني سنة 1803م .

(3) **أحمد التجاني**(1898-1978): هو الشيخ ا حمد بن محمد (المعروف بسيدي حمه) بن الشيخ محمد العيد، ولد عام 1898 بالرقيبة بالوادي، وتولى خليفة في الزاوية عام 1927وبقي مدة كبيرة فيها، وتوفي سنة 1978. انظر: عبد الباقي مفتاح: **أضواء على الشيخ أحمد التجاني وأتباعه**، الوليد للنشر، الوادي –الجزائر، (ب ت)، ص 175.

مدائح الطريقة، وتخللت ذلك الشروح المفيدة عبر هذا المعلم الشهير، فضلا عن الحلقة الأدبية التي انتظمت بين ممثلي الزاوية وأفراد الميعاد الخيري، وكانت حديثا روحيا امتزج بالذوق الرفيع كما أكد المعربون.

ـ بلدة جامعة: [1]

في الصحراء، ليست كل الطرق تؤدي إلى روما، [2]ومن اجل الذهاب إلى مدينة الوادي، فلا بد من الرجوع إلى طريق بسكرة، وقبل وصولها تأخذ الدرب الصحراوي الذي يوصلك إلى الوادي، ولكن قبل ذلك توقفت القافلة ببلدة جامعة لتناول الغداء عند الباشاغا السنوسي، والتحضير للاستقبال بدأ من بلدة المقارين،[3] دائما يتوج الاستقبال بتظاهرة شعبية حول منزل القايد الأهلي، ويحتوي على الغناء، والضرب بالطبول، وإطلاق البارود، وكانت الحماسة شعبية، والكل يقدم ملاحظة معتبرة حول هذا الاستقبال الكبير.

(1) **جامعة:** بلدة في وادي ريغ تقع ما بين بلدة المغير شمالا، ومدينة تقرت جنوبا.

(2) كانت الطريق في أواخر الثلاثينيات عبر تقرت، ثم جامعة، ومنها إلى مدينة الوادي، وبعد جهود اختصرت وصارت من تقرت إلى الوادي عبر الطيبات، وهي قرب طريق القوافل.

(3) **المقارين:** قرية تقع شمال تقرت وتبعد عنها بنحو12 كلم، وقعت بها معركة شهيرة يوم 29 نوفمبر 1854، انهزم فيها المقاومون، ففتح الباب للفرنسيين الذي اقتحموا وادي ويغ ووادي سوف، وإثرها بدأ الاحتلال يتغلغل في الجنوب الشرقي.

عند الباشاغا السنوسي، وجدنا وسطا كله متحضرا، ليس فقط في ترتيب الطعام الذي يفوق الفرنسيين، بل بوجود فئة الشباب وخدماتهم كأرقى المؤسسات الأوربية.

القايد علي، ابن ووريث الباشاغا بعد تقاعده، [1] فهو خريج الثانوية الفرنسية. . . والمأدبة لاقت كل الإعجاب، ولاسيما الجلسة في ذلك الجو، وزادها جمالا الديكور الدال على الذوق الرفيع في قاعة الكراسي، [2] وهذا جعلنا نتمنى العيش في هذه الجنة الصحراوية. ولكن مدينة الوادي مازالت بعيدة، وبعيدة جدا، ولا بد أن ننسل من هذا الوسط الساحر، بعد سماع أجمل الكلام في التجمع الفرنكو- أهلي[3] الذي شكل الملحمة. نسافر إذن نحو الوادي على الساعة 14 بلا ريب، إننا ننتظر المتاعب خلال هذا السفر.

- وادي سُوفْ:

كل شيء كان على ما يرام لما كانت السيارة تقطع الطريق بين تقرت وبسكرة، ولكن في بعض الأحيان، تجد نفسك في طريق رملي صحراوي، ولكن بين بسكرة والوادي بدأت الكوارث، واغلب السائقين ليسوا شجعانا، ويفقدون السيطرة الكافية على سياراتهم لعبور

(1) كان هذا المنصب يورث، فيسعى القايد إلى تأهيل أحد أبنائه للامساك بزمام الأمور بعد وفاته، وذلك مبتغى الاستعمار الذي يهمه فقط الولاء والطاعة، والتفاني في خدمة فرنسا.

(2) كل مظهر جميل، ومنظر فيه ترتيب وإتقان، يلفت انتباه الزائر من الأجانب، لأنه من علامات التحضر.

(3) **الفرنكو ـ أهلي:** وهو يضم فئة من الفرنسيين ومعهم الأهالي من القياد وشيوخ الطرق وأصحاب المصالح الذين يوالون فرنسا ويخدمونها من اجل تحقيق مآربهم المادية، على حساب مبادئهم.

المسالك الرملية، حينئذ، غرقت السيارة في الرمل،[1] ولا بد من تحريكها من طرف زمرة من الأفراد، حتى تصير قادرة على مواصلة السير، كانت السيارات في هذه الرحلة كثيرة، ومثل تلك الحالات تتكرر في مرات عديدة، والليل حل سريعا، وأكثر من مائة كيلومتر بقيت ولا بد أن نجتازها. والقلق عم الجميع، وكل منا يسأل هل يكون النوم فوق السرير، أو فوق الرمال الرخوة الطيبة بفعل رائحة الشيح[2] المنتشرة في الأعماق.

لقد تقدمت القافلة، ولكنها لم تصل إلى مدينة الوادي إلا في حدود الساعة العاشرة مساء، وكانت الرغبة الملحة، الإخلاد إلى النوم، بدل إجابة دعوة الشرف والكرم، في تلك الضيافة التي نظمها الباشاغا مصرلي عبد العزيز، [3] لقد تحتم علينا السير في أزقة بدون إضاءة، [4] وهذا أثار التفكير الجيد عند المسافرين، الذين نسوا التعب، وتلك

(1) كانت الطرق الصحراوية عبارة عن دروب رملية، والسيارات التي تقطعها رغم قوتها تغوص في الرمال، وتسبب متاعب جمة للمسافرين فيضطرون إلى دفعها للأمام أو وضع صفائح حديدية تحت عجلاتها لتخليصها من الغرق.

(2) **الشيح:** نبات عشبي بري، لأوراقه رائحة عطرية قوية وطيبة، يستعمل في الطب، وترعاه الماشية.

(3) **مصرلي عبد العزيز:** واصله من الكراغلة، كان قايد قبيلة المصاعبة بمدينة الوادي ما بين 1919-1954.

(4) كانت مدينة الوادي بدون كهرباء، وتعيش في ظلام دامس، ولم يشرع في تشييد مصنع الكهرباء إلا في ماي 1945.

المسافة الطويلة التي قطعوها حتى وصلوا إلى هذه الجهة القريبة من غدامس. [1]

العقيد تيكسير(**Téxeire**)، والمتصرف الإداري ميرل (**Merle**) مرافقي القافلة منذ خروجها من تقرت، استقبلوا بلطف كله فرنسي، لقد جلسوا أمام الطاولات ـ رغم تأخر الوقت ـ وكانوا على شرف مأدبة أكثر جاذبية. وبعد الفراغ من الطعام، قام شيخ العرب، وقدم تحية شكر للباشاغا مصرلي عبد العزيز، ولكنه صرح بالحرج أن يخبرهم بكل ما يفكر فيه نحو أخيه عبد العزيز. أما الباشاغا السماتي، فقد خلفه في الوقوف أمامهم، وذكر بأحسن السنوات التي قضاها مع سي عبد العزيز في الثانوية، وكذلك اللحظات المأساوية التي قضوها جنبا إلى جنب في الحرب الكبرى،[2] وحينئذ حيَّ فيه زمالة الدراسة، وصحبة الحرب، وتحدث عن كل المحاسن التي تخطر في بال الجميع، ومنها انه أعظم رئيس للأهالي. وأنهى كلمته بذكرى مؤلمة، وانحنى أمام الذاكرة، بالتنويه بخصال زميل آخر في مرحلة الدراسة التي جمعتهم،

(1) تقع غدامس الليبية في الجنوب الأقصى من العرق الشرقي الكبير، وتمتد أراضي وادي سوف القديمة إليها وتبعد عنها نحو 500 كلم.

(2) لقد ساهم كثير من الجزائريين في انتصار فرنسا على ألمانيا في الحرب العالمية الأولىمن 1914 إلى 1918، إذ جند الجيش الفرنسي في صفوفه 500، 85 شاب جزائري مجند ومن المتطوعين 519، 86 متطوع (يعينهم القائد) أي المجموع الكلي 019، 172 جندي. وكانت الخسائر ثقيلة: 711، 25 قتيل (5، 14 بالمائة من مجموع القتلى في الجيش الفرنسي) والجرحى 035، 72 جريح من بينهم 8779 معطوب بنسبة 100 بالمائة .نقلا عن البوابة الرسمية لخمسينية الاستقلال، يوم 2014/01/04.

إنه أخو عبد العزيز مصرلي، الذي مات من اجل فرنسا، منذ وقت قريب، والباشاغا مصرلي، رد بمرارة زائدة، بالخطاب التالي:

" سادتي، اتركوني، قبل كل شيء، أن أحييكم وأشكركم، وان أمنحكم شعار الشرف على بقائكم تحت هذا السقف المتواضع، [1] وأرحب بكم، واحي فيكم المشاهير الذين يمثلون أكبر العائلات لمقاطعة قسنطينة، عائلات لها مكانتها منذ أول الفتح [2]وهي ترتبط بمجد وتقدير واحترام لبلدنا الجامع فرنسا.

واني لا أستطيع أن أطيل أكثر، ولا أسهب في التنويه بمهامكم، أو التذكير بالحوليات الجزائرية، خوفا من التقصير في تعداد انجازاتكم ومآثر أسلافكم.

إن زيارتكم لبلد الرمال، [3] لم تبق في عداد المستحيل، فمنذ عشرات السنين، كان لا بد من تحمل التعب الكبير، ونتج عن ذلك مراحل طويلة من العناء، فرمالنا المتجمعة، تتحدى مهارة وروح العصر، ولكن بفضل الهندسة الاستعمارية الفرنسية، [4]تم التغلب عليها، ويمكنكم

(1) لم تكن المباني بنفس الإتقان مقارنة ببسكرة والمناطق الشمالية، بل يغلب عليها التواضع.

(2) لم يكن فتحًا، بل غزوًا واحتلالا استيطانيا، ولكن الولاء للاستعمار وتمجيده يقلب الحقائق.

(3) هي مدينة الوادي، وهي تسبح في بحر من الرمال التي تغطي أراضيها ولاسيما في مناطقها الجنوبية والغربية.

(4) الإشادة بدور الاستعمار في البناء والتعمير، وهي مشاريع كان الغرض منها توفير الراحة للطوابير العسكرية، للعبور بيسر من أجل التحكم في المنطقة، وإحكام قبضة العسكريين على مقدرات السكان، والوقوف ضد كل حركات المقاومة الشعبية.

أن تجتازوا ما بين بسكرة ـ الوادي في بعض الساعات، وبدون مكابدة أقل الأتعاب.

وعندما نتكلم لكم عن منطقتنا، وعن سكانها، فلا بد أن نربط هذا بالمقولة القديمة:

" لولا ظلم الجريد، وتهم[1] وادي ريغ، ما عمر سوف"[2]وهذه قيلت لشرح ما في المنطقة من فقر في تربتها، هذه المسلمة فيها أحكام مطلقة، ولكن الآن هذا تفسير خاطئ، لأن عناد وذكاء الفرد السوفي، جعلهم ينجزون بساتين مثمرة، أعطت لسوف هيئة الموقع الفلاحي الساحر والخلاب. هذا البهاء يبرز عند شروق الشمس، وأثناء غروبها، ونور القمر، وكلها تمنح الزوار منظرا جذابا، وقد كتبت في ذلك الكاتبة ايزابيل ايبرهاردت في صفحات لا تنسى. [3]

إن السنوات عندنا تحسب وتحدد استنادًا إلى العرف السائد بوقائعه،

---

(1) **التهم**: هي حمى المستنقعات (الملاريا) وهي غير موجودة بوادي سوف، لخلوها من المستنقعات، وانعدام المياه الراكدة بها، ولا تنتقل إليها إلا مع قوافل المسافرين من الزيبان وتقرت.

(2) لقد هاجرت كثير من العائلات من المناطق المحاذية لوادي سوف، بسبب الظلم الذي مسهم في بلاد الجريد التونسية، أو المرض في تقرت وما جاورها من قرى وادي ريغ، وحينئذ صارت وادي سوف حامية لهم، فوفرت لهم الأمن والاستقرار، وقد عبر عنها الشيخ العدواني بقوله " **سوف مانعة الهارب**".

(3) ومما قالته إيزابيل في رحلتها إلى وادي سوف في 1 أوت 1900: (. . . لاحظت عند غروب الشمس، الكثبان الصهباء اللون التي أخذت مسحة ذهبية فريدة، بنصاعة لامعقولة. وتحت ضوء القمر، عند المحلة الأولى، بياض لا متناه. جانب تتيره الشمس، ذهبي. من جانب الظهر"ظهر العرق" بياض أزرق شفاف. لطف ونقاوة غير معقولين للألوان). أنظر: عبد القادر ميهي، المرجع السابق، ص 12.

"عام بوقمزة"[1] على سبيل المثال، عام الشر، [2] عام فساد التمر، [3] عام قابس[4] إلخ. . . [5] وإن عام 1939 سيكون عندهم عام مجيء الميعاد الخيري "أصدقاء فرنسا".

سكان سوف يشكرونكم كثيرًا، ويأملون أنكم اكتسبتم الجديد. قبائلنا أحيت روح الصف، ولم يكن الزمن بعيدا، كانت فريسة للخلاف والتناحر بين الأخوة، أما الآن فالأغلبية منهم تطوروا في كنف فرنسا، وهم لا يحبذون ذكرها في كلامهم، لأنها تعبر عن ماضيهم الأليم، [6] كذلك، هم أكثر فرحا برؤية شيخ العرب سي بوعزيز بن قانة، ويمدون يد الصداقة إلى الباشاغا الهاشمي بن شنوف، وهذه المحبة تستحقونها، لفضل تعلمكم في مقاعد المدرسة الفرنسية.

---

(1) عام بوقمزة: وقعت معركة في صحن بوقمزة في شرق الوادي بين السوافة والهمامة عام 1299هـ/ 1881م. سالمي مصطفى: **الدر المصفى**، تصنيف وتحقيق علي غنابزية، مخ، ص 11.

(2) عام الشر: العام الذي تقع فيه المجاعات.

(3) عام فساد التمر: ويسمى عام الخموري، أي يتعفن التمر، والسبب هو نزول الأمطار قبل نضج التمر، فيتلف في عراجينه، ومنها الخموري الأول 1302هـ/1885م، والخموري الثاني 1305هـ/1887م. أنظر: سالمي مصطفى، المرجع السابق، ص12.

(4) عام قابس: أو عام شعير قابس الأول 1314هـ/1896م. أنظر: محمد الطاهر التليلي: **من تاريخ وادي سوف**، مخ، ص 34.

(5) عموما كان الفرد السوفي يومئذ يغلب على حياته البداوة، وكان التأريخ بالوقائع والأحداث.

(6) يشير إلى الحروب بين القبائل، وظاهرة السطو على بعضهم، وانتشار العصبية القبلية، وفعلا انتهت تلك الحال، وساهم الفرنسيون في ذلك لمنع انتشار السلاح، حتى يستتب الأمن لهم، وحينئذ تتم السيطرة على السكان.

أمنياتنا أن لا نحصد الحقد والانحلال، بل نجني المحبة لهذه العائلة الكبيرة، للإنسانية، ولفرنسا، وفيما بيننا، نحن نعلن بفرح، الصداقة، حيث يقول تعالى:

(**وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان**). [1]وهو الباعث الوحيد الذي يقود حركتنا وأعمالنا، إذا أردنا فعل النافع المستمر. سادتي، إني أرفع كأسي[2] عاليا لجمعية "أصدقاء فرنسا" بصحتكم، وعلى ازدهار جزائركم الجميلة ـ ومجد فرنسا الأبدي للتطور والازدهار. " اهـ

اليوم الخامس: 24 مارس

إغفاءة من اجل الراحة وإعادة التوازن، وعند طلوع الشمس، تدعونا هذه الواحة لنتعرف عنها، واكتشافها:

الوادي، [3]لا تشبه أي واحة في الجنوب، أولا لأنها تقع في مرتفعات من الكثبان العالية، وبعدد مهول، كثبان بأشكال عجيبة، دائرية، وغير ثابتة، وبدون انسجام وتآلف مع الآخر المماثل، وبعد، فهي مدهشة بفعالية سكانها رغم هذه الطبيعة الصعبة.

(1) انظر كيف يستغل الدين لتبرير التعامل مع الاستعمار، ويعطي لسلوكه شرعية دينية، وهذا يلتبس على عوام الناس، فيصدقونه.

(2) ويعني بها كاس الشراب(الخمر) الذي فيه تعبير على محبة فرنسا والتفاني في خدمتها.

(3) هي المركز الإداري لوادي سوف، وهي مدينة القباب، والتي تحاذي الحدود التونسية من الشرق، والحدود الليبية من الجنوب.

المنسوجات الأهلية ملفتة للانتباه، وزراعة النخيل شيء خارق للعادة، والمنطقة تحتوي على مياه جوفية مهمة، ولكن تراكم الرمال يجعلها عميقة جدا، ولا يستطيع الفلاح زرع نخله على السطح، ولكن يضطر إلى الحفر في أعماق الأرض، ويزرع النخلة قريبا من الماء، وحينئذ لا يحتاج إلى سقيها أبداً، ولكن الرياح تزعج الفلاح، مما يجعله مستمرا في رفع الرمل إلى أعلى البساتين، وهذا العمل لا يقارن بغيره، وهذه الواحة بنخيلها المتتابع تظهر كيف يكافح الإنسان من اجل العيش، ويبذل في ذلك طاقة جبارة.

على الساعة التاسعة، النقيب **Thiriet**، رئيس ملحقة الوادي، رجل جذاب، متقد الحركة، له روح فرنسية حسنة، وكاتب بموهبة، ويكتب في أوقات فراغه، وقد دعانا إلى تناول الشاي على شرفه في فندق الترانزات تلانتيك(**Transatlantique**)، [1] تحت الرعاية السامية للعقيد تيكسير(**Téxeire**)، وكل ضباط الحامية حاضرون، وهم ينتظرون المجموعة حتى يلتئم الجمع، ويتحدثون محليا، أخويا، حول

(1) ويحتوي على 18 غرفة، مبنية وفق الطراز المحلي، وكل غرفة تعلوها قبة، وتتسع لشخص أو شخصين، وتسمو به منارة بارزة للعيان، تميزه عن غيره من المباني المجاورة، وتم إنجاز هذا المعلم السياحي الأول من طرف مجموعة (**Transat**) الفرنسية، وهي شركة المسافرين وفنادق الشمال الإفريقي(**S. V. H. N. A**). ومقرها الرسمي في باريس. انظر: علي غنابزية: مجتمع وادي سوف، رسالة الدكتوراه، ص 246.

كل الأحداث. أيضا، لحظة تمر بكل سرور، ونتواصل جميعا، في هذا الركن الرائع من فرنسا الصحراوية. [1]

لقد بُسط في المجلس حديث جميل، من قبل كبار مثقفي المنطقة، وكان يتقطع بالتصفيق والهتاف الجماعي، والمستوى الفكري كان مرتفعا، وبشكل كامل، شيخ العرب شكر النقيب تيريي وأصدقائه، وصرح معترفا من جهة أخرى بالجميل والشكر لكل من الباشاغا مصرلي، وسي محمد الصالح رئيس الزاوية، الذي يحب دعوة الميعاد الخيري إلى الوادي، لأن الأعضاء سوف يحملون عن هذه الواحة أجمل الذكريات والملاطفة الجميلة.

لا بد من تناول الغداء مبكرا، قبل العودة إلى بسكرة بدون تأخر، والمأدبة هذه المرة من طرف الرجل الجذاب، رئيس الزاوية القادرية سي محمد الصالح بن الهاشمي، [2] هذا الشاب العالم، الحاصل على شهادته العلمية من جامعة الزيتونة بتونس، وهو روح الطريقة في كل

(1) تأكيد هذا القايد على الصحراء الفرنسية، وهي من مشاريع فرنسا في بسط نفوذها إلى ابعد من صحراء قسنطينة، وإلى إفريقيا جنوب الصحراء.

(2) **الشيخ محمد الصالح الشريف:** هو ابن الشيخ الهاشمي الشريف، وتولى شؤون الزاوية بعد أفريل 1938، اثر سجن أخيه الشريف عبد العزيز الذي أدخل جمعية العلماء للتراب العسكري، واستدعى الشيخ عبد الحميد بن باديس في ديسمبر 1937، وامتدت الزيارة إلى جانفي 1938، واثر وفد الجمعية في بث الوعي، ثم قام عبد العزيز بانتفاضة ضد حكام منطقة الجنوب، فتم اعتقاله، وخلفه محمد الصالح الذي تظهر الرحلة مدى استسلامه للفرنسيين ومداهنتهم، وإبراز روح الولاء والطاعة، ولما اشتد ساعد الثورة الجزائرية هاجر إلى تونس وأغلقت الزاوية.

المنطقة، بل يصل تأثيره إلى الحدود، [1] واغلب القوافل توجد في محيط محرابه بشكل ساطع، الشيخ الشاب هو رمز المحبة للقادرية في المنطقة، وهو بشكل طبيعي يوجد على رأس الطريقة.

ومع هذا فالشيخ، لا يثير أي تخوف، [2]سي محمد الصالح بن الهاشمي، زيادة على ذلك، هو عضو في الميعاد الخيري منذ نشأته، فماضيه وثقافته العالية تضمن مستقبله، أشار سي محمد بالحاج بن قانة ابن شيخ العرب، لقد تبين من الحفل نجاحه، وبأنه عضو فاعل في الطريقة القادرية، في ساحة الزاوية، في وسط أغلبه مهم وبحماسة مفرطة. . . وعبر المشهد على إعلان الوحدة الصادقة الفرنكو ـ أهلية، نطقوا بهذا، ثم دعوا إلى الغداء والذي تم في قاعة فخمة، وفي طاولة كبيرة من الحديد كانت مرفوعة، وهذه الوجبة الأخيرة جعلت الضيوف في الوادي يحملون بعض البركة، وكانت لنا فكرة، وقوة لتحمل التعب عند العودة إلى بسكرة. لقد تناولنا الغداء بسرعة كافية، وبعد استماعنا للمدائح الدينية للطريقة القادرية، [3] والحديث الشعبي، أحسسنا بحاجز يفصلنا عن المنطقة، فالقافلة أخذت طريق الرجوع.

---

(1) للطريقة القادرية أثرها في الحدود التونسية، وتصل تأثيراتها إلى جنوب الصحراء لدى البدو، وحاولت فرنسا استغلالها في ربط العلاقات مع تلك الأطراف.

(2) مقارنة له مع أخيه عبد العزيز السجين والمعزول والمنفي.

(3) **الحضرة القادرية:** هي المدائح التي تشيد بشيوخ القادرية بداية من مؤسسها الشيخ عبد القادر الجيلالي، وأبناء الشريف، وشيوخهم في الجريد التونسي ووادي سوف.

لقد تم السفر بدون حوادث كثيرة، وعلى الساعة التاسعة مساء، أول سيارة للموكب وقفت أمام فندق الترانزات، إذ البلدية قدمت وليمة مودة لأعضاء " أصدقاء فرنسا".

ماذا نقول عن الوجبة الجيدة التي قدمت في إطار حسن، قاعات ساحرة ذات أسوار عائمة في الجنوب، ذات هندسة ضخمة اجتاحت الضوء، في هذا قاعة الطعام في فندق الترانزات، التغير الأولي مفاجئ، هذا الجو المفرح، والحكايات الرقيقة من أشخاص البساكرة، والسيدات الجميلات، وضعن بسرعة في شكل المضيفات، أكملن الفرح الذي أضفى على المغادرة في لحظاتها الأخيرة البهجة والسرور.

ـ العودة إلى بسكرة:

بالشانبانيا، [1] شيخ العرب قام وشكر بالأسلوب التالي: الإعادة غالبا منفردة، ولكنها لا تكون أليمة عندما تعلن الحقيقة، عندما سمح بإظهار المشاعر النبيلة التي تقوي القلب والروح، وتمتن العلاقات وتحسنها بين الأشخاص، كذلك سنكرر بان بسكرة يقظة وتكن كل التقدير "لأصدقاء فرنسا" حيث يعود إليها الطفل فيجد كل الحنان الحار والمشجع.

إذن ليس هناك ما يدهش، حتى نجد الالتحام متسارعًا، وكذلك عدد كبير نشطوا في هذا الأمر الودي والجذاب، والذي يمتلك النفس،

(1) نوع من النبيذ الغازي، المصنوع من تخمير العنب، وينسب إلى منطقة شامبان ـ أردان في فرنسا.

وفي بعض الوقت هذا المناخ المنعش " إنهم اليوم كلهم في فرح ويغتنمونه، والأكثر حبورا الجو البسكري، وحصول اتصال جيد مع السلطات الموفقة، والسكان " إنك سيدي حاكم البلدية، قدمت الكثير في هذا الجمع الفرح، وأكملت بهذا الاجتماع الظاهر، وروحك الفسيحة، والمتساهلة، وهمك المتواصل لتكون فرنسا في مستقبل زاهر، والأمر يجعلكم تطورون منطقتكم بأعمالكم الجبارة" كذلك لنا ثروة جيدة نحافظ عليها في السيد بير(**Byr**) الإداري الواعي بمنطقه الحسن، حسب احتياجنا، ويتصرف مع مراعاة أحوال الأهالي. . . وهو عطوف وحذر مع أصدقاء فرنسا لا يفسر بشيء آخر" إننا نحب كذلك التعبير عن كل شيء. . . [1]

" نحن ندخل، وندور، إننا كلنا فرحين، ونعلن أن الاستقبال الودي، الذي ادخر لنا في كل مكان، ونتقدم بذلك لكل السلطات المحلية للمقاطعة العقيد تيكسير(**Téxeire**) والنقيب(**Thiriet**) وسكان الجنوب، الذي قطعناه، وإننا نرسل لكم صداقتنا وذكرياتنا، وشكرنا الكبير.

إني متأكد بان التحامنا يجعلنا نذهب بإحساس ملائم يجعلنا نحو بسكرة وكل المناطق التي نعبرها بذكريات طويلة الأمد. إنكم كلكم سادتي ساهمتم في تعزيز العواطف بيننا والتي ولدت نتيجة هامة بأننا

(1) عبارات المجاملة للسلطات الفرنسية الحاكمة، العسكرية والمدنية.

مقدامون، وإنكم ستساهمون بشدة في كسب علاقات صداقة فرنكو ـ انديجان، إنكم قمتم بخطوة حسنة في الفهم والتعاون، في العمل الذي يتعلق بمستقبل الجزائر، وبهيئتكم الحسنة، وقد كرستم جهودكم العامة لفرنسا، فالقلب به انتعاش، وانتم تأخذون جانبا جديرا بالاحترام، لتوطيد إمبراطوريتنا، أشكركم، سادتي على إيمانكم المطلق، ووفائكم المخلص لفرنسا، واني أرفع كأسي، بصحتكم الجيدة، ولعائلاتكم، تحيا بسكرة، تحيا الجزائر الفرنسية، تحيا فرنسا. " إهـ

السيد رئيس البلدية ديفوغ **(Dufoug)** أجاب بالخطاب التالي: "هذا اليوم، فرح كبير لنا، باستقبالنا أحسن الأصدقاء، واني اشكر بالخصوص الرئيس شيخ العرب، وأعضاء الجمعية " الميعاد الخيري"(أصدقاء فرنسا) الذين اختاروا الجلوس في "ملكة الزيبان" واشكر العقيد تيكسير**(Téxeire)** والسلطات المدنية والعسكرية الذين لبوا دعوتكم الطيبة.

كل البساكرة لهم إحساس، يماثل الشهادة على الصفاء، وانتم تؤكدون من أعماقكم ذلك العرفان. لا أحد من الإطارات يفتقد الجاذبية، مثل مزارع نخيلنا البشوشة، لا تقدروا تبسيط أعمال السلم، ونجاح البعثة التي استأثرتم بها.

في المساء الآخر، في الإقامة الضخمة لشيخ العرب، بعض الخطابات قدمت وأستسمح إذنكم، فإنكم قلتم كل الأشياء المهمة، التي في الساعة الحالية تلقى قبولا وراحة في قلوبنا. وإذا كانت أرواحنا لها ما يحرك

شعورها في هذه الإقامة الصعبة، فهي التظاهرات التي استطاع " الميعاد الخيري" أن يقدمها لنا، والتي تعزينا، وهي تؤكد عظمة فرنسا.

إنكم جئتم لتحملوا الثقة ـ يا شيخ العرب ـ لحكومة الجمهورية، واتصال كل أطفال ما وراء البحر. لا أحد أحسن منكم، يختار للحديث باسم العائلة الكبيرة للأهالي بعواطف وامتنان ووفاء، [1]مثل هذه المجاهرة بالنسبة لبلدكم الكبير، وعبر سبيل الأمواج البحرية، العاصمة، تسمع صوتكم.

إني متأكد بأن الفرنسيين يحسون بقيمة خطابكم، وفي نفس الوقت تجعله الدولة في موضع الاهتمام حتى لا يحدث التهور. إنكم أظهرتم قيمة معنوية لشمال إفريقيا، التي منذ سنوات، الجهود المبذولة، والتعاون بين الأوربيين والأهالي، تجعلنا اليوم، نعبر عن معاني الصدق العميق، بأن بلادنا ليست مستعمرة، ولكنها امتدادًا طبيعيا، وحقيقيا لفرنسا. [2]

إن الميعاد الخيري، يبقى التعبير الحي لهذه الحقيقة. أكبر العائلات الأهلية التي تجمعت حولكم، مثل بن علي الشريف، بن ساسي، محمد

---

(1) عبارات المجاملة من السلطات الفرنسية الحاكمة لشيخ العرب ومن ورائه رؤساء الأهالي، لأنهم الدرع الذي تحتمي به السلطات الفرنسية، وهذا الثناء يستحقه شيخ العرب وأعوانه، لأنهم لا يتوانون عن تقديم الأعمال والإخلاص لخدمة علم الجمهورية الفرنسية.

(2) هذا الزعم الخاطئ، كان يروج وينشر للشعب الجزائري، محاولة منهم لصناعة رأي مؤيد لفرنسا، والثناء على دورها في تنمية مناطق الجنوب ـ حسب اعتقادهم ـ وان الجزائر أضحت جزءا من فرنسا، وامتدادا طبيعيا لجغرافيتها الشاسعة.

بن مصطفى بن باديس، سماتي، داودي، بن شنوف، اورابح، بن حبيلس، سيسبان، مشري، بن اديب، بن يعقوب، بومردين، وأعضاء الطرق الصوفية، والآخرين الذين نسيتم اعتذارهم، يعطوا لجمعية الميعاد الخيري معرفة بارزة.

ولا أنسى أن أبلغ إلى السادة: محمدبن ساسي، ومحمد سماتي، داودي وعلاوة، بن علي الشريف، كل التحية والتهاني على النجاح الصادق من أجل الملاحظات، التي نتلقاها في النظام الوطني، وهو وسام الشرف.

لا بد أن نتأملوا بان الشمعة التي جاء لإشعالها هذا الميعاد الخيري، لا تنطفئ أبداً، وبأيديكم، تزداد ضياء، ويجسد العمل، والذي يسطع بحياة لها شعاع، من جيل إلى جيل.

مثلكم، تقليدكم العائلي، محبتكم لبلدكم وبلديتكم وللسلم، إنها قاعدة صلبة، من خلالها يمكنكم التعبير، بعمل يحقق السعادة لكل أطفال الجزائر.

إذا كان البلد يطلب منا القيام بعمله والدفاع عن حريته، نحن الجزائريين، دون النظر إلى الجنس أو الدين، وإننا نبين لواجهة العالم، كم نحن فعلنا في 1914، وكم هي الوحدة التي نشكلها حاليا، ليست هناك طبيعة تتقلص في سبيل التضحية. إني أرفع كأسي بصحتكم، سادتي، بازدهار بسكرة، الجزائر دائما موحدة، والى فرنسا." إهـ

خطاب رئيس البلدية، ترجم إلى العربية، وقرئ من طرف سي قاسمي، النائب البلدي، ونائب بلدي آخر السيد ديبابيش، اكتفى

بالترحيب (بأصدقاء فرنسا). لقد كان ذلك أثناء الوليمة التي قدم فيها هذا الوصف الذي يعبر عن المكانة الهامة، والجميل الذي قدمه مفتش ورجل الشرطة في وسط الأهالي، وعند البسكرية، فانه ترك انطباعا حسنا، يعبر عن سكان هذه المدينة.

السهرة عند السيد والسيدة بابي(Babey):

عرف بشهرته وتميزه، مدير فندق "بالاس"، دار الضياف، والذي استطاع جلب الزبائن المسلمين، وقد نظمت سهرة فنية مختلطة، شملت الغناء والموسيقى الفرنسية، وأظهرت سر الأفراح ببسكرة، وقد دعي لها أعيان البلد، ولبوا تلك الدعوة اللطيفة، كل أعضاء "أصدقاء فرنسا" أخذوا أماكن مهمة في القاعة، والتي وجدوا فيها تنظيما ساحرا وجديرا بالآلاف، وكانت ليلة ليس فيها ما يزعج، بل يجذب كبار الملاك، والزوار.

الحفلة العربية، قادها الفنان الشاب عباسة أمام الذين يفتحون مستقبلا زاهرا، الغناء والفن والرقص، وتم بعبارات حديثة، وشارك في الحفل كوكبة من الشابات، [1]ومنهن نجمة متميزة، إنها الآنسة

(1) وصف أحد الكتّاب الأجانب منذ سنة 1859 بأن بسكرة كانت مقصدا للموسيقى والرقص النسوي. أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء الخامس، ص 445.

ليلى، فنانة قديمة من فرقة محي الدين، [1]وهذا المهرجان ذو الذوق الرفيع، استمر إلى الصباح، تهانينا إلى السيدة، والسيد بابيي"إهـ [2]

جريدة صوت الأهالي

(1) محي الدين باش تارزي احد رواد المسرح والفن الجزائري.

(2) هذا هو وصف الصحيفة الموالية للإدارة الفرنسية، وفيها تلميع عمل أعوان الاستعمار، وتظهر الانسجام مع الإدارة العسكرية لضباط الشؤون الأهلية، ويغطي ذلك عن الاهتمامات الحقيقية للشعب الجزائري، وينتصر لشرذمة قليلة من الانتهازيين الذين اظهروا الولاء المطلق لفرنسا.

الرحلة الرابعة

الوصل بين مدينة الوادي وغدامس بسيارة الجيب[1]

بقلم المقدم: ج. فيري

في سنة 1938، الملازم مايغروت(**Maigrot**)، ضابط مساعد في ملحقة الوادي، نجح في الوصول إلى الحدود عند فــور ـ سانت (**Fort-Saint**) [2] في أربعة أيام، بواسطة سيارة (**Lorraine**)، في وقته، هذا السبق تم انجازه بعنوان، واعتباره انجازا فريدا من أجل المعرفة، وتعليق لافتة في حائط برج فطيمة [3] تحمل ذكريات هذا العمل الفاخر. [4]

منذ وقت طويل عرفنا أن السيارة الأمريكية من نوع جيب(**Jeep**) [5] هي التي تقدر على التنقل في الدروب الوعرة في حدود العرق، وتعبر الكثبان بسهولة، وبقوة تقطع المنطقة الرملية المنبسطة، وهي تعتمد على قوة محركها وخفتها النسبية. وبداية الرحلة

---

(1) Voir: . j- Ferry: " Liaison par Jeep El-oued-Ghadamès" , (**T. I. R. S)** T 5, Université d'Alger, 1948.

(2) موقع متقدم في صحراء العرق الشرقي قرب غدامس الليبية على الحدود مع الجزائر.

(3) **برج فطيمة:** هو البرج الأقرب إلى مدينة الوادي، وأما الأبراج البعيدة هي برج فور سانت وبرج مسعودة، أنظر الملحق رقم 10، صفحة 206.

(4) السلطات الفرنسية تولي اهتماما لكل من يقدم عملا ناجحا، ويتلقى الثناء الجميل، ويحصل على المكافأة، ويخلد عمله في جدارية، تبقى شاهدة في عين المكان.

(5) **جيب(Jeep):** هي سيارة أمريكية الصنع، قوية، وذات دفع رباعي، وتمتاز بخفتها وسرعة انطلاقها في الوحل والجبال والصحراء، واستخدمت في الجيش الأمريكي أثناء الحرب العالمية الثانية. وقال أحد رؤسائهم: لولا جيب لما نجحنا في الحرب العالمية الثانية.

كانت من مدينة الوادي، وهي المركز الإداري لسوف، وبالخصوص بلدة ورماس، المحاطة بسور من الرمال التي تعرقل المسير، والتجارب التي تمت في الدرب المتواصل بين مدينة الوادي وتقرت،[1] عن طريق محطات مويت القايد، والفرجان، هذا الطريق الصحراوي الذي تمت تهيئته، وخص بمعالم وإشارات، وصار مهيئا لعبور السيارات المحمولة على العجلات الست، ولكنه طريق لم يخضع للصيانة منذ سنة 1940، وحينئذ تم التفكير في استعمال سيارة لعبور العرق الشرقي في المسافة بين مدينة الوادي وغدامس.

إه اختيار رهيب هذه المرة، وهو يخص مسافة طويلة سيتم قطعها (500 كلم في خط مستقيم تقريبا) مع وجود الصعوبات في بعض أجزاء الطريق ولاسيما في المنطقة المشابهة لذلك، والشهيرة بعرق وار(كذا)، والتي عبر من طرف بعثة الكابتن ديبوردو (**Dubourdeaux**) في سنة 1945.

لقد تم تهيئة سيارتي جيب(Jeep) من الاسترداد، [2] وهي ضعيفة جدا، ووضعتا في مستوى مستودع ملحقة الوادي من اجل الصيانة.

أما أشخاص الرحلة فهم الآتية أسماؤهم:

---

(1) الطريق بين الوادي وتقرت كان معبدا بالسيارات، فأرادوا فك العزلة عن الصحراء الجنوبية لقسنطينة ووادي سوف إلى غاية غدامس الليبية، وتكون إلى آخر نقطة في الحدود.

(2) سيارات قديمة، اختيرت للرحلة.

ـ السيارة الأولى وأصحابها هم: المقدم فيري(**Ferry**)، والنقيب غاتينول (**Gatignol**)، والسائق دريدي، والدليل عبد الله.

ـ السيارة الثانية وتضم:السائق ـ الميكانيكي بيري(**Pérez**) والدليل.

الانطلاق من مدينة الوادي كان يوم 18 مارس على الساعة السادسة.

ـ المرحلة الأولى:(من حاسي خليفة إلى بير الجديد)

بير الجديد، بدأنا من قرية حاسي خليفة، البلد الأخير في رحلتنا، وبعد مغادرة الدرب الرملي(**Piste**)المؤدي إلى مدينة توزر، [1] فقد سرنا في طريق سهلة، [2] ووجدنا بها كثير من آثار عجلات السيارات، وشيئا فشيئا بدأت الصعوبات تظهر على الأرض، ولكن الإشارات بها كثيرة، ولا بد في هذه الحالة أن نتجنب كل العراقيل ولاسيما الدرين(**drinn**) والبحث عن معبر سهل لقطع الكثبان الصغيرة، والتي تتماشى مع السرعة المتوسطة للسيارات، ثم أخذت آثار السيارات في الاختفاء شيئا فشيئا.

السيارة الثانية (**Jeep**) كانت تتبعنا بصعوبة لأن محركها يعاني من ضعف في الدفع، ولا يمكن انتظاره أكثر، والتأخر بدأ في التزايد.

---

(1)**تـوزر:** هي مدينة صحراوية في الجنوب الغربي لتونس، ومركز بلاد الجريد. تقع توزر في الشمال الغربي لشط الجريد وجنوبي شط الغرسة، وتبعد عن مدينة الوادي مسافة 145 كلم شرقا .

(2)لم تسلك الرحلة هذا الطريق كاملا، بل انحرفت نحو الجنوب، لتتبع طريق شبه مستقيم.

بدأ حلول الليل، وحينئذ دخلنا إلى حوض يدعى قطرا (Katra)[1] والسائق يريد بمهارته أن يقطع الكثبان المتراصة والمعقدة، واخذ الظلام يطبق رويدا رويدا، واهتداء بضوء السيارة أتممنا تلك المرحلة الصعبة، ولكن محرك السيارة الثانية كان يعطي للسائق إشارات عن حالة التعب الخطيرة.

والأمر الآن يرجع للدليل، [2] فهو القادر على اختيار الطريق الأحسن، لقد صار الليل داكنا، لسنا بعيدين عن بير الجديد، ولكن لا بد من التأكد من المسلك الذي يؤدي إليه، عبد الله يتصرف جيدا، فهو يشير للسائق بيده الممدودة إلى الاتجاه الذي يسلكه، وإننا الآن تعمقنا في الليل البهيم، وفجأة لاح لنا ضوء من بعيد، لقد أنقذنا، انه مصباح المساعد الأول ميشال(Michel) [3]الذي سمع صوت محركاتنا. في الليل، الميكانيكي بيري(Pérez) قام بإصلاح سيارته، فان القطعة المعروفة باسم (Joint de culasse)قد سخنت.

(1) **قطـرا:** حوض رملي، يقع في الجنوب الشرقي من الوادي وعميش، ويأتي قبل بير الجديد، التي هي أول المحطات في العرق الشرقي بهذا المسلك الرملي.

(2)**الدليل:** هو الشخص الخبير بالصحراء، والعارف بمسالك الطرق، والذي تعود على السفر، فصارت العلامات واضحة جلية لديه، فيهتدي بعدة إشارات أو معالم طبيعية.

(3) الوصول بسلام إلى بير الجديد، وساعدهم الحارس ميشال بمصباحه اليدوي، عندما سمع صوت السيارة، وهو ينتظرهم بكل شغف في ذلك المكان الخالي في بير الجديد .

ـ المرحلة الثانية: (من بير الجديد إلى بير لحرش)

غادرنا بير الجديد على الساعة 6.30 وسرنا بسرعة في حوض بوخلفة، [1] وظهر لنا أن ذلك لم يكن اقل مما كان في حوض قطرا السابق. محرك السيارة الثانية أظهر لنا قلقا آخر، لأن السيارة غرقت عجلاتها في الرمال، ولا بد من إزاحة الرمال، ووضع الصفائح الحديدية تحتها حتى تساعدها على الخروج من المأزق، ويمكننا استئناف طريقنا، وحينئذ تعاون كل أفراد الرحلة في هذا العمل المضني، ولكنها لم تتقدم سريعا، وبدأنا نشك أننا لن نصل أبدًا.

وأخيرا وفي الوقت الذي قاربنا فيه على نهاية الحوض، وإذا بالمحرك يتوقف بشدة، ويستحيل إعادته للسير، فبادر الميكانيكي إلى فك المحرك، فوجد أن المكبس قد كسر، ولا نملك قطعة الغيار، فهو التعطل النهائي.

سنتخلى عنها في هذه الحال السيئة، ولكن الحكمة تقتضي منا التفكير، ولاسيما أننا خسرنا نحو أربع ساعات، وبقي أمامنا طريق طويل، وهو مليء بالصعوبات، غير أن الجيب الأولى التي يقودها عبد الله، ما زالت بشكل جيد، فقررنا المواصلة، وطرحت مسالة الأمتعة، فنحن لا نحتفظ إلا بالضروري منها، أما الميكانيكي بيري(**Pérez**) ودليله، فقصدوا بير الجديد على الأقدام(18 كلم).

---

(1) **حوض بوخلفة**: الحوض هو مكان تجمع المياه، والأحواض الصحراوية الرملية، هي منخفضات نحتتها الرياح، وبها منحدرات، وأرض منخفضة، وحوض بوخالفة يأتي مباشرة بعد بير الجديد.

انطلقنا في سيارة الجيب الأولى، وقبل قطع الصحن الطويل، واجتياز الكثبان الأكثر ارتفاعا، اكتشفنا بير ـ لحرش المشرف على البرج الحالي، وبعد الظهر انطلقنا بقوة ونريد أن نستريح في بير ـ طنقور أو على الأقل بير ـ دحمان، ولكننا تقدمنا في جوف الليل، ثم قررنا الإقامة وتناول العشاء، والنوم في وجود النجوم الجميلة.

ـ المرحلة الثالثة: (من بير لحرش إلى برج فطيمة)

الليل كان باردا، ولا يوجد إلا القليل من الأغطية، فالسائق دريدي ليس عنده إلا غطاءً واحدا، كان سعاله بارزا، ومطر الليل لم تشبع الرمل بما فيه الكفاية حتى يصير صلبا، وان عجلات الجيب تغوص في الرمل الرطب، ويغرق حديدها السفلي في الرمل الرخو.

إننا عبرنا مرحلة بير ـ دحمان، وبير ـ الطنقر، في زمن عادي، والمشهد الطبيعي بدأ يتشكل شيئا فشيئا، وحينئذ اتجهنا لعبور الغرود[1] العالية، والأكثر سهولة، وذات اللون الوردي، وتتحول رويدا إلى منظر جميل. وفي هذا الوسط الطبيعي الخلاب، كانت السيارة الجيب تبحث عن سبيلها، وتنساب بين المعابر والكثبان بشكل عمودي في اتجاه الممشى, الوقت ظهر لنا طويلا، ودليلنا بدا مضطربا، ولو أننا اتبعنا الخريطة فإننا نكون في خط السير الموصل إلى برج فطيمة، بعد أن

(1) **الغــرود**: هي الكثبان الرملية الطولية والمتوازية، ويتألف كل غرد من سلسلة من التلال الرملية، وتنتهي إلى النوع الهلالي الذي يدعى البرخان (السيف) ويبلغ الغرد الواحد عدة كيلومترات طولا، وعشرات الأمتار عرضا.

نتفادى الحوض الرملي ولاسيما المرتفع، عبد الله الذي بدا على وجهه الحيرة، طلب منا التوقف، وقال: "إني مريض، ومنذ مدة، ورأسي يدور، ولا ادري أين نحن الآن". فقد تدثر ببرنسه، ونام فوق الرمل.

قال السائق: إن به نزلة رئوية بارزة، والذي، على الرغم من تدريبه، فانه تأثر بالمشي، وهالني المنظر لما توقفنا في ذلك المكان، فقد التفت نحونا بملامح الخائف، وقد تساءلنا، لا بد من الرجوع للخريطة، مستحيل أن نحدد النقطة التي نحن بها، بما أننا وضعنا الثقة في عبد الله، فإننا لا نملك إلا مراقبة الاتجاه من بعيد، وقد تبين لنا من مراجعة الخريطة، أن بها نقصا، والخطأ تعزز، ومع ذلك لدينا الإحساس بان الاتجاه نحو الشرق، وما عندنا من مؤونة[1] يكفي لبعض الأيام، لقد بقي لدينا الماء في البيدون، والراديا تور. نرتاح إذن من اجل الراحة في صمت.

وفي لحظة نهض الدليل (عبد الله) وقال: " سأحاول تسلق هذا المرتفع بعناد، ولعلي أتوصل إلى ذلك، واستأنف" لقد ذهب لشأنه، وكانت السماء شهباء اللون، وهبت علينا ريح باردة بقوة، وسقطت بعض قطرات من المطر، غاب عبد الله في جهة الغرب، ونحن ننتظر رجوعه، والنقيب كاتينول متلهف، فتتبعنا آثاره، وتسلقنا قمة أحد

المحقق إذا طالت الأيام ونفد الماء والزاد.

الكثبان، وقمنا بالحركة التي تجعلنا نلحق به، والسائق جعل المحرك في حالة حركة.

وصلنا بالقرب من النقيب، ونظرنا إلى دليلنا، الذي رفع يده، وناداانا، فاتجهنا نحوه بسرعة، وقد طمأننا، قائلا: " لقد وجدته، نحن على الطريق الصحيح، إننا اقتربنا من برج فطيمة، الله هو الذي يُشكر، نحن نسير نحو الغرب، والذي طابق استنتاجنا، واطمئنانا ـ ويظهر أن المسافة التي بقيت تكون اقل متاعب ـ وبعد بعض الكيلومترات، توقف المحرك، وحينئذ فتح السائق غطاء السيارة، انه عطل بسبب نفاد البنزين، وإننا صببنا في خزان السيارة كل البنزين الاحتياطي، ولم تبق لدينا أي قطرة منه. " هذا لا يضرنا، إننا اقتربنا، يمكننا أن نمشي على الأقدام، [1] هكذا قال الدليل". اتركوا السائق، إننا في برج فطيمة نحصل على البنزين، لقد مضينا نحن الثلاثة نحو البرج، بعدما تسلقنا أحد الكثبان، ولا بد من تسلق آخر، وأرجلنا تغوص في الرمل، مشينا المسافة بتعب، وعند كل قمة نرتقي إليها، نظن أننا أدركنا الهدف في مرحلتنا، أي شيء لاح لأعيننا، ولكن الدليل عبد الله ابتسم وقال لنا لقد وصلنا، فأدركنا أن البرج يختفي في إحدى المنخفضات القريبة، وهو برج ابيض اللون، وفوقه يرفرف علم فرنسا. إنها الساعة

(1) هذه هي طبيعة البدوي، فهو يستخف بالمسافات الطويلة، وعندما يقول اقتربنا من المكان المقصود، معناه أن ذلك يكلف بعض الكيلومترات من السير، وفي الثقافة الشعبية يعبرون عنها بقولهم" حدفة عصا" كأنها رمية عصا، تعبير مجازي يعني القرب.

الثالثة والنصف، الكل تفاجأ، والقوم[1] الذين نراهم عن بعد، أسرعوا جريا لارتداء بدلاتهم، الملازم صويي (**SOYER**) وضباط الصف معه، ونحن قدمنا مفرزتنا بالترتيب، [2]ولا احد منا انتظر، إذاعة غدامس لم يبلغها في الوقت رسالتنا. والجميع من أصدقائنا الشباب كانوا في نشوة شديدة، لقد سلمنا البريد، وبلغنا لهم الجديد عن الوادي، وكان كل واحد منهم يلح علينا بالإقامة المريحة حتى الليل، وقد حملوا لنا الماء الساخن لنظافتنا، ونحن نحتفظ بذكريات عن أجزاء الغزال[3] المشوية، وكانت وجوهنا الضاحكة مسودة من أثر السفر، فكنا نرى تذوق اللحم بشهية الذئب الجائع.

ـ المرحلة الرابعة:(من برج فطيمة إلى برج مسعودة)

السائق والدليل، وجدوا قوتهم بالفعل والتي استمدوها من الصحراويين في المفرزة، أما عبد الله فقد استعاد ثقته التامة، إنه شديد الاهتمام بمغامرة الشيخ الكبير، بينما كان دريدي يتدثر باستمرار على الرغم من العلاج الذي أسرف فيه.

استأنفنا رحلتنا في الصباح الباكر، وكان الوسط الطبيعي بالغ الحسن والبهاء، ونحن فهمنا أفكار أصدقائنا الذين غادرناهم، وما زلنا نذكر حديثهم الشيق وبحماسة شديدة عن العرق الذي يعيشون فيه،

---

(1) **القوم:** هم الجنود من الأهالي المجندين في الجيش الفرنسي.

(2) هكذا تقتضي القوانين العسكرية، لا بد من التعارف، وتقديم الشخصية العسكرية، فردا بعد آخر.

(3) يوجد الغزال بكثرة في العرق الشرقي، ويصطاده سكان الصحراء، ويتناولونه في وجبة شهية، وهو من أحسن اللحم المشوي.

مرتفعات عالية نقشت في الطبيعة بفعل الرياح، والتي فصلت بأشكال ضخمة حيث سيارتنا الجيب أصابت سبيلها بسهولة، ولكن وحتى تعبر من مكان لآخر، لا بد من اجتياز تلك المرتفعات المثيرة. عبد الله له كل الجرأة، ودريدي لا يتردد على المضي بالسيارة بأقصى سرعة حتى يعبر بفضل حماسته. وبعض الفجوات تفتح تقريبا أمامنا، ولكن بحركة سريعة على مقود السيارة، نتمكن من تفاديها. الخطر قد زال، والنقيب غاتينول ينظر إلي وينفجر ضاحكا. وما نقوله أن هذه الطبيعة مثيرة، وتذكرنا بقمم الجبال الثلجية،[1] والتي تولد التفاؤل والمزاج الجميل.

لا بد في بعض المرات، وبعد محاولات عديدة يكون العبور فيها غير مجدي، أن ننزل ونخفف الوزن عن السيارة المثقلة كثيرا، وفي السيف أو القمة التي نتسلقها بالأقدام، فإننا نمشي بالاعتماد على توجيهات عبد الله الذي يبقى وحده في السيارة، ويمضي صوب الطريق الذي يحسبه سهلا، فيتأخر قليلا أو يتقدم بقوة حتى يعبر في ذلك الفضاء الطبيعي ويظهر كأنه نملة ضائعة، انه يمضي بكل قوة، وفي بعض المرات نراه فوق القمة، وكأنه متأهب للقفز، والعجلات، في بعض اللحظات لا تمس الأرض، [2] إننا نجري لنلتحق به، ونأخذ أماكننا

(1) تذكره قمم الكثبان العالية بقمم الجبال الثلجية، والعلو عامل مشترك، والبعد عن السكان، فيه سكينة عجيبة يحسها مرهف الحس والشعور.

(2) يجازف السائق كثيرا، ويركب المخاطر التي تهدده بالموت إذا انقلبت به السيارة.

في السيارة التي تمضي بكل حذر، خوفا عليها من الغوص في الرمل، نحن مررنا إذن، وفق الخريطة[1] التي تساعدنا، وتزودنا بالمعلومات عن نقاط عديدة ذكرت بالأسماء التالية: بلبلات، مياد، ربايع، قبور خادم، علي باي.

الكثبان صارت منخفضة، والغرود قلت، ونحن خرجنا أخيرا، وصرنا في منخفض غدامس، في وسط حصوي[2] مرتفع وطويل، وظهر أخيرا برج مسعودة [3] حيث يوجد المهاريست[4] للماريشال **(des logis)** كالميت **(Calmet)** وذلك بعث فينا البهجة، الوصول إلى غدامس بدا كأنه لعبة، أصدقاؤنا كانوا ينتظرونا، وظنوا أننا نتأخر يوما، إن الربط بين مدينة الوادي وغدامس على متن السيارة صار أمراً محققا للمرة الأولى. [5]

(1)الخريطة لا تحدد كل النقاط على الطريق، بل تحدد المعالم الثابتة من أبراج وآبار، ولم يذكر القمايز في هذا الطريق الطويل.

(2)الانتقال من الأرض الرملية إلى الحمادة الحصوية، وهي تساعد على السير.

(3) الوصول إلى برج مسعودة على الحدود المتاخمة لغدامس، وحينئذ تحققت الرحلة، ونجحت سيارة الجيب في تحقيق الهدف المرسوم، ولولا قدم السيارات لكانت النتائج أفضل في السرعة والراحة، وتفادي العطل التقني.

(4) وجود قوات المخزن الفرنسي التابع لملحقة الوادي، وتحرس الحدود مع غدامس، وتوازيها في الأراضي الليبية قوات المخزن الايطالي، ويستعملون المهاري في قطع الصحراء والتنقل في فجاجها.

(5) لقد كان الربط بين مدينة الوادي وبرج مسعودة على الحدود مع غدامس موجود، ويتم بواسطة القوافل والجمال، وهذه المرة تحققت المعجزة، ووصل الفريق إلى الهدف، وتحقق الأمل، وصار الواقع حدثا سجل في صفحات التاريخ الناصعة.

بعد يومين من الراحة، كانت ضرورية جداً، خصوصا بالنسبة لعبد الله ودريدي اللذين بذلا جهدا كبيرا في الأيام الأربعة الأخيرة،[1] أخذنا طريق الرجوع، ثلاث مراحل هذه المرة كافية، ولكن آخر مشكل وقع لنا، هو العطل في السيارة الذي يستحيل إصلاحه، ويتحتم علينا قطع 40 كلم، إلى الوادي ـ حسب طيران الطيور ـ [2] وكان يوما بشمسه الساطعة.

ويمكن، وبعد هذه الجولة الرياضية، وبالجهود المقبولة، ويتطلب منا الأمر إن كنا نستطيع التقدم أكثر، فهذه سيارة الجيب ذات الحمولة الثقيلة، والتي قطعت مسافة أكثر من 1200 كلم[3] في ساحة شاقة وصعبة، والدليل البدوي عرف طريقه، ولا نعرف على أي إشارات استند، ولكنه مراعيا في ذلك قدرة السيارة، وهذا السائق الحضري الذي ضرب في الصحراء، ولكن رد الفعل عنده كان سريعا، وبنظرة واحدة كانت فاحصة، وعصمت من الخطر المحدق بالمجموعة، كل الثلاثة كانوا عند حسن الظن، وجميل العمل.

رئيس الكتيبة: ج. فيري (J. Ferry)

---

(1) استغرقت الرحلة أربعة أيام، انطلقت السيارات من الوادي يوم 18 مارس، ووصلت إلى برج مسعودة يوم 21 مارس 1939.

(2) **vol d'oiseau**: هي المسافة التي يقطعها الطائر في خط مستقيم، فلا تعترضه المنحنيات ولا الدروب الوعرة، وهذا التعبير عند الفرنسيين يدل على استقامة المسافة بين بعدين افتراضيين في الصحراء وغيرها.

(3) وهو التقدير التقريبي للمسافة التي قطعتها السيارات والأفراد ذهابا وإيابا من الوادي إلى غدامس الليبية.

الخاتمة

بعد عرض هذه الرحلات، ودراستها وتقييمها، والتقديم لها، والتعليق على نصوصها، يمكن جمع المتناثر من الحقائق، واستخلاص بعض القضايا الهامة:

إن للترجمة أهميتها القصوى في معرفة آراء الأعداء فضلا عن الأصدقاء، وكثير من الحوادث التاريخية التي عرفتها الجزائر، لم توثقها الذاكرة المحلية، وضربت عنها صفحا، فضاعت في طي النسيان، ولكن الأوروبي تفطن لها، وسجلها في رحلته، وأثناء زيارته لتلك المناطق، وكتب مشاهداته، وبترجمتنا لها، نساهم في أثراء سجل المصادر، التي تدعم البحث بمعلومات ثرية وجديدة.

لا بد من التنبه لما كتب، والتحفظ من الأفكار المطروحة، لأنها كانت في أغلبها صحفية، تقوم على الإثارة والدعاية، والترويج للحضارة الفرنسية المزعومة، وقلب الحقائق ـ ولو من الأهالي ـ المدعمين لفرنسا، ويعتبرونها أمهم الحنون.

تتميز الرحلات بوصف تتأجج فيه المشاعر نحو الطبيعة التي أخذت بالألباب، والتمعن في المحيط الصحراوي، الذي شدهم إليه، كأنما يشبع فراغا في ذاتهم المتلهفة لكل مجال جديد، حتى تركن إليه، وتبث إليه أشواقها، وتتحرك كوامن الرغبة في المعرفة، ومصاحبة البيئة الغريبة عن جبال أوروبا، وثلجها الذي يعلو القمم، وقارنوه بذرى الكثبان العالية، التي وقفوا مشدوهين أمام جلالها المفعم بالعطاء، ولكنها عند البدوي لا تعدو مجرد مظاهر اعتادتها النفس، وهم لا

يفكرون إلا في المعاناة أمام الرياح العاتية، والرمال الزاحفة التي تؤرقهم كلما هاجمت نخيلهم، وتصدت لقوافلهم في تلك المسالك الوعرة.

لقد كشفت هذه الرحلات عن جانب من حياة الأهالي، ومستواهم الاجتماعي في الصحراء، والفقر الذي يلاحقهم، والحاجة التي مستهم، وجثمت على نفوسهم، بينما استفاد " أصدقاء فرنسا" من الأعوان والوجهاء، الذين دعموا الاحتلال، وساندوا السلطات، ومهدوا كل السبل لاستقرار الإدارة الفرنسية بمناطق الجنوب، فعلا، توفر لهم المال والجاه والسلطان، وعاشوا حياة البذخ، وتجلى ذلك في أنماط معيشتهم، وعلى موائدهم، وفي حفلاتهم التي تدلل بوضوح عن حياة الرفاهية والهناء.

تستقطب نصوص هذه الرحلات، كل باحث عن الحقائق في تاريخ الصحراء، فيأخذ فكرة جيدة عن حياة الأهالي الاقتصادية والاجتماعية، وتطور المدن الصحراوية، وطبيعة العمران وفضاءاته المتوافقة مع نشاط وحركة الإنسان في تلك البيئة القاسية، وقد تحدى كل العوائق، فشيد الأبراج وجعلها محطات للتوقف والراحة، وحفر الآبار لتوفير الماء الضروري للإنسان والحيوان، وبنى القمايز ليهتدي بها التائه، ويعود إليها من ضل السبيل، وارتفعت المنارة في مسجد سيدي سالم بسوق مدينة الوادي، واتخذها السواح قلعة يطلون منها على الأفق الذي تتعانق معه القباب، وتتناثر الغيطان الخضراء في أطراف مدينة القباب، وكأنها باقات فواحة، يتردد عليها السكان

وكأنهم خلية نمل دائبة الحركة، أو خلية نحل تدر على المجتمع رطبا جنيا، وثمارا يانعة، حلوة المذاق، زاخرة بالعطاء، وموفرة للمال والمواد التي تقوم عليها حياة الناس، وتسد أهم ضروراتهم اليومية.

بينما كانت الثقافة شبه غائبة، إلا ما نوهت به رحلة "أصدقاء فرنسا" في الحوار الذي صحب مهرجاناتهم، وعلى هامش الجلسات العامة، حينما طرحت الأفكار ولاسيما بين الأهالي، واضطروا في بسكرة إلى ترجمة خطابات الفرنسيين، حتى تصل رسائلهم وتوجيهاتهم إلى قلوب الأتباع، وكانت الحفلات والأغاني الشعبية، والمدائح والإنشاد الديني، في الزوايا التجانية والقادرية، لأنها جزء من الثقافة السائدة، وتمتزج بالترفيه والتسلية، مما جعل خليفة القايد في بلدة حاسي خليفة، يتمنى أن الحفل نال إعجاب السواح، وهو يعتذر لهم عن كل تقصير، ولو وجد أحسن من ذلك النشاط لأتحفهم به، حتى يدخل البهجة والسرور على نفوسهم الظامئة.

وتبقى الرحلات بكل تفاصيلها، ملهمة للدارسين، الذين يتقصوا دقائقها، ويستفيضوا في تحليل أفكارها، من النواحي الفلسفية، والنفسية، والاجتماعية، المعبرة عن حياة الجزائريين الذين يتطلعون للمقاومة، التي تبلورت في الثورة التحريرية بعد أقل من عقد من الركود، واستطاعت تحرير البلاد، وبقيت الرحلات تاريخا يتلى، ونشاطا يحفظ لاستدرار المعاني، والاعتبار بالماضي الذي يكون فيه تجليات لمستقبل حضاري واعد.

الملاحق

- ملاحق الرحلة الأولى أرخبيل سوف

ملحق 01: الرحلة الأولى

ملحق 02: الرحلة الثانية

ملحق 03: الرحلة الثالثة

ملحق 04: الرحلة الرابعة

ملحق 05: المنارة التاريخية بسوف.

ملحق 06: سوق مدينة الوادي.

ملحق 07: فندق الوادي.

ملحق 08: غابات النخيل بسوف

ملحق 09: نموذج لسيارة الجيب

الملحق 01: الرحلة الأولى

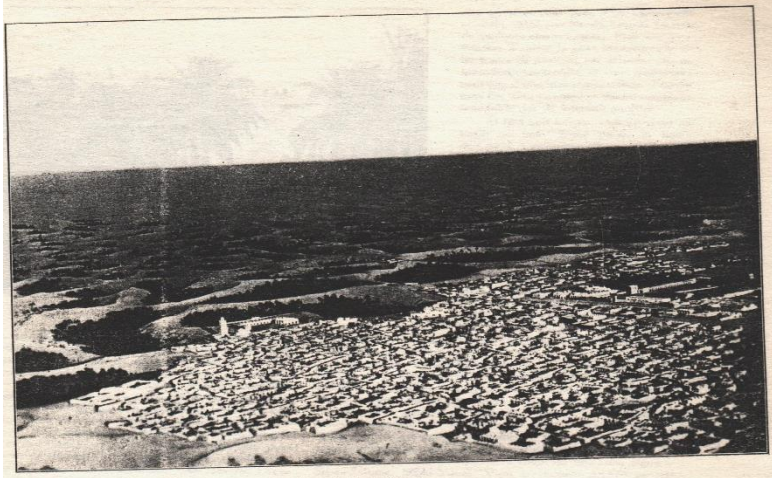

El-Oued... L'aspect d'une terre bombardée par quelque planète lointaine...

L'ARCHIPEL DU SOUF

par René VALET.

Une population de 25.000 âmes, vivant repliée sur elle-même, à peu près isolée du reste de l'univers par un Océan que les moyens de locomotion moderne franchissent depuis cinq ou six ans à peine. Une agriculture, ou plutôt une horticulture, — car il ne s'agit que de jardins, — unique au monde, des mœurs curieuses que n'a pas encore gâtées la civilisation, une architecture très particulière, puisque sur cette sphère rocheuse que piétinent les pauvres humains, cette région n'a pas un roc, pas une pierre, pas un galet. Tout cela, non aux antipodes, non dans une île perdue de Polynésie, mais à six jours de Paris et abordable à tous ! Vraiment, nous croyons connaître le monde, nous le trouvons trop petit et nous en ignorons même les régions les plus accessibles et les plus singulières.

Connaissez-vous le Souf ?

Au milieu des sables du Grand Erg Oriental, en plein Sahara, à plusieurs journées de marche de tous les autres groupes d'oasis, dans une vaste dépression à peine visible au milieu des dunes qui moutonnent à l'infini, une capitale, El-Oued, est entourée de six villes : Hamiche, Kouinine, Ourmès, Guémar, Belimna et Debila. C'est le Souf, archipel du désert et paradis des dattes.

Tout est singulier, dans cette tache de vie perdue au milieu du vide. Et s'il est exact, comme on l'a écrit, qu'un pays présente d'autant plus d'intérêt pour les touristes qu'il les dépayse davantage, le Souf mérite, à ce point de vue, une place d'honneur.

On peut, depuis quelques années, utiliser, pour visiter El-Oued, un service automobile qui part de Touggourt. Il accomplit le trajet en une journée. Mais la piste fuit vers le Nord en un large crochet, car il n'est pas de roues qui puissent lutter contre le sable impalpable et les versants vertigineux des dunes du Grand Erg. Prenez l'auto, si vous êtes pressé ou invalide. Mais si vous pouvez disposer d'une semaine, n'hésitez pas. Constituez une petite caravane : chevaux, mulets ou plutôt chameaux. C'est simple et peu onéreux. Et partez par la piste chamelière, la piste des *guemiras*. Le premier soir, vous aurez les jambes un peu raides, vous éprouverez quelque difficulté à vous asseoir. Mais l'entraînement vient vite et les joies qui vous attendent valent bien ces petits désagréments.

Un beau jour, après avoir épuisé les curiosités de Touggourt et de Temacine, le pittoresque des rues voûtées le long desquelles les oisifs flânent sur les bancs de pierre, la solitude imposante des tombeaux des Rois, la douceur du soir et la symphonie des mous-

أرخبيل سوف

Le premier jardin du Souf....

tiques dans l'oasis, la couleur et l'animation du marché où de véhémentes discussions précèdent l'achat d'une poche de dattes sèches, d'un quartier de mouton ou de vieilles bouteilles — qui expliquera l'attrait irrésistible des flacons de « Savora » vides pour les nomades? — vous vous mettrez en route, après déjeuner. Sur la place, un groupe respectueux, narquois peut-être, contemple votre équipage : une monture par personne, un ou plusieurs chameaux de charge dont les vastes *tellis* engoufreront valises, provisions, matelas et, point important : eau minérale. Cette mise en scène flatteuse et peu familière aux touristes d'Europe vous donnera une première satisfaction. Vous en aurez bien d'autres.

Votre caravane part majestueusement. Elle traverse l'oasis où les *seguias* et les *khandeks* d'eau salée coupent la croûte blanchâtre des sels magnésiens; elle suit une large avenue, bordée de palmes, puis, dans un paysage aride, longe quelques *kesour* couleur de terre cuite d'où s'échappe une marmaille criarde, mendiante et peu vêtue. Puis c'est la nudité du vrai désert, le paysage minéral sans végétation et sans vie.

A l'horizon, cependant, apparaît une ligne d'or : les premières dunes. Bientôt, vos montures piétinent ce sable merveilleux, impalpable, débarrassé de toutes particules terreuses que vous foulerez désormais pendant tout votre voyage. Sur la dune la plus proche, une haute pyramide à gradins. Monument érigé à quelque divinité inconnue ? Non. C'est plus simplement la première *guemira* qui jalonne la piste incertaine et mouvante. Tout le long du trajet, vous les verrez ces guemiras, séparées l'une de l'autre d'environ deux heures de marche, repères indispensables au milieu des dunes toutes semblables. Le fil télégraphique suit également cet itinéraire. Mais, noyé parfois dans le sable, arraché souvent par le vent, enjambant les crêtes les plus escarpées, descendant au fond de gorges de sable où il se cache, il est extrêmement difficile à suivre; rien ne vaut la guemira rassurante que l'on aperçoit, minuscule, à l'horizon et qui, lentement, trop lentement, grandit.

Dans le calme de la nuit qui arrive, vous marcherez sans hâte et sans pensée. Le sable d'or deviendra roux, puis violet dans les pentes. Le ciel rosira au couchant, alors que, par contraste, il prendra, à l'opposé, la teinte d'un jade translucide. Le silence ne sera troublé que par le piétinement des bêtes, le rauque grognement d'un chameau perpétuellement de mauvaise humeur. Peut-être passerez-vous près d'un campement nomade, salué par les aboiements furieux de quelques chiens hirsutes. Puis vous continuerez à suivre la piste imperceptible où les traces de pas sont vite effacées par un sable toujours mobile, et vous éprouverez peut-être d'obscures réminiscences d'étapes sans fin, ainsi accomplies dans un paysage semblable par de lointains ancêtres.

Il fera nuit lorsque vous arriverez au bordj où vous devez passer la nuit : M'Guitla. Construction basse à allure de forteresse, formée d'une cour qu'encadrent quelques pièces nues, elle se cache dans un repli de la dune, dans l'ombre bleue, près d'un puits primitif. Vous ferez, un peu las de cette première journée, vos préparatifs de campement. Un vieux gardien loquace, ancien tirailleur ou Saharien basané, vous fera ses offres de service, vous portera une eau saumâtre où flottent encore quelques poils de la *guerba* qui la contenait. Si vous voulez lui faire plaisir, commandez-lui un couscous — mais ne le mangez pas. Vos chameliers seront trop heureux d'absorber cette semoule où le sable crie sous la dent. Cette *merga* — bouillon aquatique — contenue dans un broc, arrive là à la suite d'on ne sait quelles péripéties.

Dînez avec vos provisions, puis, dans la chambre bien balayée — car on y trouve parfois des tarentules ou des scorpions trop familiers — couchez-vous et passez une nuit sans rêves, dans un silence intégral qui vous troublera comme un bruit trop fort.

Au petit matin, vous repartirez dans la lumière dorée. De nouveau, pendant des heures, vous vous laisserez balancer par votre monture, escaladant des dunes de plus en plus hautes, dont certaines forment, à l'horizon, de véritables chaînes de collines — des sabres, disent les Arabes, à cause de leur crête aiguë —: Sif-es-Soltane, Sif-el-Youdi. Vous traverserez parfois un pâtu-

Ce chameau méconnu, affectueux malgré son air bougon....

rage, où les touffes épineuses, espacées de plusieurs mètres, suffisent cependant à donner au paysage une teinte verdâtre. Vous vous amuserez, pendant une halte, à suivre sur le sable les traces, d'une finesse inconcevable — d'un oiseau ou d'un de ces gros scarabées noirs, si nombreux : les *khanfouss*, qui sont devenus l'emblème d'un ordre saharien fantaisiste. Puis, à l'heure chaude, au moment où vous commencerez à sentir la morsure d'un soleil impitoyable, vous découvrirez à l'improviste, dans un repli de dune, un nouveau blockhauss : le bordj Ferdjane.

Vous y ferez une halte méridienne, un déjeuner reconstituant terminé par un café que vous confectionnera le gardien. Puis vous rêvasserez, étendu, pendant les heures où la marche serait trop pénible, contemplant la curiosité du bordj, une énorme « rose des sables » qui pèse bien trente kilos, trop lourde pour qu'un collectionneur ne l'emporte.

La grosse chaleur tombée, vous vous remettrez en route. Vos chameliers *doperont* peut-être leurs bêtes en leur faisant avaler, malgré leurs grognements furieux, une épaisse purée de dattes avec leurs noyaux, délayées dans l'eau. Puis vous repartirez, « au pas lent des caravanes », balancé mollement sur la haute *rahla* qui, maintenant, vous semble moins dure, pendant que votre monture, allongeant son cou flexible, attrape au passage quelque touffe qu'en gourmet elle choisit toujours parmi les plus sèches et les plus épineuses.

Vous êtes parti depuis deux jours seulement, et il vous semble cependant que vous marchez depuis une éternité. Tout ce qui rend si pénible la civilisation et ses liens multiples, son protocole, ses rites, ses obligations, ses corvées, tout cela a disparu pour vous dans un passé lointain. Vous n'êtes plus qu'un de ces nomades,

Ces palmiers, dont seulement la tête apparaît au niveau du sol.

comme vous en croiserez peut-être un ou deux pendant votre voyage, pour qui le temps ne compte pas, qui, pour une affaire insignifiante, entreprend, à travers ces dunes toutes pareilles et pourtant différentes, un voyage sans fin. Et le soir, dans un nouveau bordj : Mouïet-el-Caïd, vous camperez encore Si la nuit est douce, faites mettre votre matelas dans les dunes, hors du bordj, car le désert est sûr. Et là, enveloppé dans vos couvertures contre la fraîcheur de la nuit, vous contemplerez ces constellations, éternelles comme l'erg où vous êtes, ces étoiles énormes, invraisemblables, qu'aucune brume ne voile, et vous éprouverez quelque gêne, peut-être, à vous endormir sous ces myriades d'yeux étincelants.

Au matin, vous partirez pour votre dernière étape. Vous cheminerez encore dans les dunes, harcelé maintenant par ces mouches du désert, innombrables et lancinantes, de petites mouches grises qui, à votre approche, jaillissent des moindres touffes, voltigent autour de vous et de votre monture en un brouillard bourdonnant. De quoi se nourrissent-elles ces mouches? Que boivent-elles ? Peut-être n'ont-elles, comme ressource, que le passage des caravanes? Et est-ce pour cela qu'elles sont si tenaces ?

Et vers midi, du sommet d'une dune un peu plus haute, vous apercevrez dans le lointain une tache verte, un bouquet de palmes enterrées dans le sable : le premier jardin du Souf. Puis dans ces larges cuvettes creusées entre les dunes, les palmiers se multiplieront, îlots verts au milieu du sable doré. Un dernier bordj où vous déjeunerez, près d'un puits où s'abreuve une caravane. Vous êtes à Ourmès, et votre lent voyage est presque terminé.

Pourquoi cette singulière culture ? Pourquoi enterrer ainsi les jardins qui sont, partout ailleurs, bien dégagés?

Le Souf, le nom de sa capitale l'indique, est traversé par un large cours d'eau souterrain, et les *Souafa*, traditionnellement, au lieu d'élever l'eau jusqu'à leurs cultures, ont creusé le sol pour planter celles-ci au niveau de la nappe humide. Leur grand travail, auquel ils se livrent sans répit, consiste à creuser ces jardins dont ils vivent, puis, ensuite, sans cesse, à les désensabler, à arrêter, par des lattis, la dune qui avance, à remonter dans des couffes le sable qui roule perpétuellement.

Sous ces palmiers, dont seule la tête apparaît au niveau du sol, ils plantent quelques légumes, oignons, fèves, carottes,

Flânez autour des puits à balancier.

citrouilles, de l'orge, du tabac, un tabac à priser très fort, qui a des vertus stupéfiantes et fait l'objet d'un commerce important. Moins important que celui des dattes, cependant, ces dattes du Souf, les parfaites *Deglet Nour*, fondantes, savoureuses, les meilleures du Sahara.

Vous allez maintenant passer entre ces jardins qui donnent au pays un aspect inattendu : celui d'une terre bombardée de quelque planète lointaine, par des obus énormes, dont les entonnoirs seraient remplis de verdure. Et bientôt, vous arriverez aux « villes » du Souf. Vous passez près de Kouinine, éclatante et nue sous le soleil inexorable, dont les mouches, le sable, la saleté aussi avaient fait une ville d'aveugles, et à laquelle une de ces salutaires « Bit el dinim », maisons des yeux, créées par l'Administration du Sud, cherche à rendre la lumière. Puis, au soir, dans la splendeur irréelle de ces couchers de soleil du Grand Erg qui, du même décor, tirent des effets toujours nouveaux, vous arriverez à El-Oued.

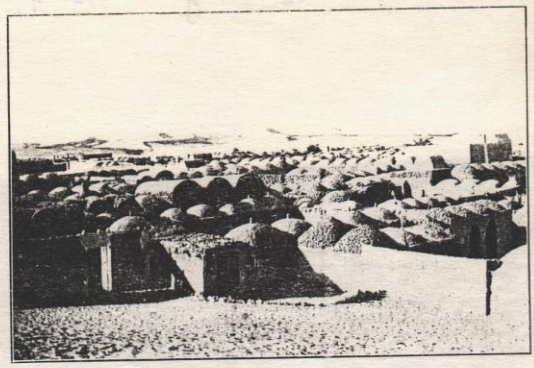

El Oued, la ville aux mille coupoles....

El-Oued, la ville aux mille coupoles! Ah! s'il vous reste encore, malgré votre voyage, quelque souvenir trop tenace de l'Europe et de ses formes familières, vous l'oublierez vite dans cette singulière cité.

Plus de terrasses ici qui supposent des charpentes, de la pierre. Rien que des coupoles, dont chacune recouvre une pièce minuscule, des coupoles innombrables qui s'étendent jusqu'aux grandes dunes, à l'horizon. Ces maisons entre lesquelles serpentent des ruelles étroites envahies par le sable, regardez-les mieux : elles sont construites sans pierre, à l'aide de ces « roses des sables » comme vous en avez vu en route. Ces cristallisations de gypse et de silice crues sont les moellons et les briques du pays. Cuites, elles donnent la chaux nécessaire au mortier. Quant au sable, c'est une matière première qui ne fera jamais défaut.

Vous ne serez pas obligé de loger dans ces refuges exigus. El-Oued vous offre des hôtels, un bureau de poste, un café, une administration, tout ce dont vous commenciez à si bien vous passer. Mais allez flâner dans les ruelles, contemplez le marché où, sur des étals rudimentaires, les bouchers exposent la viande rougeâtre du chameau, les quartiers de mouton débités d'une façon tout à fait primitive, les légumes du pays ou ces chapelets de poissons séchés qui doivent venir de Gabès. Allez voir les tisserands marchander un haik de soie ou un de ces tapis d'El-Oued aux teintes sobres, aux dessins frustes, bruns, blancs et noirs; poil de chameau, laine et poil de chèvre. Flânez autour des puits à balancier dont le grincement est un des bruits caractéristiques du pays, autour de la mosquée au lourd minaret carré dont la galerie offre la vue la plus singulière de ce pays singulier. Contemplez le moutonnement des dunes vers le Sud, vers ces points mystérieux qui s'appellent Fort-Flatters, Bir-es-Çof, Ghadamès...

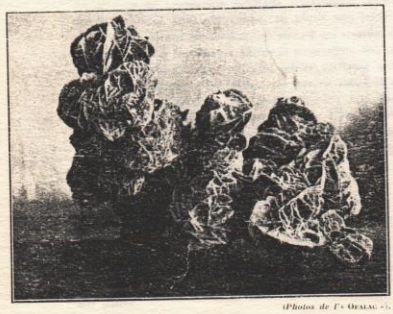

(Photos de l'« Oranie »).

La curiosité du bordj, une énorme rose des sables....

Si vous en avez le temps, poussez jusqu'à Guémar et sa célèbre zaouïa, jusqu'à Debila, jusqu'à Hamiche où campent les nomades, puis, lorsque le terme de votre voyage approchera, reprenez la piste, maintenant familière.

Peut-être aurez-vous un coup de vent de sable, ce terrible simoun des romans d'aventures. S'il est léger, comme l'*adjej* d'hiver, ce sera seulement un peu plus de couleur locale. Le ciel deviendra d'un gris plombé, presque noir. Le vent se mettra à souffler, faisant courir le sable au flanc des dunes, dressant à leur sommet une aigrette de poussière. Les dunes s'animeront, fumeront comme une mer agitée. Vous aurez roulé autour de votre tête le *chech* indispensable, et, le dos baissé, vous cheminerez sous la rafale. Le soir, au dîner, le pain craquera sous vos dents. Et, en défaisant vos bagages, à l'arrivée, au fond des valises, dans votre linge, dans le boîtier de votre montre, dans l'obturateur de votre appareil, vous récolterez assez de sable pour en offrir en souvenir à tous vos amis.

Il n'est pas de plaisir sans fin.

Vous rentrerez à Touggourt, tanné, bruni par cette semaine de voyage; vous donnerez une dernière caresse à votre monture, maintenant apprivoisée, ce chameau méconnu, affectueux malgré son air bougon et blasé, et le wagon-restaurant du « tram blanc », les bars de Biskra ne vaudront pas pour vous la boîte de conserve ouverte sur la dune, le bol de lait de chèvre, le café aquatique de Ferdjane. Plus tard, lorsque, mélancoliquement, vous chercherez, en développant vos clichés, à revivre les heures prenantes que vous avez passées, vous éprouverez une autre déception. Vos œuvres, comme les photos qui illustrent cet article, seront grises, ternes et sans relief, car Allah — le Clément, le Miséricordieux, qu'Il soit Exalté — ne permet pas aux *Roumis* d'emporter en terre infidèle un peu de la lumière du Grand Erg, un peu des horizons du Souf !

René VALET.

الملحق 02: الرحلة الثانية

(d'après une toile de l'auteur).

Fillettes d'El Oued jouant aux osselets.

Du Sud Tunisien au Souf

par Renée TOURNIOL

Je voudrais vous emmener, vous dont l'âme est comprimée dans des horizons étroits, dans les immensités du désert, au pays des dunes vermeilles! « Il faut avoir respiré là, regardé là, rêvé là, pour savoir l'intensité que peuvent prendre ces actions machinales... On garde son cerveau de civilisé et le corps et le cœur reviennent aux primitives sensations. Doublement de l'être, dédoublement de l'esprit, temps éloigné qui se rejoignent en cette molécule infime que nous sommes. » Ainsi s'exprime Isabelle Eberhardt dans des pages empreintes de l'amour le plus ardent pour le désert.

Je vais vous prier de me suivre dans une des randonnées que j'ai faites en compagnie d'une jeune Californienne, étudiante en chimie, rencontrée en Tunisie, en une petite partie de ce Sahara aux aspects si divers, malgré la légende qui en veut faire, sur toute son étendue, une plaine désolée. Aride, certes, il l'est, mais la configuration de son sol varie avec les régions; là, la Hammada pierreuse, triste et infertile; ici, la terre parsemée de touffes de végétation coriace que les dromadaires recherchent pour leur alimentation, ce qui a fait pompeusement dénommer ces régions : pâturages...; et plus cette masse herbeuse et piquante est dure, plus l'animal en est friand. La première fois que j'entendis prononcer ce mot de pâturages, j'évoquai en mon ignorance ceux de Normandie ! Inutile d'ajouter qu'ils n'ont aucune similitude...

Rapidement, je vous conduirai, de Tunis, dans le Sud de la Régence, après maintes péripéties, en cette oasis de Nefta, la plus charmante que je connaisse en raison de la variété de ses aspects, de son sol accidenté, de son oued encaissé, qu'une frondaison de palmiers formant voûte abrite, et où il est si exquis, si reposant de cheminer à dos d'âne dans le courant limpide.

A Nefta, l'organisation de notre petite caravane fut laborieuse. Fort heureusement, j'avais une lettre d'introduction pour Si Lamin, chef de la confrérie des Kadrya et un mot du Contrôleur de Tozeur pour le Cheikh du village.

Le jour fixé pour le départ, nous nous levons à l'aube et revêtons nos costumes de sport ; le ciel gris est quelque peu inquiétant ; nous attendons les chameliers qui devaient arriver à 6 h. 30 et n'amènent les bêtes qu'à 8 heures. L'étape sera longue aujourd'hui : 45 kilomètres, pour joindre le premier poste : Bordj-el-Youdi.

Les bêtes me produisent mauvais effet ; maigres, mal bâtées, soutiendront-elles l'allure normale ? Durant une heure, ce sera la lutte contre l'inertie d'Ali, le patron, petit homme bouillant, et de l'autre sokhar (guide) qui n'ont rien de ce qu'il faut pour attacher les bagages : caisses de bouteilles d'eau, de vivres, citrons, galettes de pain arabe, bougies, sans compter les colis de l'artiste peintre, non les moins encombrants; ma compagne, elle, pour son tour du monde, n'a qu'une valise (heureuse mortelle) et une seule paire de souliers, qui font à la fois l'office de babouches du matin, souliers de marche et chaussures de soirée ! C'est la course de ci de là pour l'achat de cordes. Mais, en l'occurrence, que sont les paroles d'une femme ? Nous avons tout lieu de regretter l'absence d'une autorité masculine.

Nous voici en selle, adoptant pour le départ la position à

3

من الجنوب التونسي إلى سوف

d'après une toile de l'auteur.

Scène de famille. — Fabrication du Couscous.

califourchon sur la croupe. Une forte réaction en avant : l'animal a déplié ses longues pattes postérieures; une en arrière : il s'est dressé sur les genoux ; une troisième plus douce : il a tendu tous ses membres. En route !

Ma compagne, malgré qu'elle en soit à son voyage d'essai, me dit être « très confortable » et en quelque condition qu'elle se trouvera durant ces quatre jours, cette phrase résonnera agréablement à mes oreilles : « Je souis toujours très confortable. »

Mes précédentes randonnées s'étaient effectuées à méhari en rahla, la selle des Touareg et des Chaâmba, placée en avant de la bosse ; les pieds posent sur le col de l'animal et des pressions plus ou moins fortes servent à en varier l'allure. Je préfère cette manière de monter à toute autre, bien qu'elle nécessite une plus grande pratique de l'équitation, l'équilibre étant bien plus instable.

Bientôt, voici, à notre gauche, le Chott Djerid. Nous descendons dans une dépression qui, maintenant asséchée, en faisait partie. Le sol craquèle sous les pas. Puis, c'est la monotonie du terrain, sable durci et touffes de végétation où les feuilles racornies semblent plutôt des aiguilles...

Midi ! rien dans l'estomac. Coupable négligence de n'avoir pas laissé de ravitaillement à notre portée. La pensée de défaire les bagages arrimés avec tant de peine nous fait renoncer au repas ! Pour ma Californienne, la cigarette qu'elle fume sans arrêt, remplace tout...

Le terrain ne varie pas. Le soleil décline sans rien des temps enchanteurs que vous pouvez vous figurer. Le croissant de lune paraît pour nous guider. Sept heures. Bordj-el-Youdi apparaîtra-t-il bientôt ?

Je m'efforce d'apercevoir ses quatre murs de toub. Les regards perçants de mes hommes l'ont découvert, mais il me faudra aller encore une heure pour m'assurer de la réalité. Une masse carrée surmontée de deux ou trois coupoles ; un haut et large portail de bois donnant accès sur une cour intérieure où s'alignent des boxes pour les animaux : un corps de logis pour le gardien, un autre pour les hôtes de passage. Nous pénétrons dans une pièce où des Arabes causent, fument, boivent le thé, éclairés seulement par la lueur d'un feu de bois dans un âtre à l'européenne. A notre entrée il règne quelque confusion. Contiguë, une autre pièce au sol cimenté, éclairée par des meurtrières, fermée par des volets dont je dois boucher les interstices avec du papier, car le vent siffle, apportant du sable. Comme mobilier : une longue table, un banc, un porte-manteau. C'est la pièce que nous adoptons, mais tout un corps de garde veille à notre porte, et, la nuit, si nous voulons sortir, ce sont maints corps étendus que nous devrons enjamber... Je ne tarderai pas à apprendre par le Capitaine du Bureau arabe d'El-Oued que ces deux pièces doivent être réservées aux Européens, mais ceux-ci étant très rares, le gardien ne se gêne pas pour y loger ses coreligionnaires.

Les chameaux, déchargés, ont été rentrés dans la cour, nos colis dans notre chambre. C'est alors le moment rêvé des collectives ablutions dans un seau d'eau, chichement mesurée, car il faut la puiser assez loin. Dans tous ces voyages, je remarque que c'est l'impossibilité où l'on est (du fait de l'absence de porte ou de liquide) de faire une toilette complète qui est le plus pénible... On s'habitue à dormir sur la dure, on ne souffre pas du manque de confort, d'une nourriture plus rare, on supporte les étapes, mais on paierait cher de pouvoir à son aise... barboter !

C'est après qu'on songe à dîner avec les conserves apportées et des œufs. Du thé nous est fait par Ali. J'ai bloqué notre porte avec la caisse d'eau, puis, chacune à notre gré, ma compagne sur le sol, moi sur la table, nous nous étendons. A côté, c'est le bruit assourdissant des conversations. Sachant qu'au coin du feu les Arabes sont capables de deviser ainsi toute la nuit, je me relève pour leur imposer silence. Nous avons besoin de réparer nos forces.

Malgré le vent qui hurle et la dureté de la couche, je passe une excellente nuit. A six heures et demie, branlebas général. Un brin de toilette, quelques aliments, le café ; la sortie dans l'air très vif du matin. Le bordj en terre rosée est tout animé ; le ciel s'est dégagé, nous allons à pied dans un sentier vaguement tracé par les caravanes successives, car nous avons bien le temps d'immobiliser nos jambes.

Le sol s'accidente des embryons de dunes. A neuf heures le soleil darde ; nous faisons une courte halte à l'abri d'une touffe de diss (sorte de genêt) et un pot de confitures fait les frais du festin.

La caravane de l'artiste à Mouyet el Caid. — Le puits. — La guemirah.

La vie au désert est faite de mille choses insignifiantes, mais qui, en ces immensités désolées, prennent de l'importance... On arrive à observer le moindre détail du sol ; parfois aussi la pensée s'engourdit, incapable de tout effort... c'est l'oubli de tout, on va, on va... ; il m'est arrivé, des heures durant, dans un précédent voyage, de contempler la silhouette de mon mokhazeni et l'allure de son beau méhari ; cela suffisait à mon esprit. Puis, les scènes de la vie quotidienne viennent y apporter quelque diversion ; aux différentes heures prescrites par le Coran, l'Arabe, ici comme à la ville, ne néglige pas sa prière et les génuflexions qui l'accompagnent, le front parfois dans la poussière, sur le sol ; l'eau des ablutions est remplacée par le sable avec lequel il se frotte le visage, les bras, les jambes.

Autre spectacle est le mirage si décevant pour le voyageur las et assoiffé. Par ici il est rare. J'ai vu les plus précis, les plus étonnants dans le Hodna en allant à Bou-Saâda.

(d'après une toile de l'auteur).

Un jardin dans les dunes du Souf.

A quatre heures et demie, sur une proéminence sablonneuse entourée de quelque végétation, apparaît le Bordj El-Hadel en tout semblable au précédent.

L'étape n'a été que de 30 kilomètres.

La nuit est venue ; la lune inonde tout d'une clarté blafarde. A la lueur d'un brasier constitué avec des plantes sèches et coriaces du désert, nos gens font le pain. Je ne connais rien d'aussi beau que l'opposition de ces deux lumières sur ce groupe aux figures vivement colorées, alors que courent sur leur burnous et leur turban des tons froids, bleutés, qui viennent mourir en teintes infiniment subtiles (que chaque artiste verra avec des yeux différents) et s'amalgamer avec les reflets du feu.

Une peau de chèvre a été étendue et la pâte, composée de farine d'orge, d'eau et de sel, pétrie en galette ronde de deux doigts d'épaisseur ; un trou de 0 m. 40 environ de profondeur a été creusé dans le sable ; les braises les plus ardentes du foyer ont formé un premier lit sur lequel Ali a posé la galette ; une seconde couche de charbons, non moins rouge, a recouvert le pain, puis le trou a été comblé avec le sable... Je me récriai que la galette serait brûlée : « Tu verras, Madame, attends. »

Effectivement, après une demi-heure environ, Ali a creusé et, sous les charbons noircis, a retiré le plus joli pain doré qu'il soit possible de voir ! Quelques pichenettes... et nous goûtons : exquis !

Il est vraiment merveilleux de voir avec quelle modicité de moyens les Arabes arrivent à subvenir à leurs besoins, dans le sens pratique. Ils ne compliquent pas la vie ; simple elle était, primitive elle est restée et je leur en sais gré, très attachée aux vieux usages.

Réveil le lendemain de grand matin. La journée s'annonce magnifique ; pas un souffle. Le terrain, bosselé jusqu'alors, a vu ses ondulations s'étendre, s'élever ; la végétation est devenue plus rare ; nous approchons de la région du Souf. Voici même une dune que nous gravissons à pied. Tout autour de nous se trouvent de blondes vagues figées momentanément, car la configuration en varie avec les vents.

Je n'ai pu persuader ma Californienne de garder son couvre-chef et son teint cramoisi m'inquiète : cheveux au vent, les manches retroussées, les jambes prises dans ses molletières de laine quadrillée, son unique paire de chaussures ayant pris des formes de jonques, la cigarette aux lèvres, elle va, enthousiasmée, photographiant à outrance les choses les plus lointaines.

Le sol change : des dépressions humides, lits de quelques oueds, sans doute, où l'on trouve les embryons de ces curieuses roses de sable et parfois des spécimens des mieux formés.

Soudain, vers midi, à l'horizon, une bande sombre contraste avec ce qui nous environne. La première palmeraie : Hassi-Khalifat, à 10 kilomètres de Debilah où nous reposerons ce soir.

Voici la première grande Guémirah, cubes de maçonnerie superposés, terminés de façon conique, ou amoncellement de grosses pierres servant de points de repère dans ce pays où il ne saurait exister de routes, le sable envahissant tout. Court arrêt pour prendre quelques aliments.

Voici le village. Que dire de la couleur de ces étranges constructions basses, voûtées, où quantité de coupoles s'appuient les unes aux autres pour diminuer intérieurement l'action solaire ! Le tout est gris, terni, triste, et l'œil du peintre n'est pas satisfait. Beaucoup de ces villages sont construits avec des embryons de roses de sable agglomérés avec de la chaux.

Hassi-Khalifat, village d'un millier d'habitants. Intense est la chaleur. Mes compagnons se sont réfugiés chez des amis à la porte desquels je frappe. Je bois avec délice les deux tasses de thé qui me sont offertes, puis vais m'étendre sous les palmiers.

Une heure après, tous réunis, nous reprenons notre marche : deux ou trois palmeraies puis, à nouveau, les blondes ondulations. Nous rejoignons une petite troupe de musiciens se rendant à Debilah pour un mariage : le joueur de *rhaïta*, sorte de clarinette, s'époumonne, les joues démesurément gonflées dans son instrument, au pas accéléré, tandis que la *derboukа*, à contre-temps, scande le rythme. Cela ne manque pas de charme et c'est ainsi que nous faisons notre entrée à Debilah, seconde oasis, plus importante, dont les maisons en ruines semblent témoigner d'un récent cataclysme ; ce sont des pluies abondantes qui les ont, tels des morceaux de sucre désagrégées...

Précédées, suivies de gens, nous cherchons la maison du caïd, pour lui remettre mes lettres de recommandation. Une ruelle nous conduit sous une voûte où des Arabes d'un certain rang devisent. Des salves de tromblons éclatent, prélude des divertissements de noce ; tout en est ébranlé ! La charge de poudre mise dans ces fusils à large embouchure est telle que parfois, les indigènes paient de leur vie cet amour du bruit.

Le caïd Si Sahia est absent, mais son fils d'une trentaine d'années nous introduit dans une pièce bien quelconque, au sol de terre battue ; vieux objets, mobiliers européens, paperasses

poussiéreuses sur un bureau. Là se réunissent les membres de la Djemaa ou Conseil Municipal, le caïd faisant fonction de Maire.

En attendant le thé, nous devisons. Puis, précédés du *daïra*, — à la fois homme de confiance, gendarme, serviteur — précédés, dis-je du daïra Si Lakhdar au turban évasé, élevé, entouré d'une corde en poils de chameau, à l'ample burnous vieux bleu liseré de vermillon, signe distinctif d'une autorité, d'un pouvoir qui s'exerce sur ses semblables, nous allons au bordj : une multitude d'hommes, d'enfants, nous escorte et entre, sans plus de gêne, à notre suite, dans la chambre spacieuse qui nous est destinée. Un tapis et un matelas nous sont apportés. Oh ! confort ! Au milieu de la curiosité générale, nous devons déballer accessoires de toilette, conserves, etc. Un peu de liberté nous serait agréable : je dis à Lakhdar d'évacuer ces indiscrets qui, refoulés au dehors, persistent à demeurer devant la porte.

Rafraîchies, relativement propres, nous sortons. Le soleil décline. Visite au village précédées du représentatif Lakhdar : la cohorte s'est mise en marche à notre suite.

Quelques paroles sont échangées à la porte d'entrée d'une cour entre notre daïra, qui ne saurait pénétrer, et les hôtes ; nous voici dans un vaste enclos, au fond duquel s'élèvent quelques maisonnettes. Des groupes sombres sont formés d'où jaillissent les éclats des foulards de tête et des bijoux ; le noir uniforme est parfois égayé de manches de tulle de différentes couleurs, forme pagode. Notre entrée cause stupeur et crainte, mais, petit à petit, quelques femmes s'enhardissent à s'avancer vers nous, infiniment plus belles qu'en Tunisie, les yeux mieux formés. Il est à remarquer, du reste, que la race arabe de la Tunisie est affadie, sans caractère ; c'est en Algérie qu'on rencontre les types les plus parfaitement beaux ; au Maroc, les masques les plus expressifs, farouchement caractérisés.

Puis, c'est le retour au bordj.

Enfin seules ! Cet isolement ne dure pas longtemps. Un heurt à la porte ! Si Lakhdar se présente et nous dit : « Le khalifa (voyez assesseur du caïd) te fait dire de venir dans une salle à côté pour une fête en votre honneur. » Impossible de refuser une si aimable invitation, dont ma compagne est ravie.

Dans une longue salle voûtée à arcades, qu'éclairent deux lampes à acétylène, sont accroupis une cinquantaine d'Arabes. Nous prenons place sur un banc aux côtés du khalifa Si Lassem qui nous souhaite la bienvenue en un français qu'il essaye vainement de rendre correct.

En face de nous, les musiciens commencent leur assourdissant concert ; la résonnance sous la voûte basse est effarante. Un nègre, d'un certain âge, le mouchoir serré sur les hanches, pour en souligner les déplacements, exécute, telle une femme, maintes figures, jusqu'à ce que son visage, imprégné de sueur, demande grâce.

Nous applaudissons. Un entr'acte qui me permet d'exprimer tout notre gratitude au khalifa, le priant de la transmettre à la foule. Dans le silence, ses paroles portent. Un chœur de remerciements de ces gens, heureux, disent-ils, de nous être agréables. « Nous avons pensé que la soirée serait bien triste pour vous et, ici, nous n'avons pas d'autres distractions », a ajouté Si Lassem.

Vraiment, quelle singulière idée se serait faite de nous tout Européen qui aurait pu jeter un coup d'œil sur cette réunion d'hommes encadrant deux femmes de race différente, loin de ce qui leur est familier ! Et nous nous sentions si en sécurité, si respectées !...

Le lendemain, départ à neuf heures, à pied. Vingt kilomètres nous séparent d'El-Oued. Si Lakhdar nous accompagne, porteur d'une bouteille de lait qu'il veut m'offrir...; je me contente d'en boire quelques gorgées.

Au haut d'une dune dominant l'hospitalière Debilah, nous le photographions avec son fils. Près du dernier bouquet de palmiers, un jeune indigène immobile, monté sur un splendide mulet blanc, semble un cavalier envoyé là pour un dernier salut aux hôtes de passage... ô force de l'imagination ; poésie ! Il accourt vers nous et... toutes nos illusions s'envolent quand il demande l'aumône d'un *douro*. Nous passons, rejoignant un exquis petit groupe avec lequel nous cheminons la matinée. Un de ces minuscules ânes beiges, zébrés de brun, trottine, monté par un gamin suivi d'un négrillon courant.

Au loin, devant nous, deux silhouettes sombres : seraient-ce des femmes cheminant seules à travers le Sahara ? Mais oui, elles se rendent à Bekima pour une fête. Notre caravane sera augmentée de Barka et de Soussia, fort peu loquaces, quoi que je fasse. Notre manière d'être est si différente de la leur qu'elles se sentent un peu effarouchées, surtout en un pays où peu d'Européennes ont circulé.

Presque toujours en avant de nos bêtes, cette modeste caravane a le don de vivement m'intéresser et je voudrais la « croquer », mais le bercement auquel je suis soumise, sur mon chameau, ne le permet guère.

A six kilomètres, voici Bekima dont je n'ai guère souvenance. Triste village du Souf, précédant la région des hautes dunes et ayant acquis quelque notoriété du fait de la blessure qu'Isabelle Eberhardt y reçut.

Après, c'est l'erg, la mer de sable tourmenté dont rien ne peut donner l'idée.

Les bêtes se traînent lamentablement. Nous décidons de les soulager, mais le sol enfonce de plus en plus, rendant la marche à pied très difficile. A chameau, il faut se livrer à de savantes acrobaties pour demeurer en selle, surtout quand il aborde les descentes, craintivement d'abord, puis trottant lorsqu'il arrive à la fin du plan incliné ; à ce moment, je tremble plus pour les bagages que pour moi, car eux ne réagissent pas et tout brinqueballe.

Les hautes dunes ! L'impression en est inoubliable et il faudrait une plume autre que la mienne pour en rendre la sublime

Une fillouse nomade du Souf

(D'après une toile de l'auteur).

grandeur. Le soleil perpendiculaire en efface toute l'ombre ; il est onze heures. Le ciel n'a pas la teinte bleue que vous pourriez imaginer ; il est infiniment azuré, tendre, et compose avec la dune la plus douce des harmonies, bien qu'à son contact, à son sommet, elle ait revêtu par contraste un ton cadmium plus soutenu.

De cette succession de blondes vagues figées, sans ombre, sous le soleil, se dégage une saisissante impression, une aveuglante lumière. Il faut arriver au pied de chacune pour se rendre compte de sa hauteur, de la dépression qui lui succède. C'est la solitude plus grande que partout ailleurs. Un implacable silence. Pas un atome de verdure.

Obligées parfois, par suite de leur pente trop raide, de contourner les dunes, nos vingt kilomètres se développent. Impossible de prendre du repos ni de manger dans cet élément surchauffé; puis le vent s'élève, le sable commence à voltiger, à tourbillonner bientôt en panache ; l'atmosphère devient de plus en plus étouffante ; à l'horizon, le ciel s'est plombé, signe inquiétant...

Deux heures de marche encore, disent les *sokhars ;* mais la nature s'agrémente de touffes de diss, de drinn ; les entonnoirs abritent quelques palmiers. Ces jardins deviennent plus nombreux, les dunes ont des arêtes vives et tranchantes sur lesquelles des branches de djerid (palmes) ont été plantées, serrées pour éviter la descente de ces cimes dans les cultures, car chaque cuvette abrite un jardin potager irrigué à l'aide de puits à bascule.

J'emprunte une fois encore la plume si éloquente d'Isabelle Eberhardt pour vous dire mieux que moi ce qu'est ce pays où elle vécut quelque temps :

« Les jardins du Souf sont de vastes entonnoirs creusés de main d'homme entre les dunes et de profondeur variable selon le degré de profondeur de la couche d'eau souterraine. L'architecture de ces jardins encavés est assez curieuse. D'un côté, ils offrent une pente accessible, et là se trouvent les puits à armature en troncs de palmiers, à bascule et contrepoids, avec, d'un bout, une grosse pierre attachée par une corde et, de l'autre, une « oumara » en cuir, sorte de panier plat suspendu au bout d'une corde. Autour des puits, on voit des cultures potagères, les jeunes palmiers et les espèces basses. Les plus hautes se trouvent vers les murailles presque perpendiculaires opposées aux puits et dont la crête est hérissée de djerid pour empêcher l'ensablement.

« ...Pays à nul autre semblable : en été, la nuit, l'oreille du voyageur y est frappée par une voix immense, plaintive et douce qui s'élève des entonnoirs innombrables : ce sont les ouvriers Souafa qui désensablent les jardins, remontant patiemment le sable lourd dans des couffins, sur leurs épaules... Chaque nuit, ce travail de fourmis est fait, et, le lendemain, le vent éternel du Souf vient anéantir le labeur nocturne. Dans le grand silence des nuits tièdes, ce chant plaintif, en notes mineures, porte avec lui un étrange frisson de tristesse, presque une anxiété. . »

Soudain, une vision de coupoles minarets, palmiers... El-Oued Souf, la ville aux mille coupoles ! La bourrasque augmente, le sable nous masque tout ; je m'enveloppe dans mon cheich ; l'étudiante californienne a mis ses lunettes d'auto... C'est la tempête, près du port, heureusement ; une descente rapide, une montée non moins raide, nous faisons notre entrée à El-Oued. Il est trois heures.

La place du marché avec la halle aux grains, une étroite ruelle, un douanier apparaît : « Vous n'avez rien à déclarer ? » C'est vrai, nous ne sommes plus en Tunisie ! Une sorte de large avenue plantée de deux rangées de poivriers, bordée de basses maisons, bâtiments divers, bureau arabe. Devant une tonnelle ornée de plantes grimpantes, le très modeste hôtel Sagnier, nous baraquons. Finie la vie nomade !

« ...Oh ! le doux assoupissement des sens et de la conscience, dans la monotonie de la vie aux pays du soleil ! Oh ! la douce sensation de se laisser vivre, de ne plus penser, de ne plus agir, de ne plus s'astreindre à rien, de ne plus regretter, de ne plus désirer, sauf la durée indéfinie de ce qui est ! Oh ! la bienheureuse annihilation du moi, dans cette vie contemplative du désert! »

Renée TOURNIOL,
Artiste-peintre.

(D'après une toile de l'auteur)

El-Oued. — Un vieux marabout.

الملحق 05: الرحلة الثالثة

NUMÉRO SPÉCIAL

La Voix Indigène

ONZIEME ANNEE N° 475.

Journal d'Union franco-musulmane

R. ZENATI, Directeur

JEUDI 13 AVRIL 1939.

TELEPHONE : 30-83

CHEQUES POSTAUX ALGER 133-50

REDACTION ET ADMINISTRATION : 4, Rue Laperrine. — CONSTANTINE

LA VOIX INDIGENE est désigné pour l'insertion des annonces légales, judiciaires et autres exigées pour la validité de la procédure

NUMERO : 0 fr. 40

Abonnement annuel: 30 fr.

CASINO

Municipal de Cons

LES « AMIS DE LA FRANCE

EL MIAD-EL-KHEIRI

Assemblée Générale Statutaire des 20, 21, 22, 23, 24 et 25 Mars 193

de BISKRA

Une assemblée générale de six jours, dira-t-on, quelle profusion ! Oui, car le temps est toujours court pour ceux qui travaillent consciencieusement. Les six jours d'El Miad El Khéiri ont été bien remplis, un peu trop remplis, peut-être. C'est

Membres du Bureau de l'Association, de retour de Paris.

12 h : Déjeuner intime chez le Cheikh El Arab.

18 h. : Assemblée générale dans les bureaux du Président.

20 h. : Dîner chez le Caïd Ferhat

rencontré partout un accueil cordial, une confiance sans limites et quelquefois un enthousiasme de bon aloi. Partout la population s'est portée à leur rencontre, musique en tête et déploiement d'étendards et de drapeaux tricolores.

On sentait que cet-

voir accompli notre devoir. Une fois à Paris, nous avons agi pour les intérêts de nos coreligionnaires.

Nos élus : deux Délégués financiers, un vice-président du Conseil un membre du Conseil supérieur, un membre de la Chambre d'Agricultu-

digène sa grosse influence, les autres membres de la Délégation ont agi, chacun dans sa sphère et selon ses moyens. Nous avons conscience d'avoir bien travaillé et nous nous proposons de recommencer toutes les fois que l'occasion s'en présentera.

la pratique du bien, nou vions parvenir qu'à des ré norables. Le succès immé rant de l'œuvre d'avenir persévérerons dans l'effo repousserons du pied les c telligemment discuté, le r

أصدقاء فرنسا في الجنوب الشرقي

أو جماعة الميعاد الخيري

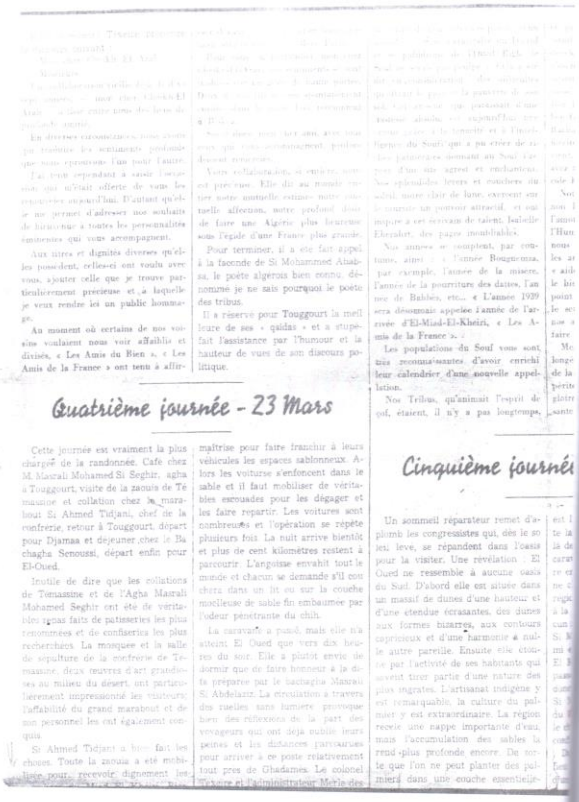

Aux titres et dignités diverses qu'elles possèdent, celles-ci ont voulu avec vous, ajouter celle que je trouve particulièrement précieuse et à laquelle je veux rendre ici un public hommage.

Au moment où certains de nos voisins voulaient nous voir affaiblis et divisés, « Les Amis du Bien », « Les Amis de la France » ont tenu à affir-

Quatrième journée - 23 Mars

Cette journée est vraiment la plus chargée de la randonnée. Café chez M. Mazrali Mohamed Si Seghir, agha à Touggourt, visite de la zaouia de Témassine et collation chez le marabout Si Ahmed Tidjani, chef de la confrérie, retour à Touggourt, départ pour Djamaa et déjeuner chez le Bachagha Senoussi, départ enfin pour El-Oued.

Inutile de dire que les collations de Témassine et de l'Agha Mazrali Mohamed Seghir ont été de véritables repas faits de pâtisseries les plus renommées et de confiseries les plus recherchées. La mosquée et la salle de sépulture de la confrérie de Témassine, deux œuvres d'art grandioses au milieu du désert, ont particulièrement impressionné les visiteurs. L'affabilité du grand marabout et de son personnel les ont également conquis.

Si Ahmed Tidjani a bien fait les choses. Toute la zaouia a été mobilisée pour recevoir dignement les

maîtrise pour faire franchir à leurs véhicules les espaces sablonneux. Alors les voitures s'enfoncent dans le sable et il faut mobiliser de véritables escouades pour les dégager et les faire repartir. Les voitures sont nombreuses et l'opération se répète plusieurs fois. La nuit arrive bientôt et plus de cent kilomètres restent à parcourir. L'angoisse envahit tout le monde et chacun se demande s'il est chez dans un lit ou sur la couche moelleuse de sable fin embaumée par l'odeur pénétrante du chih.

La caravane a passé, mais elle n'a atteint El Oued que vers dix heures du soir. Elle a plutôt envie de dormir que de faire honneur à la diffa préparée par le bachagha Mazrali Si Abdelaziz. La circulation à travers des ruelles sans lumière provoque bien des réflexions de la part des voyageurs qui ont déjà oublié leurs peines et les distances parcourues pour arriver à ce poste relativement tout près de Ghadames. Le colonel Vicaire et l'administrateur Merle des

Cinquième journée

Un sommeil réparateur remet d'aplomb les congressistes qui, dès le matin, lève, se répandent dans l'oasis pour la visiter. Une révélation ! El Oued ne ressemble à aucune oasis du Sud. D'abord elle est située dans un massif de dunes d'une hauteur et d'une étendue écrasantes, des dunes aux formes bizarres, aux contours capricieux et d'une harmonie à nulle autre pareille. Ensuite elle étonne par l'activité de ses habitants qui savent tirer partie d'une nature des plus ingrates. L'artisanat indigène y est remarquable, la culture du palmier y est extraordinaire. La région reçoit une eau importante d'artésiens, mais l'accumulation des sables la rend plus profonde encore. De sorte que l'on ne peut planter des palmiers dans une couche essentielle-

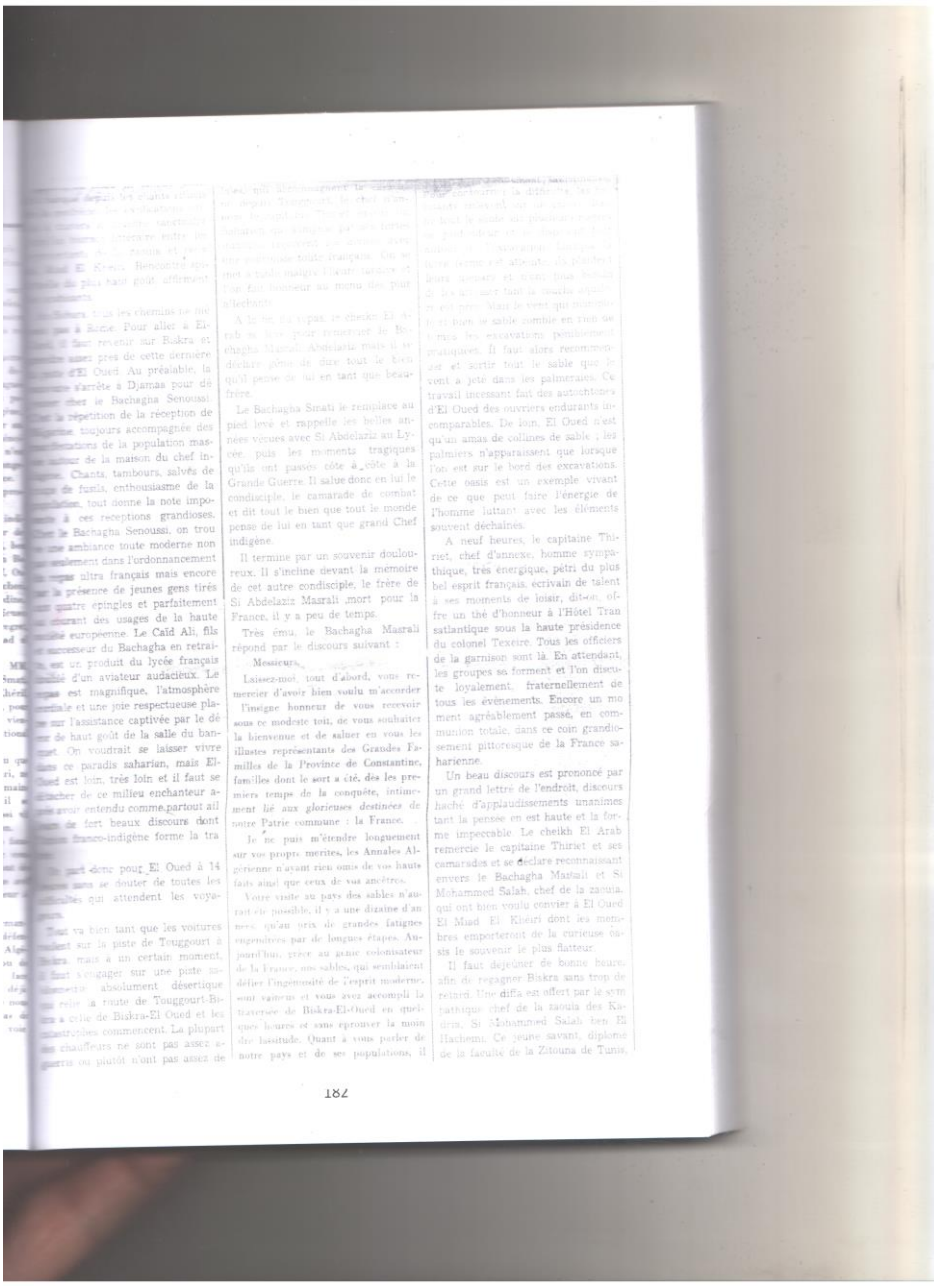

Le Bachagha Smati le remplace au pied levé et rappelle les belles années vécues avec Si Abdelaziz au Lycée, puis les moments tragiques qu'ils ont passés côte à côte à la Grande Guerre. Il salue donc en lui le condisciple, le camarade de combat et dit tout le bien que tout le monde pense de lui en tant que grand Chef indigène.

Il termine par un souvenir douloureux. Il s'incline devant la mémoire de cet autre condisciple, le frère de Si Abdelaziz Maarali mort pour la France, il y a peu de temps.

Très ému, le Bachagha Maarali répond par le discours suivant :

Messieurs,

Laissez-moi, tout d'abord, vous remercier d'avoir bien voulu m'accorder l'insigne honneur de vous recevoir sous ce modeste toit, de vous souhaiter la bienvenue et de saluer en vous les illustres représentants des Grandes Familles de la Province de Constantine, familles dont le sort a été, dès les premiers temps de la conquête, intimement lié aux glorieuses destinées de notre Patrie commune : la France.

Je ne puis m'étendre longuement sur vos propres mérites, les Annales Algérienne n'ayant rien omis de vos hauts faits ainsi que ceux de vos ancêtres.

Votre visite au pays des sables n'aurait été possible, il y a une dizaine d'années qu'au prix de grandes fatigues engendrées par de longues étapes. Aujourd'hui, grâce au génie colonisateur de la France, nos sables, qui semblaient défier l'ingéniosité de l'esprit moderne, sont vaincus et vous avez accompli la traversée de Biskra-El-Oued en quelques heures et vous éprouver la moindre lassitude. Quant à vous parler de notre pays et de ses populations, il

ınée – 24 Mars

est l'espoir de la confrérie et de tou
te la région. Son influence va au-de-
là des frontières et l'affluence que la
caravane trouve autour du sanctuai-
re en est la preuve éclatante. Le jeu
ne chef est l'idole des Kadrias de la
région qui l'ont porté spontanément
à la tête de la confrérie. Avec lui au-
cun malentendu n'est plus à craindre
Si Mohammed Salah ben El Hache-
mi est d'ailleurs membre d'El Miad
El Kheiri, dès sa constitution. Son
passé, sa haute culture garantissent
donc son avenir...Fait à remarquer:
Si Mohamed Belhadj Bengana, fils
du Cheikh El Arab, est admis, sur
le champ, comme membre actif de la
confrérie des Kadrias.

Dans la cour de la zaouia, au mi-
lieu d'une affluence considérable et
d'un enthousiasme délirant, de fort

de l'aimable attachement qu'elle a
toujours voué aux autorités et bienveillantes et la propriété
due en échange à leur égard.

» Vous êtes, Monsieur le Maire, pour beaucoup dans cet ensemble d'heureuses circonstances : vous les avez déterminées par votre bonté unanimement reconnue, votre large esprit de tolérance et votre souci de bon Français d'assurer à votre Patrie l'avenir radieux auquel elle a droit après l'œuvre grandiose réalisée dans ce pays.

» Nous avons aussi la bonne fortune de posséder en M. Byr, un administrateur conscient de son beau rôle, au courant de nos besoins et bien disposé en faveur des indigènes en général et de ceux de sa circonscription en particulier. Sa bienveillante attention pour les Amis de la France ne s'explique pas autrement.

» Nous devons aussi exprimer toute notre reconnaissance à nos édiles dont l'accueil sympathique nous va droit au cœur. Nous les prions de transmettre à la population entière notre bien vive gratitude.

» Nous rentrons de tournée et nous sommes tout heureux de déclarer que la cordiale réception qui nous a été partout réservée a été au-delà de nos espérances. Aux Autorités du Territoire, au distingué colonel Téxeire, au capitaine Thiriet, aux populations du Sud que nous venons de traverser, nous adressons notre plus amical souvenir et l'expression de nos plus vifs remerciements.

» Je suis certain que nos adhérents repartiront avec l'impression la plus favorable et qu'ils garderont de Biskra et de toute la région qu'ils viennent de traverser le plus impérissable des souvenirs.

» Vous avez tous, Messieurs, contribué à fortifier en nous les sentiments qui nous animent dans l'œuvre généreuse que nous entreprenons. Vous aurez contribué à resserrer davantage les relations d'amitié franco-indigène. Vous faites faire un pas bienfaisant à la compréhension et à la collaboration dont dépend l'avenir de l'Algérie. Par votre bienveillante attitude, vous consacrez l'œuvre ge-

Par le chiffre de ses
pole a ouvert ses
Je me suis que les Français mu
ront toute la valeur de son patrimoi
un moment mettre en doute l'unité de notre
empire et nous en avons, par des ré
vendications incontestées.

Vous avez rappelé, la valeur morale de cette Afrique du Nord où, de
puis tant d'années, les efforts conjugués
et la collaboration confiante des po
pulations européenne et indigène
nous permettent à tous, de penser au
jourd'hui avec un sentiment de sinc
rité profonde, que notre Pays n'e
pas une colonie, mais le prolong
ment naturel et réel de la France.

El Miad el-Kheiri restera l'expre
sion vivante de cette affirmation.

Les grands noms des familles ind
genes qui se sont groupés autour d
vous, tels que les ben Ali Chérif, b
Sassi, Mohamed ben Mostefa ben E
dis, Smati, Daoudji, Ben Chenouf, C
rahah, Ben Habylès, Sisbane, Mech
Benadib, Ben Yacoub, Boumerediz
les membres des confréries religieu
et tant d'autres, que j'oublie à reg
donnent à l'association d'El Miad
Kheiri un significatif éclat.

Je n'omettrai pas d'adresser à
M'hamed ben Sassi, Mohamed Su
Daoudji et Allaoua ben Ali Ch
mes vives et sincères félicitations,
les très hautes distinctions, qu'ils v
nent de recevoir dans l'ordre nati
de la Légion d'Honneur.

Il faut espérer, que le flambeau
vient d'allumer el Miad el Kheiri
s'éteindra jamais, et que de vos m
vous, qui en êtes les artisans, il
transmettra et brillera d'un aussi
éclat, de génération à génération.

Votre exemple, vos traditions f
liales, votre amour pour notre
mune Patrie et pour la Paix, son
bases solides sur lesquelles vous
édifié une œuvre qui fait honne
tous les enfants d'Algérie.

Si notre grand pays nous de
dait de soutenir son œuvre, et
dre ses libertés menacées, nous,
riens, sans distinction de race
religion, nous montrerions à la
du monde, comme nous l'avons
fait en 1914, que cette union qu
reaffirmons aujourd'hui, n'est p
nature à être diminuée dans la
du sacrifice.

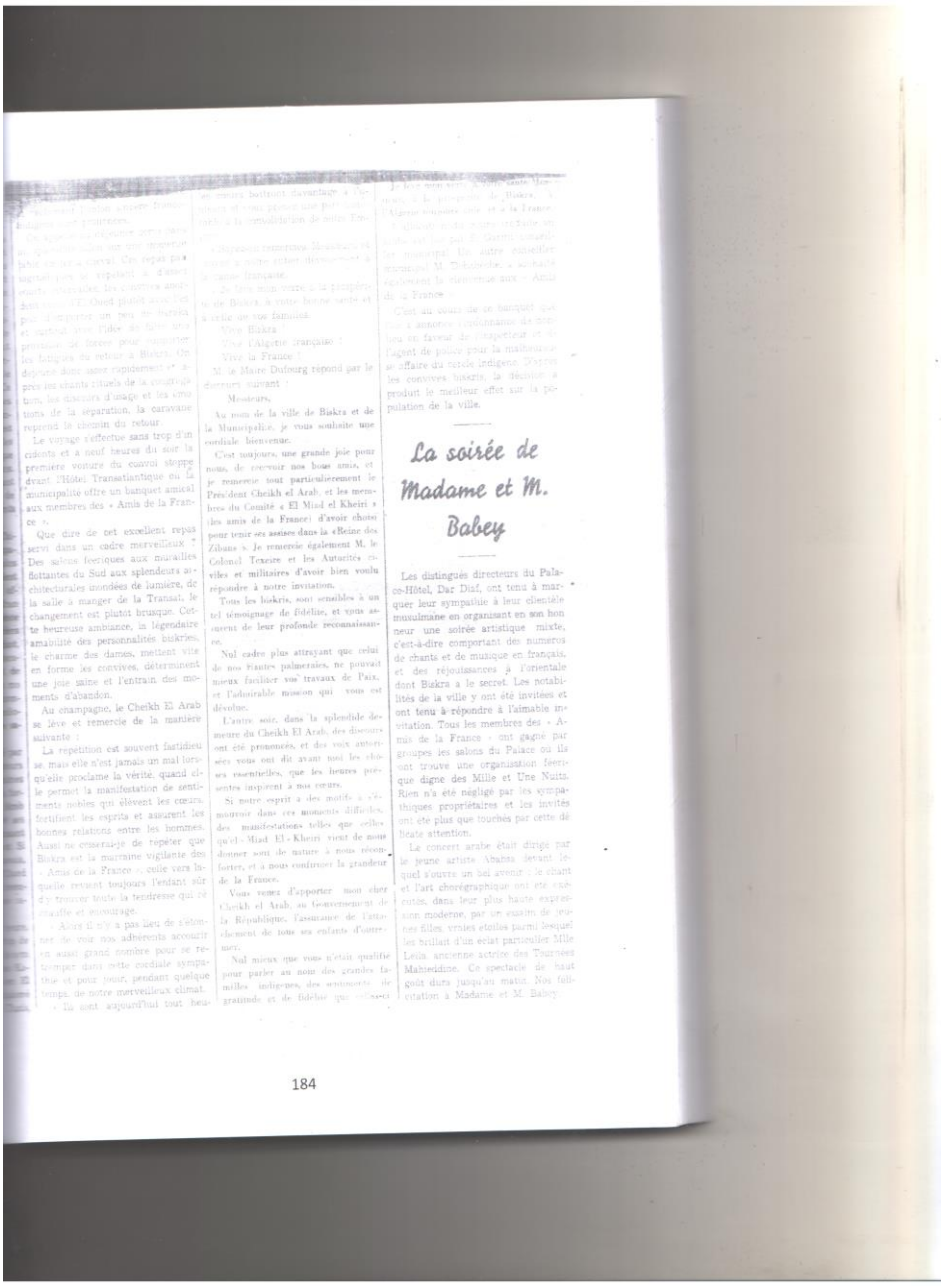

Le voyage s'effectue sans trop d'un
cidents et à neuf heures du soir la
première voiture du convoi stoppe
devant l'Hôtel Transatlantique où la
municipalité offre un banquet amical
aux membres des « Amis de la Fran
ce ».

Que dire de cet excellent repas
servi dans un cadre merveilleux ?
Des salons fleuriens aux murailles
flottantes du Sud aux splendeurs ar-
chitecturales inondées de lumière, de
la salle à manger de la Transat, le
changement est plutôt brusque. Cet-
te heureuse ambiance, la légendaire
amabilité des personnalités biskries,
le charme des dames, mettent vite
en forme les convives, déterminent
une joie saine et l'entrain des mo-
ments d'abandon.

Au champagne, le Cheikh El Arab
se lève et remercie de la manière
suivante :

La repetition est souvent fastidieu
se, mais elle n'est jamais un mal lors-
qu'elle proclame la vérité, quand el-
le permet la manifestation de senti-
ments nobles qui élèvent les cœurs,
fortifient les esprits et assurent les
bonnes relations entre les hommes.
Aussi ne craindrai-je de repeter que
Biskra est la marraine vigilante des
« Amis de la France » celle vers la-
quelle retourne toujours l'enfant sûr
d'y trouver toute la tendresse qui ré
chauffe et encourage.

« Aussi n'y a pas lieu de s'éton-
ner de voir nos adherents accourir
en aussi grand nombre pour se re-
tremper dans cette cordiale sympa-
thie et pour jouir, pendant quelque
temps, de notre merveilleux climat.

« Ils sont aujourd'hui tout heu-

184

الملحق 04: الرحلة الرابعة

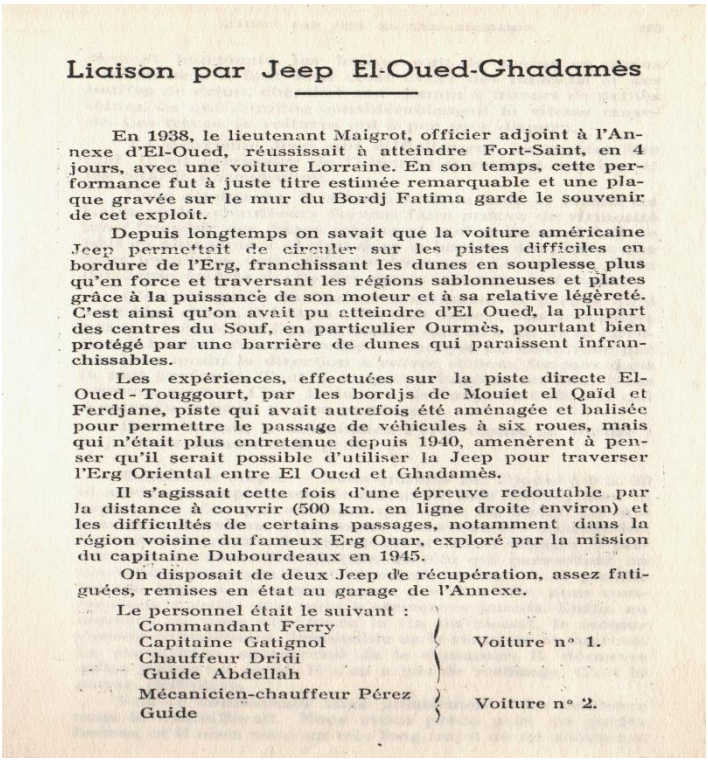

Liaison par Jeep El-Oued-Ghadamès

En 1938, le lieutenant Maigrot, officier adjoint à l'Annexe d'El-Oued, réussissait à atteindre Fort-Saint, en 4 jours, avec une voiture Lorraine. En son temps, cette performance fut à juste titre estimée remarquable et une plaque gravée sur le mur du Bordj Fatima garde le souvenir de cet exploit.

Depuis longtemps on savait que la voiture américaine Jeep permettait de circuler sur les pistes difficiles en bordure de l'Erg, franchissant les dunes en souplesse plus qu'en force et traversant les régions sablonneuses et plates grâce à la puissance de son moteur et à sa relative légèreté. C'est ainsi qu'on avait pu atteindre d'El Oued, la plupart des centres du Souf, en particulier Ourmès, pourtant bien protégé par une barrière de dunes qui paraissent infranchissables.

Les expériences, effectuées sur la piste directe El-Oued - Touggourt, par les bordjs de Mouiet el Qaïd et Ferdjane, piste qui avait autrefois été aménagée et balisée pour permettre le passage de véhicules à six roues, mais qui n'était plus entretenue depuis 1940, amenèrent à penser qu'il serait possible d'utiliser la Jeep pour traverser l'Erg Oriental entre El Oued et Ghadamès.

Il s'agissait cette fois d'une épreuve redoutable par la distance à couvrir (500 km. en ligne droite environ) et les difficultés de certains passages, notamment dans la région voisine du fameux Erg Ouar, exploré par la mission du capitaine Dubourdeaux en 1945.

On disposait de deux Jeep de récupération, assez fatiguées, remises en état au garage de l'Annexe.

Le personnel était le suivant :

Commandant Ferry Capitaine Gatignol Chauffeur Dridi Guide Abdellah	Voiture n° 1.
Mécanicien-chauffeur Pérez Guide	Voiture n° 2.

الوصل بين الوادي وغدامس بسيارة الجيب

Départ d'El-Oued : le 8 mars, à 6 heures.

Première étape : Bir-Djedid. — Nous atteignons rapidement le petit village de Hassi-Khalifa, le dernier sur

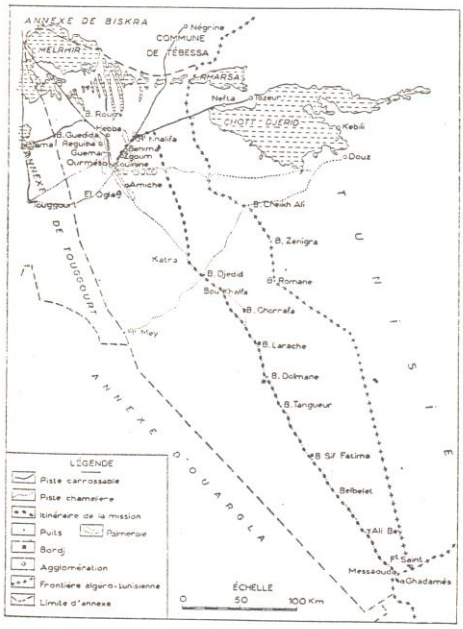

notre trajet. Après avoir quitté la piste de Tozeur, nous pénétrons dans une zone d'abord facile où nous suivons de nombreuses traces de voitures. Peu à peu le terrain

خريطة الرحلة بين الوادي وغدامس

devient tourmenté, les balises sont de moins en moins nombreuses, il faut sans cesse éviter des buissons et des touffes de drinn, chercher son chemin à travers de petites dunes, ce qui diminue considérablement la vitesse moyenne. Les traces de voitures ont à peu près disparu.

La deuxième Jeep suit difficilement. Le moteur tire mal. Il est nécessaire de l'attendre à maintes reprises et les retards s'accumulent.

Nous atteignons, à la tombée de la nuit, le massif du Katra où les chauffeurs doivent faire preuve de virtuosité pour franchir des dunes serrées et enchevêtrées. Il fait de plus en plus sombre et c'est dans la lumière des phares que nous terminons cette difficile traversée. Le moteur de la deuxième voiture donne des signes très nets de fatigue.

C'est au guide de fournir maintenant la preuve qu'il a été bien choisi. Il fait en effet nuit noire. Nous ne sommes pas très loin de Bir Djedid, mais il faut être sûr de la direction. Abdellah fait merveille. Il indique au chauffeur par son bras tendu la direction à suivre et nous fonçons dans la nuit profonde. Tout à coup une lumière au loin. Nous sommes sauvés. C'est la lampe de l'adjudant Michel qui a entendu le bruit de nos moteurs.

Dans la nuit, le mécanicien Pérez répare sa voiture : le joint de culasse était grillé. .

Deuxième étape. — Nous quittons Bir Djedid à 6 h. 30 et atteignons rapidement le massif de Bou Khalfa, dont la réputation n'est pas moindre que celle du Katra. Le moteur de la deuxième Jeep donne à nouveau des inquiétudes. La voiture s'ensable fréquemment et il faut dégager et placer sous les roues les plaques de tôle qui permettent un nouveau démarrage. Tout le monde se met à ce pénible travail. Mais si nous n'avançons pas plus vite, nous commençons à croire que nous n'arriverons jamais. Enfin, au moment où nous atteignons la fin du massif, le moteur s'arrête brutalement. Impossible de le remettre en marche. Le mécanicien entreprend de le démonter. Il découvre qu'un piston est cassé. Il n'en a pas de rechange. C'est la panne définitive.

Va-t-on abandonner aussi piteusement ? La prudence nous le conseillerait. Nous avons perdu près de quatre heures, et il nous reste un très long trajet où ne manquent

pas les difficultés. Cependant, la première Jeep, très bien conduite par Abdellah, s'est jusqu'à présent très bien comportée. On décide de continuer.. Une nouvelle répartition des bagages s'impose.. Nous ne garderons que le strict indispensable. .Pérez et son guide rejoindront Bir-Djedid à pied (18 km.).

Nous partons avec la première Jeep et après avoir traversé de longs sahanes et franchi des dunes de plus en plus hautes, nous découvrons Bir-Larache, dominé par le bordj abandonné. L'après-midi est fort avancée. Nous aimerions pouvoir nous reposer à Bir-Taugueur ou au moins Bir-Dohmane, mais nous avançons de plus en plus péniblement et la nuit arrive. Nous décidons de camper et nous dînons et dormons à la belle étoile.

Troisième étape. — La nuit a été froide, il a plu un peu. Dridi, qui n'avait qu'une couverture, tousse à fendre l'âme. La pluie de la nuit n'a pas assez imprégné le sable pour qu'il soit consistant et les roues de la Jeep mordent dans la couche humide, la cisaillent et s'enfoncent dans le sable mou.

Nous parvenons à Bir-Dohmane, puis à Bir-Taugueur dans des délais normaux. Le paysage s'est peu à peu transformé. Nous cheminons à travers des ghourds dont les dimensions sont de plus en plus impressionnantes et dont les couleurs prennent des teintes roses et mauves de plus en plus belles. Dans ce paysage splendide, la Jeep cherche son chemin et serpente dans les couloirs, entre les dunes perpendiculaires au sens de la marche. Le temps semble long. Notre guide paraît inquiet. Si nous en croyons la carte dont nous disposons, nous devrions être sur le point d'arriver au bordj de Fatima. Après nous avoir fait contourner un massif de sable particulièrement élevé, Abdellah, dont le visage a pris une expression soucieuse, demande que l'on s'arrête. « Je suis malade, dit-il, depuis un bon moment. Ma tête tourne. Je ne sais plus où nous sommes. » Il s'enveloppe dans son burnous et se couche sur le sable.

Le chauffeur, dont la bronchite s'est accentuée, et qui, malgré son entraînement, est impressionné par l'allure insolite et grandiose du site où nous sommes arrêtés, tourne vers nous des regards apeurés. Nous interrogeons la

carte. Impossible de faire le point, car, faisant confiance à Abdellah, nous n'avons que d'assez loin contrôlé la direction. Nous avons d'ailleurs vérifié déjà que la carte est très imparfaite et que les erreurs abondent. Nous avons cependant l'impression d'avoir trop appuyé vers l'Est. Nos vivres suffiront pour quelques jours, il nous restera, quand nous aurons épuisé l'eau de nos bidons, celle du radiateur. Reposons-nous donc calmement.

Au bout d'un moment le guide se relève. « Je vais essayer de gravir ce massif, nous déclare-t-il, peut-être arriverai-je ainsi à me repérer. » Il s'en va. Le ciel est gris, un vent froid souffle avec violence, il pleut quelques gouttes. Abdellah a disparu vers l'Ouest. Nous attendons son retour. Le capitaine Gatignol, qui s'impatiente, part sur ses traces. Ayant atteint le sommet d'une dune, il nous fait tout à coup le geste de venir le rejoindre. Le chauffeur remet en marche son moteur.

Arrivés près du capitaine, nous apercevons notre guide qui, levant le bras, nous appelle. Nous le rejoignons rapidement. Il a l'air rasséréné. « J'ai retrouvé, nous dit-il, la direction. Nous ne sommes pas loin de Fatima. » Dieu soit loué ! Nous marchons franchement vers l'Ouest, ce qui correspond à nos déductions et nous rassure. Il semble que le trajet que nous effectuons soit moins pénible. Après quelques kilomètres, le moteur, brutalement, s'arrête. Le chauffeur lève le capot de la voiture. Panne d'essence. Nous avons déjà vidé dans le réservoir les bidons de secours. Il ne reste plus une goutte disponible. « Cela ne fait rien, dit le guide, nous ne sommes pas loin. Nous pouvons arriver à pied. » Laissant le chauffeur, à qui de Fatima nous enverrons de l'essence, nous partons à trois vers le bordj. Après une dune, il faut gravir une autre dune. Dans le sable où nos pieds s'enfoncent nous avançons péniblement. A chaque sommet où nous arrivons, nous espérons découvrir le but de notre étape. Rien n'apparaît à nos yeux, mais Abdallah sourit et nous dit que nous arrivons. En effet, nous découvrons enfin, tout proche et bien caché dans une vaste dépression le petit bordj blanc sur lequel flotte le drapeau français. Il est trois heures et demie. Tout surpris, les goumiers qui nous voient de loin, courent se mettre en tenue. Le lieutenant Soyer et ses sous-officiers nous présentent leur peloton bien aligné. Personne ne nous attendait, la radio de Ghadamès n'ayant pas pu transmet-

tre à temps notre message. L'accueil de nos jeunes camarades est très réconfortant. Nous donnons le courrier et les nouvelles d'El-Oued. Chacun s'ingénie à nous installer confortablement pour la nuit. On nous apporte de l'eau chaude pour notre toilette et nous garderons longtemps le souvenir des tranches de gazelle grillées à point qui nous sont servies et que des visages hilares et bronzés nous voient savourer avec un appétit de loups affamés.

Quatrième étape. — Le chauffeur et le guide ont été fort bien accueillis par les sahariens du peloton. Abdallah a retrouvé complètement son assurance. Il est fort marri de l'aventure de la veille. Dridi tousse toujours, malgré les soins qui lui ont été prodigués.

Nous reprenons notre marche de bonne heure le matin. Le paysage est splendide et nous comprenons l'excellent moral des camarades que nous quittons et qui parlent avec enthousiasme de l'Erg où ils vivent. Des massifs gigantesques burinés par le vent sont séparés par des cirques immenses où notre Jeep trouve aisément son chemin. Mais pour passer de l'un à l'autre, il faut gravir des cols impressionnants. Abdallah a toutes les audaces et Dridi n'hésite pas à se lancer à toute vitesse pour passer grâce à son élan. Des précipices s'ouvrent brutalement devant nous qu'un coup de volant fait éviter. Le danger passé, le capitaine Gatignol me regarde et éclate de rire. On dirait que cette nature exaltante et qui rappelle la haute montagne enneigée, fait naître l'optimisme et la bonne humeur.

Il faut parfois cependant, après plusieurs essais infructueux, descendre pour alléger la Jeep trop chargée. Du sommet du sif que nous atteignons à pied, nous dirigeons par gestes Abbdallah resté seul dans la voiture vers le passage qui paraît le plus facile. Il recule fort loin pour prendre son élan et il fonce. Dans le vaste paysage, on dirait une fourmi perdue. Il arrive à toute vitesse et parfois on le voit bondir au sommet, comme d'un tremplin et pendant un instant les roues ne touchent plus le sol. Nous courons pour le rattraper et reprenons nos places dans la voiture encore en marche, ce qui lui évite de s'ensabler. Nous passons ainsi, et dans les délais que la carte nous laissait prévoir, par les quelques rares points dont les noms sont mentionnés : Belbelet, Miad, Rebaia, Kebour Khadem, Ali Bey.

Les dunes s'abaissent, les ghourds se raréfient. Nous débouchons enfin dans la dépression de Ghadamès. Au centre d'une longue vallée caillouteuse, apparaît enfin le bordj Messaouda où les méharistes du maréchal des logis Calmet nous rendent les honneurs. Atteindre Ghadamès n'est plus qu'un jeu. Nos camarades nous attendent, bien que nous arrivions avec un jour de retard. La liaison auto El-Oued-Ghadamès vient d'être pour la première fois réalisée.

Après deux jours de repos bien nécessaires pour Abdallah et Dridi, qui ont fourni pendant ces quatre journées des efforts considérables, nous prenons le chemin du retour. Trois étapes cette fois suffiront. Mais la dernière, interrompue par une panne irréparable avec nos seuls moyens, nous vaudra de passer à 40 km. d'El-Oued, à vol d'oiseau, une journée de plein soleil.

Et l'on peut, à l'issue de cette randonnée sportive, au total fort agréable, se demander ce qu'il convient d'admirer le plus, cette Jeep lourdement chargée et effectuant un parcours de plus de 1.200 km. dans un terrain le plus souvent extrêmement difficile, ce guide nomade trouvant son chemin on ne sait grâce à quels repères, avec un sens remarquable des possibilités de la voiture, ce chauffeur sédentaire quelque peu effrayé par le Sahara, mais aux réflexes prompts et au coup d'œil infaillible au moment du danger. Tous trois ont fait merveille.

Chef de bataillon J. FERRY.

الملحق 05: المنارة التاريخية بسوف

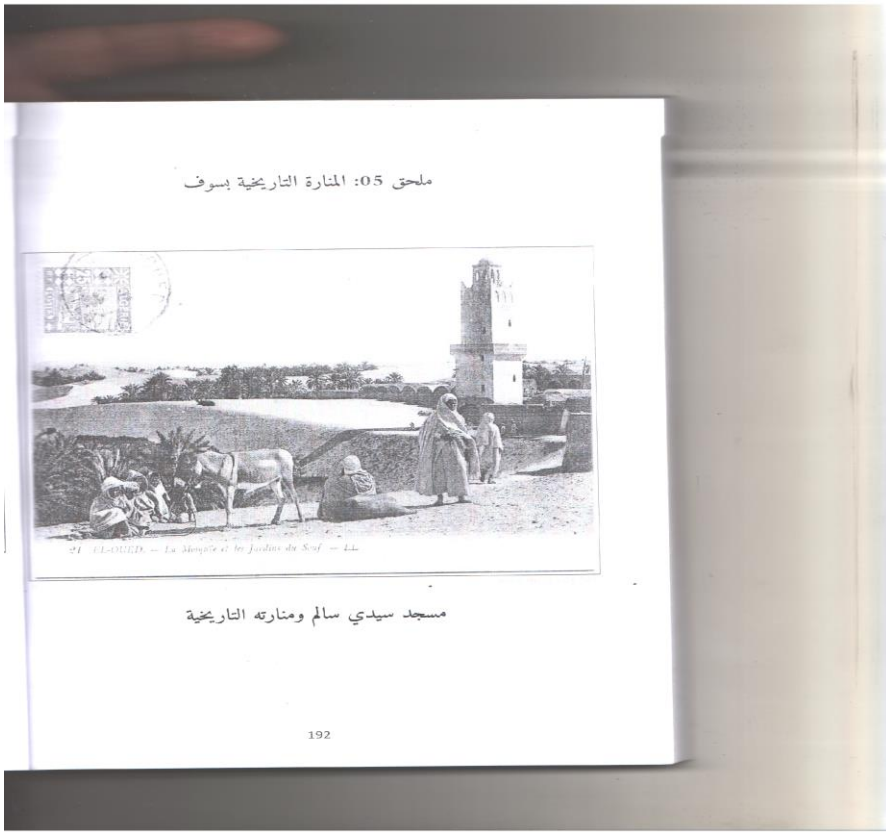

الملحق 06: سوق مدينة الوادي

ملحق 06: سوق مدينة الوادي

رحبة القمح وسوق مدينة الوادي

193

الملحق 07: فندق الوادي

ملحق 07: فندق الوادي

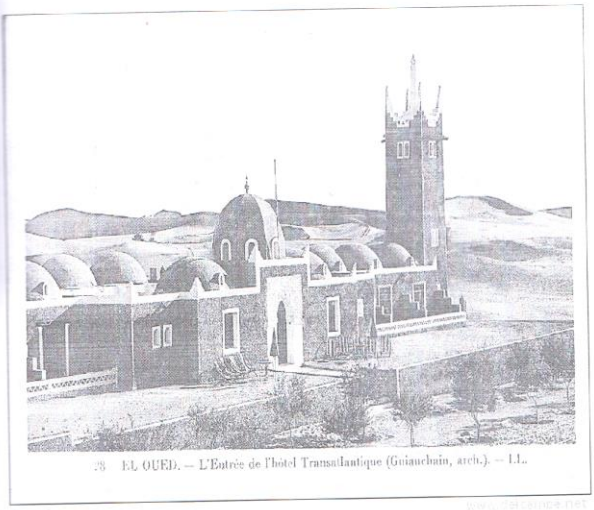

78 EL OUED. — L'Entrée de l'hôtel Transatlantique (Guiauchain, arch.). — I.L.

فندق الترانزات
الذي أقام فيه وفد الميعاد الخيري

194

الملحق 08: غابات النخيل بسوف

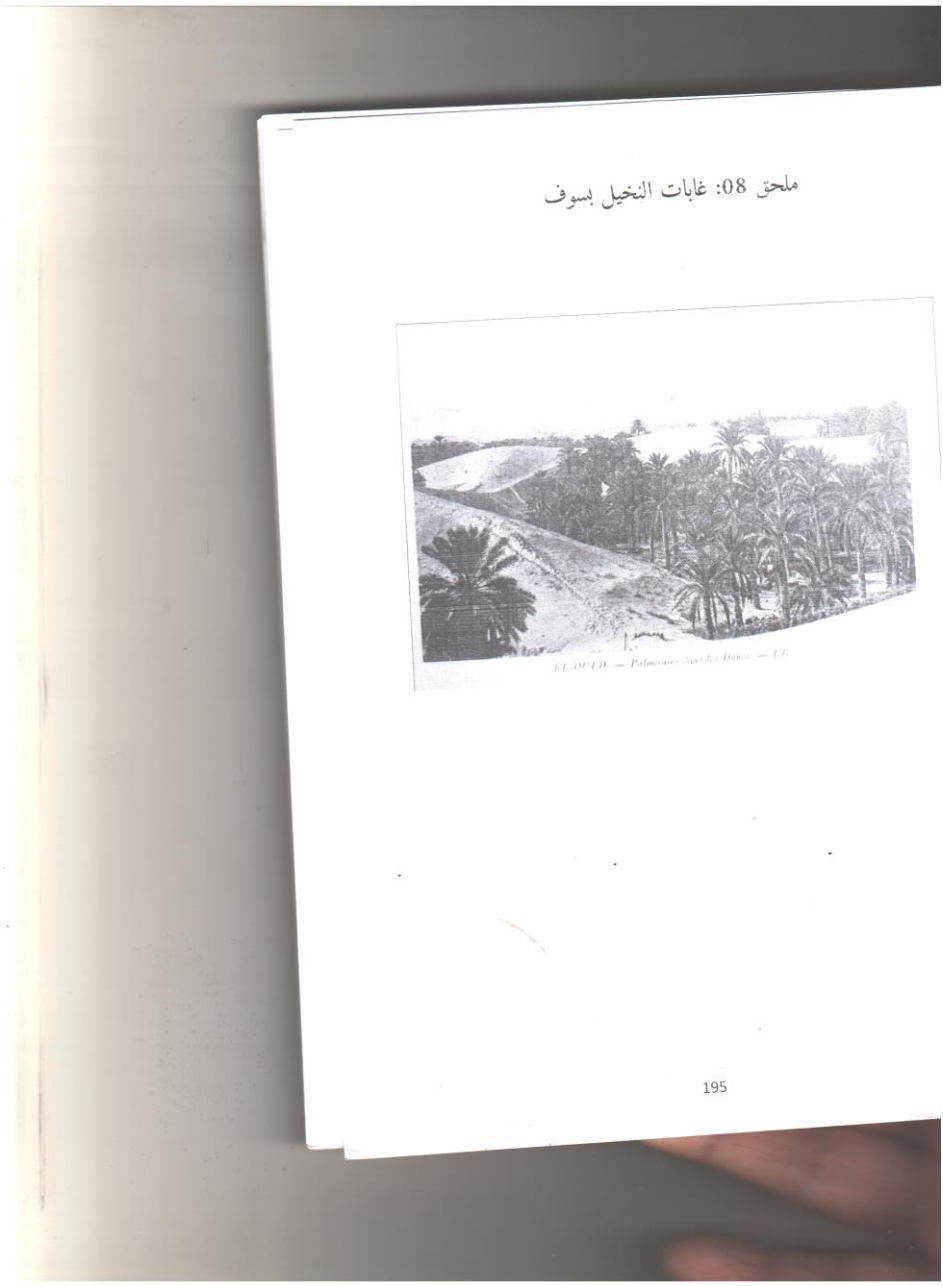

الملحق 09: نموذج لسيارة الجيب

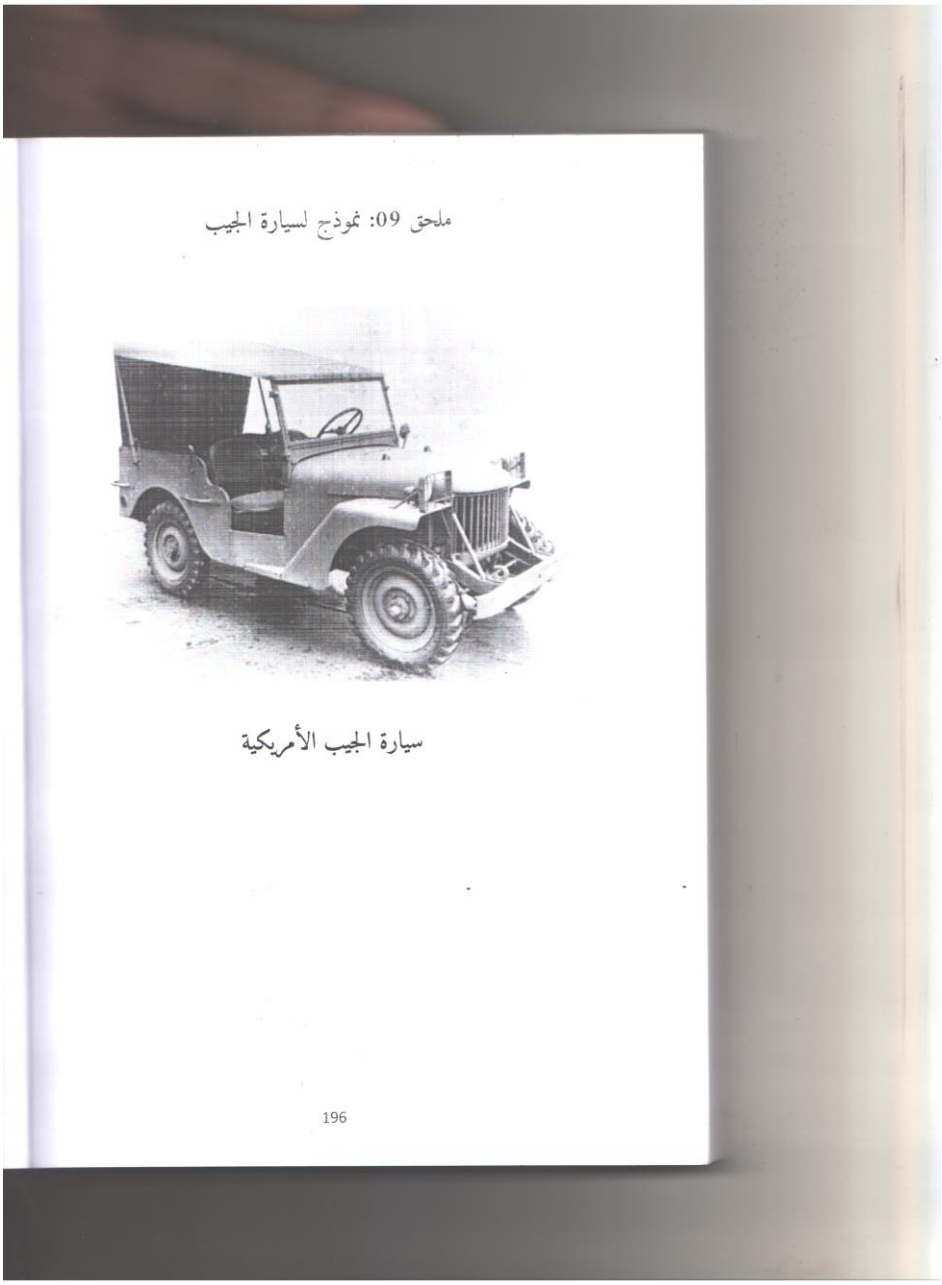

مصادر ومراجع الدراسة والتعليق

ـ المخطوطات:

ـ العدواني محمد، **مخطوط تاريخ** - (نسخة احمد خراز).

ـ سالمي مصطفى: **الدر المصفى**، تصنيف وتحقيق علي غنابزية، مخ.

ـ التليلي محمد الطاهر: **من تاريخ وادي سوف.**

ـ الكتب العربية:

دار الوليد، الوادي – الجزائر، 2006.

ـ أمين أحمد : **فجر الإسلام**، المكتبة العربية، ط1، بيروت، 2006.

ـ أمين أحمد : **ظهر الإسلام**، المكتبة العربية، ط1، بيروت، 2006،ج1.

مارس 2008.

البعث. ط 1. قسنطينة.

ـ تشرشل شارل هنري : **حياة الأمير عبد القادر**، ترجمة أبو القاسم سعد الله، الدار التونسية للنشر – تونس، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - الجزائر،1974.

الجامعية، ط7، الجزائر، 1994.

ـ حليس يوسف: **الموسوعة النباتية لمنطقة سوف**، النباتات الصحراوية الشائعة في منطقة العرق الشرقي. دار الوليد، الوادي-الجزائر، نوفمبر 2007.

ـ خميس حسن: **فن الترجمة من الفرنسية إلى العربية وبالعكس**، دار الطلائع، القاهرة، كتاب الكتروني مصور عن الأصل.

ـ دودو أبو العيد: **الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان 1830-1855**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989.

ـ الزهار الشريف: مذكرات **الحاج أحمد الشريف الزهار**، تحقيق أحمد توفيق المدني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط2، الجزائر، 1980.

ـ مجمع اللغة العربية: **المعجم الوسيط**، مكتبة الشروق الدولية، ط 4، مصر.

ـ محمد العدواني: **تاريخ العدواني**، تحقيق أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1996.

ـ المدني أحمد توفيق: **كتاب الجزائر**، نشر دار الكتاب، ط2، البليدة-الجزائر، 1963.

ـ المدني أحمد توفيق: **كتاب الجزائر**، دار البصائر، الجزائر، 2009.

ـ مفتاح عبد الباقي: **أضواء على الشيخ أحمد التجاني وأتباعه**، الوليد للنشر، الوادي –الجزائر، (ب ت).

- مياسي إبراهيم: **توسع الاستعمار الفرنسي في الجنوب الغربي الجزائري 1881-1912**، منشورات متحف المجاهد، الجزائر، 1996.
- مياسي إبراهيم: **من قضايا تاريخ الجزائر المعاصر**، ديوان المطبوعات الجامعية. الجزائر، 1999.
- الميلي مبارك: **تاريخ الجزائر في القديم والحديث**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، د ت، ج1.
- صبري محمد: **تاريخ العصر الحديث- مصر من محمد علي إلى اليوم**، مطبعة مصر، ط2، القاهرة، 1927.
- العربي إسماعيل: **الصحراء الكبرى وشواطئها**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983.
- عناني محمد: **فن الترجمة**، الشركة المصرية العالمية للنشر، ط5، القاهرة، 2000.
- العوامر إبراهيم: **الصروف في تاريخ الصحراء وسوف**، تعليق الجيلاني العوامر. الدار التونسية للنشر. تونس. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر. 1977.
- فايسات أوجين: **تاريخ بايات قسنطينة في العهد التركي 1792-1873م**، ترجمة صالح نور، دار قرطبة، ط1، الجزائر، 2010.
- فيرون ريمون: **الصحراء الكبرى**، ترجمة جمال الدين الدياصوري، مراجعة شكري نصري، مؤسسة سجل العرب، القاهرة، 1963.

ـ قادري عبد الحميد إبراهيم: **التعريف بوادي ريغ،** منشورات جمعية الوفاء للشهيد بتقرت. الآمال للطباعة بالوادي. 1999.
ـ سعد الله أبو القاسم: **أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر،** دار الغرب الإسلامي، ط3، بيروت، 1990، ج1- 2.
ـ سعد الله أبو القاسم: **تاريخ الجزائر الثقافي،** دار الغرب الإسلامي. ط 1. بيروت. 1992. ج5-6.
ـ سعد الله أبو القاسم: **الحركة الوطنية الجزائرية،** دار الغرب الإسلامي. ط 1. بيروت. 1998. ج1.

ـ الكتب الفرنسية:

- Duveyrier Henri : **les Touareg de Nord Exploration du Sahara**, paris,1864.
- L. Féraud :Recueil des notices de la société archéologique de la province de Constantine, paris, 1868.
- L. Feraud – **le Sahara de Constantine et de Tunis** –1868.
- Fontaine Pierre **: Touggourt Capitale des Oasis ,** Edition Devry, Paris, 1952, p122.
-Marcassin Lucien : **L'agriculture dans le Sahara de Constantine** , imprimerie Berger- levrault,nancy,1895.
- G. G. de l'Algérie **: les Territoires du Sud,** première partie de l'Algérie , Imprimerie Algérienne, Alger, 1929.
- Les amis de Sahara, **Orange du l'association Les amis de Sahara**, Alger,1932.

ـ المجلات والمقالات:

ـ بالعربية:

ـ ج ايفر -الأغواط – في - **دائرة المعارف الإسلامية** – دار الشروق. 1933 القاهرة. المجلد الثالث.

ـ سعد الله أبو القاسم " المترجمون الجزائريون وافريقية " في **مجلة الثقافة.** العدد 113. 1996.

ـ سعد الله أبو القاسم "مهمة موتيلانسكي في سوف لدراسة اللهجة الغدامسية سنة 1903" ـ في ـ**مجلة الثقافة**، الجزائر، 1995، العدد 108/107.

ـ غنابزية علي " تحدي الإنسان للرمال وتطويع الصحراء للعمران البشري" ـ في ـ ملتقى الإنسان والصحراء الكبرى قراءات تاريخية واجتماعية المنعقد يومي 23-27 نوفمبر 2011، بالمركز الجامعي بغرداية –الجزائر، نشر ـ في ـ **مجلة الواحة للبحوث والدراسات**، العدد 15، المطبعة العربية، غرداية.

ـ بالفرنسية:

:La Première Traversée du Sahara en Automobile,
Conférence faità Alger- Audouin Dubreui
6 Juin 1923 in (**BSGA**) 3T, -N° 95,1923, pp329-340.
- Couvet –Notes sur le souf et les souafa– **Bulletin de la société de géographie d'Alger**. 1934.
- Escard – Etude médicale et climatologique sur le pays de l'oued-Souf – publié dans l**es archives de médecine militaire** en 1886. T 7.

- Ferry **:"** Isabelle Eberhardt et le Souf " ,(**B L S**) N:3. Fev1951.
- Ferry: **"** Liaison par Jeep El-oued-Ghadamès**" ,** (**T. I. R. S)** T 5, Université d'Alger, 1948.
- leselle Roger: les noirs du Souf, **Supplément au bulletin de** .**liaison Saharien** ,S D
- Maréchal Jubeau**:**"La Mort de Soif du Mehariste Hamou ben Mabrouk(**BLS**) N: 16 Mars 1954.
- SL. Poivre :" l' Automobile "**,Revue de l'Armée d' Afrique** ,Déc 1924.
- Tourniol Renée **:** "Du Sud Tunisien au Souf ", **Revue** .**Alegria** ,N°9, Nov1933
- Vale René **:** "L'Archipel du Souf" **,Revue Alegria**, N:7, Sep 1933.
- **La Vois Indigène :**journal d'union franco – musulmane, Constantine: 475. 13 Avr 1939.

ـ مدونات الملتقيات:

ـ بن نعمية عبد المجيد " مواقف شيوخ بني جلاب في تقرت من الاحتلال الفرنسي 1830 – 1854 " – في- **مدونة الملتقى التاريخي الثالث** - لفترة حكم بني جلاب بمنطقة وادي ريغ. (1998). الجمعية التاريخية الوفاء للشهيد بتقرت. الآمال للطباعة الوادي، 1999.

ـ عميراوي أحميدة" مقاومة الشريفمحمد بن عبد الله في الجنوب من خلال وثائق نادرة " –في- **مدونة أشغال ملتقى مقاومة الشريف محمد بن عبد الله بورقلة**- جمعية الانتفاضة الشعبية التاريخية بورقلة. فبراير 1998.

الرسائل الجامعية:

ـ غنابزية علي: **مجتمع وادي سوف من خلال الوثائق المحلية في القرن التاسع عشر** " (رسالة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر(مخ) تحت إشراف الدكتور عمر بن خروف، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، نوقشت 30 (أفريل 2002).

ـ غنابزية علي: **مجتمع وادي سوف من الاحتلال الفرنسي إلى بداية الثورة التحريرية 1882-1954م** " (رسالة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر(مخ) تحت إشراف الدكتور عمر بن خروف، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، نوقشت 27 (ماي 2009).

ــ عرض تكوين : ل م د ، - **ماستر أكاديمي في التاريخ الحديث والمعاصر**، جامعة الوادي 2013/2012.

ـ المواقع الالكترونية:

ـ بالعربية:

ـ فلوسي مسعود، ترجمة المؤرخ والمحقق والمترجم الأستاذ إسماعيل العربي الجزائري، الموقع الالكتروني: **المكتبة الجزائرية الشاملة، تحت إشراف عمار رقبة الشرفي**، تم الاطلاع يوم 2019/09/21، الثامنة صباحا.

ـ عقون محمد العربي: الأثنوغرافيا "الاستعمارية" شارل فيرو نموذجا" ـ في ـ **مجلة إنسانيات**، الالكترونية، الجزائر، تم الاطلاع على المقال يوم2013/12/28.

ـ البوابة الرسمية لخمسينية الاستقلال، يوم 2014/01/04.

ـ بالفرنسية:

-louis pierre montoni-guy pervillé :**Rabah Zenati ,écrivain inconu**. net le30/12/2013.

- Wikipédia l'encyclopédie libre, le 28/12/2013.

فهرس الموضوعات

الإهداء.....03
تصدير الكتاب.....05
مقدمة..... 09
مختصرات الهوامش.....14
التمهيد المنهجي للكتاب.....15
القسم الأول.....42
صحراء قسنطينة ورحلات الفرنسيين (1860-1948).....43
1)دلالات صحراء قسنطينة..... 43
2) رحلات الفرنسيين في الصحراء الجزائرية..... 46
3 ـ الاحتلال الفرنسي لصحراء قسنطينة..... 53
4 ـ تطور وسائل النقل في صحراء قسنطينة..... 58
القسم الثاني.....63
الدراسة الوصفية التحليلية للرحلات..... 64
1 ـ الوصف العام للرحلات.....64
2 ـ المحتوى المعرفي للرحلات.....70
3 ـ دراسة تحليلية للرحلات.....77
4 ـ تقييم ونقد الرحلات..... 88

القسم الثالث.....93
رحلات الفرنسيين في صحراء قسنطينة.....93
الرحلة الأولى: أرخبيل سوف..... 94
الرحلة الثانية:من الجنوب التونسي إلى سوف.....111
الرحلة الثالثة:جولة "أصدقاء فرنسا " في الجنوب الشرقي....133
الرحلة الرابعة: الوصل بين الوادي وغدامس بسيارة الجيب.....155
الخاتمة.....167
الملاحق..... 170
مصادر ومراجع الدراسة والتحقيق..... 197
فهرس الموضوعات.....205

هذا الكتاب

هو ثمرة بحث متواصل، وعرض لتجربة في فن الكتابة والتأليف، ورصيد ثمين لمسائل في البحث العلمي. وهو يصور بريشة الكاتب، منطقة وادي سوف في بيئتها الصحراوية المميزة، وأحوال ساكنتها المعطاءة، بأسلوب سهل عذب، وعبارات تاريخية جذابة.كما هو مصدر نفيس لتعلم فن الترجمة عمليا، والتعليق على النصوص المترجمة كتابيا، ودراسة الأحداث والوقائع علميا.

إصدارات الكاتب

- إصدارات بالاشتراك:
- مفكرة نهاية القرن العشرين -1999 2000.
- مذكرة نفيسة للشيخ مبروك الشامسي، تقديم وترتيب وتعليق.
- من وحي المعركة ـ محاضرات ودراسات.
- مذكرات المجاهد بوغزالة حمد الهادي، تقديم وتحقيق.
- مذكرات المجاهد إبراهيم معتوقي، تقديم وتحقيق.
- إصدارات المؤلف الخاصة:
- ديوان الخطب المنبرية في المناسبات الوطنية.
- تنوير الأنام بأخلاق الصيام.
- الشيخ سيدي مصباح بن سيدي سالم ومآثره في الزاوية السالمية بوادي سوف.
- دراسات في تاريخ المقاومة الثقافية بالجزائر للحفاظ على الهوية الوطنية (جزءان).
- مساهمات علماء وادي سوف في النهضة العلمية والحركة الصحفية الوطنية 1900 ـ 1986.
- الشيخ محمد بن عمر العدواني حياته ومآثره.
- أدوار الكفاح المسلح بوادي سوف.
- مجتمع وادي سوف من الاحتلال الفرنسي إلى بداية الثورة التحريرية (أطروحة الدكتوراه).
- الدليل الأكاديمي للأعمال الموجهة في الدراسة التاريخية الجامعية.
- تاريخ العلاقات العثمانية المغاربية وأثرها الجيوسراتيجي على ضفتي البحر المتوسط 1492 – 1911.
- مجتمع وادي سوف من خلال الوثائق المحلية في القرن التاسع عشر.
- المساهمة بعشرات المقالات الفكرية والتاريخية في الصحف والمجلات الدولية والوطنية والمحلية.
- التعاون مع إذاعة سوف الجهوية، وإنتاج عدة برامج ذات طابع فكري وثقافي وتاريخي.
- المشاركة في أول موقع لوادي سوف على الأنترنيت، (موقع wadsouf .com) في سنة 2002.
- موقع خاص متخصص في التراث التاريخي منذ 2015 هو (أمجاد سوف) amjadsouf .com

ISBN 978-9931-650-84-3
9 789931 650843

سامي للطباعة والنشر والتوزيع
032 14 93 39
imprimerierimel39@gmail.com

تصميم